الكوفة لكان الناس إليك أسرع. فانتظر الحسين حتى إذا كان السحر لفتيانه وغلمانه:
أكثروا من الماء. فاستقوا فأكثروا، ثم ارتحلوا حتى انتهوا إلى زبالة.
وقيل: كان الحسين لا يمر بماء إلا اتبعه أهل ذلك الماء، حتى إلى زبالة فأتاه خبر مقتل أخيه
من الرضاعة عبد الله بن بقطر، وكان سرحه إلى مسلم بن عقيل من الطريق، وهو لا يدري
أنه أصيب فأخذه الحصين بالقادسية، فبعث به إلى زياد فقال له: اصعد فوق القصر فالعن
الكذاب ابن الكذاب ثم انزل حتى أرى فيك رأيي، فصعد فلما أشرف على الناس قال:
"أيها الناس، إني رسول الحسين بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم إليكم،
لتنصروه وتؤازروه على ابن مرجانة ابن سمية الدعي!" فأمر به عبيد الله فألقي من فوق
القصر إلى الأرض فتكسرت عظامه وبقي به رمق، فأتاه رجل يقال له عبد الملك بن عمير
اللخمي فذبحه، فلما عيب عليه ذلك قال: إنما أردت أن أريحه.
فلما بلغ الحسين الخبر قال لأصحابه: من أحب منكم الإنصراف فلينصرف غير حرج،
ليس علينا منا ذمام، فتفرق الناس عنه حتى بقي في أصحابه الذين خرجوا معه من
المدينة.
قال: وإنما فعل ذلك لأنه علم أن الأعراب ظنت أنه يأتي بلداً قد استقامت له طاعة أهله،
فأراد أن يعلموا علام يقدمون.
قال ثم ارتحل الحسين وسار حتى مر ببطن العقبة فنزل بها، فأتاه بعض الأعراب فسأله عن
مقصده فأخبره، قال: "إني أنشدك الله فلما انصرفت، فوالله ما تقدم إلا على الأسنة وحد
السيوف، إن هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤنة القتال ووطئوا لك الأشياء فقدمت
عليهم، كان ذلك رأياً، فأما على هذه الحال التي تذكر فإني لا أرى لك أن تفعل!" فقال
الحسين: يا عبد الله، إنه ليس يخفى على ما رأيت، ولكن الله لا يغلب على أمره!.
ثم ارتحل منها وقد استهلت إحدى وستين، وسار حتى نزل شراف فلما كان في السحر
أمر فتيانه فاستقوا من الماء وأكثروا، ثم ساروا منها صدر يومهم حتى انتصف النهار،

فكبر رجل من أصحابه فكبر الحسين، وقال: مما كبرت؟ قال: رأيت النخل، فقال عبد الله
بن سليم والمذري بن المشمعل الأسديان: والله عن هذا المكان ما رأينا فيه نخلة قط،
فقال: فما تريان. قالا: نراه والله رأى هوادي الخيل. فقال الحسين: وأنا والله أرى ذلك، ما
لنا ملجأ نلجأ إليه نجعله في ظهورنا ونستقبل القوم من وجه واحد؟ فقيل له: "بلى هذا ذو
حسم إلى جنبك تميل إليه عن يسارك، فإذا سبقت القوم إليه فهو كما تريد، فمال إليه، فما
كان بأسرع من أن طلعت هوادي الخيل، فلما رأوهم قد عدلوا عن الطريق عدلوا عنها إلى
قصدهم، فسبق الحسين إلى ذي حسم فنزل وأمر بأبنية فضربت، وجاء القوم وهم ألف
فارس عليهم الحر بن يزيد التميمي، فجاءوا حتى وقفوا مقابل الحسين رضي الله عنه: وكان
مسير الحر ومن معه من القادسية من قبل الحصين بن نمير التميمي.
فلم يزل الحر مواقفا حسينا حتى حضرت صلاة الظهر فأمر الحسين الحجاج بن مسروق
الجعفي أن يؤذن، فأذن، فلما حضرت الإقامة خرج الحسين رضي الله عنه، في إزار ورداء
ونعلين، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "أيها الناس، معذرة إلى الله وإليكم إني لم آتكم حتى
أتتني كتبكم، وقدمت على رسلكم أن اقدم علينا فإنه ليس لنا إمام لعل الله يجمعنا بك
على الهدى والحق، إن كنتم على ذلك فقد جئتكم، فإن تعطوني ما أطمئن إليه من
عهودكم ومواثيقكم أقدم مصركم، وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين انصرفت عنكم إلى
المكان الذي أقبلت منه إليكم" فسكتوا عنه، وقال للمؤذن أقم. فأقام الصلاة، فقال الحسين
للحر: أتريد أن تصلي بأصحابك؟ فقال: لا، بل صلي أنت ونصلي بصلاتك فصلى بهم
الحسين، ثم دخل واجتمع إليه أصحابه.
وانصرف الحر ودخل خيمة قد ضربت له، واجتمع عليه جماعة من أصحابه، وعاد بعض
أصحابه إلى صفهم الذي كانوا فيه، ثم أخذ كل رجل بعنان دابته وجلس في طلبها.
فلما كان وقت العصر أمر الحسين أصحابه أن يتهيئوا للرحيل ففعلوا، ثم خرج فأمر مناديه

فنادى بالعصر وأقامه، وصلى الحسين بالقوم جميعاً، ثم سلم وانصرف إليهم بوجهه، فحمد
الله وأثنى عليه ثم قال: "أما بعد، أيها الناس، فإنكم إن تتقوا الله وتعرفوا الحق لأهله يكن
أرضى لله، ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدعين ما ليس لهم،
والسائرين فيكم بالجوار والعدوان، فإن أنتم كرهتمونا وجهلتم حقنا وكان رأيكم غير ما
أتتني به كتبكم، وقدمت علي به رسلكم، انصرفت عنكم"، فقال له الحر: إنا والله لا ندري
ما هذه الكتب والرسل التي تذكر. فأمر الحسين رضي الله عنه بإخراج كتبهم فأخرجت في
خرجين مملوءين، فنثرهما بين أيديهم، فقال الحر: إنا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك، وقد
أمرنا إذا نحن لقيناك أن لا نفارقك حتى نقدمك الكوفة على عبيد الله بن زياد. فقال له
الحسين: الموت أدنى إليك من ذلك، ثم قال لقومه: قوموا فاركبوا، وركب نساؤهم.
فلما أرادوا الانصراف حال القوم بينهم وبين المسير، فقال الحسين للحر: ثكلتك أمك! ما
تريد؟ قال له: "أما والله لو غيرك من العرب يقولوها وهو على مثل الحال التي عليها ما
تركت ذكر أمه بالثكل أن أقوله كائناً من كان، ولكن والله ما إلى ذكر أمك من سبيل إلا
بأحسن ما نقدر عليه"، فقال له الحسين: ما تريد؟ قال: أريد أن أنطلق بك إلى عبيد الله
بن زياد. فقال له الحسين: إذن والله لا أتبعك، فقال الحر: إذن والله لا أدعك. فترادا القول
ثلاث مرات فلما كثر الكلام بينهما قال الحر: "إني لم أومر بقتالك، إنما أمرت أن لا أفارقك
حتى أقدمك الكوفة، فإذا أبيت فخذ طريقاً لا تدخلك الكوفة ولا تردك إلى المدينة يكون
بيني وبينك نصفا، حتى أكتب إلى ابن زياد وتكتب أنت إلى يزيد بن معاوية إن أردت أن
تكتب إليه، أو إلى عبيد الله إن شئت، فلعل الله أن يرزقني العافية من أن أقتل بشيء من
أمرك!" قال: فتياسر عن طريق العذيب والقادسية، وبينه حينئذٍ وبين العذيب ثمانية
وثلاثون ميلاً. ثم سار والحر يسايره.
قال: ثم إن الحسين خطبهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إن رسول الله صلى

الله عليه وسلم قال: "من رأى سلطاناً جائراً، مستحلاً لحرم الله، ناكساً لعهده، مخالفاً لسنة
رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا
قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله".ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا
طاعة الرحمن، وأظهرو الفساد، وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله،
وحرموا حلاله، وأنا أحق من غيري، وقد أتتني كتبكم ورسلكم ببيعتكم وأنكم لا
تسلموني ولا تخذلوني، فإن تممتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم، وأنا الحسين بن علي وابن
فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهلكم، فلكم
بي أسوة، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدي وخلعتم بيعتي فلعمري ما هي لكم بنكر، لقد
فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم، والمغرور من اغتربكم، وحظكم أخطأتم ونصيبكم
ضيعتم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه وسيغني الله عنكم، والسلام.
قال له الحر: إني أذكرك الله في نفسك، فإني أشهد لئن قاتلت لتقتلن، قال الحسين رضي الله
عنه: أبالموت تخوفني؟! وهل يعدوا بكم الخطب أن تقتلوني! وما أدري ما أقول لك؟!
ولكني أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه، لقيه وهو يريد نصرة النبي صلى الله عليه وسلم،
له فقال أين تذهب فإنك مقتول؟! فقال:

سأمضي وما بالموت عار على الفتى إذا ما نوى خيراً وجاهد مسلما
وآسى الرجال الصالحين بنفسه وفارق مثبوراً وخالف مجرما
فإن عشت لم أندم وإن مت لم ألم كفى بك ذلاً أن تعيش وترغما

قال: فلما سمع الحر ذلك تنحى عنه، فكان يسير ناحية عنه، حتى انتهوا إلى عذيب
الهجانات، فإذا هم بأربعة نفر قد أقبلوا من الكوفة على رواحلهم يجنبون فرساً لنافع بن
هلال يقال له الكامل، ومعهم دليلهم الطرماح وهو يقول:

يا ناقتاً لا تذعري من زجري وشمّري قبل طلوع الفجر
بخير ركبانٍ وخير سفر حتّى تحلّى بكريم النحر
الماجد الحرّ رحيب الصّدر أتى به الله لخير الأمر
ثمت أبقاه بقاء الدهر

فلما انتهوا إلى الحسين رضي الله عنه والتحقوا به، فقال الحر: إن هؤلاء النفر الذين من
أهل الكوفة ليسوا ممن أقبلوا معك، وأنا حابسهم أو رادهم، فقال الحسين رضي الله عنه:
"لأمنعنهم مما أمنع منه نفسي، إنما هؤلاء أعواني وأنصاري وقد كنت أعطيتني أن لا تعرض
لي حتى يأتيك كتاب من ابن زياد"، قال: أجل ولكن هؤلاء لم يأتوا معك.
فقال: "هم أصحابي وهم بمنزلة من جاء معي، فإن تممت علي ما كان بيني وبينك وإلا
ناجزتك". فكف عنهم الحر.
وسألهم الحسين عن خبر أهل الكوفة، فقال له مجمع بن عبد الله العائذي وهو أحد
الأربعة: "أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم، فهم إلبٌ واحد
عليك، وأما سائر الناس بعد فإن أفئدتهم تهوى إليك وسيوفهم غداً مشهورة عليك!".
فقال: هل لكم برسولي إليكم علم؟ فقالوا: من هو؟ قال: قيس بن مسهر الصيداوي.
قالوا: نعم، وأخبروه بمقتله، قفترقرقت عينا حسين ولم يملك دمعه، ثم قال: "فمنهم من قضى
نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا" اللهم اجعل لنا ولهم الجنة نزلاً، واجمع بيننا وبينهم
في مستقر رحمتك ورغائب مذخور ثوابك.
قال: ودنا الطرماح من الحسين، فقال له: "والله إني لأنظر فما أرى معك أحدا، ولو لم يقاتلك
إلا هؤلاء الذين أراهم ملازميك لكان كفواً لهم، وقد رأيت قبل خروجي من الكوفة إليك
بيوم ظهر الكوفة وفيه من الناس ما لم تر عيناي في صعيد واحد جمعاً أكثر منه، فسألت
عنهم، فقيل: اجتمعوا ليعرضوا ثم يسيروا إلى الحسين، فأنشدك الله إن قدرت علي ألا تقدم
إليهم شبراً إلا فعلت، وإن أردت أن تنزل بلداً يمنعك الله به حتى ترى من رأيك ويستبين
لك ما أنت صانع فسر حتى أنزلك مناع جبلنا الذي امتنعنا به من ملوك غسان وحمير
ومن النعمان بن المنذر ومن الأسود والأحمر، فأسير معك حتى أنزلك القرية، ثم لتبعث إلى
الرجال ممن بأجأ وسلمى من طيئ، فوالله لا يأتي عليك عشرة أيام حتى يأتيك طيئ رجالا
وركبانا، ثم أقم فينا ما بدا لك، فإن هاجك هيجٌ فأنا زعيم لك بعشرين ألف طائيٍ

يضربون بين يديك بأسيافهم، ووالله لا يوصل إليك أبدا وفيهم عين تطرف!".
فقال له: جزاك الله وقومك خيرا، إنه قد كان بيننا وبين هؤلاء القوم قولٌ لسنا نقدر معه
على الانصراف، ولا ندري علام تتصرف بنا وبهم الأمور!.
قال الطرماح: فودعته وقلت: "إني قد امترت لأهلي ميرةً، ومعي نفقة لهم فآتيهم فأصنع
ذلك فيهم، ثم أقبل إليك إن شاء الله، فإن ألحقك فوالله لأكونن من أنصارك". فقال لي: فإن
كنت فاعلاً فعجل رحمك الله.
قال الطرماح: فلما بلغت إلى أهلي وضعت عندهم ما يصلحهم، وأوصيت، وأخبرتهم بما
أريد، وأقبلت حتى دنوت من عذيب الهجانات، فأتاني نعي الحسين هناك!.
قال المؤرخ: ثم مضى الحسين إلى قصر بني مقاتل، فنزل به.
قال عقبة بن سمعان: فلما كان
آخر الليل أمر الحسين بالاستقاء من الماء، ثم أمرنا بالرحيل، ففعلنا، فلما سرنا ساعة خفق
الحسين برأسه خفقة فقال: "إنا لله وإنا إليه راجعون. الحمد لله رب العالمين" يعيدها مرتين
أو ثلاثاً، فأقبل عليه ابنه علي بن الحسين، فاسترجع وحمد الله وقال: "يا أبت، جعلت
فداك، مم حمدت الله واسترجعت؟". قال: "يا بني، إني خفقت برأسي خفقة، فعن لي
فارس على فرس فقال: القوم يسيرون والمنايا تسير بهم. فعلمت أنها أنفسنا نعيت إلينا!"
قال: يا أبت، ألسنا على الحق؟ قال: بلى والذي إليه مرجع العباد. قال: يا أبت إذن لا
نبالي أن نموت محقين. فقال له: جزاك الله خير ما يجزي ولداً عن والده.
فلما أصبح نزل فصلى الغداة، ثم عجل الركوب، وسار حتى انتهى إلى نينوى، والحر ومن
معه يسايرونه فإذا راكب على نجيب عليه السلاح يمسك قوسا مقبل من الكوفة، فوقفوا
جميعا ينتظرونه،فلما انتهى إليهم سلم على الحر وأصحابه، ولم يسلم على الحسين، ودفع إلى
الحر كتابا من عبيد الله بن زياد: "أما بعد، فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابي ويقدم عليك
رسولي، فلا تنزله بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء، وقد أمرت رسولي أن يلزمك فلا
يفارقك حتى يأتيني بإنفاذك أمري، والسلام".

فقال الحر: هذا كتاب الأمير عبيد الله بن زياد، يأمرني فيه أن أجعجع بكم في المكان
الذي يأتيني فيه كتابه، وهذا رسوله، وقد أمره ألا يفارقني حتى أنفذ رأيه وأمره.
قال: فأخذهم الحر بالنزول في ذلك المكان على غير ماء ولا قرية، فقالوا: دعنا ننزل في
هذه القرية يعنون نينوي أو هذه القرية يعنون الغاضرية أو هذه الأخرى يعنون شفية. فقال:
لا والله ما أستطيع ذلك، هذا رجل بعث عيناً علي.
فقال زهير بن القين للحسين: "يا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قتال هؤلاء
الساعة أهون علينا من قتال من يأتينا من بعدهم، فلعمري ليأتينا من بعدما نرى ما لا قبل
لنا به!" فقال له الحسين: ما كنت لأبدأهم بالقتال. فقال له زهير: "سربنا إلى هذه القرية
حتى ننزلها فإنها حصينة وعلى شاطئ الفرات، فإن منعونا قاتلناهم، فقتالهم أهون علينا
من قتال من يجئ بعدهم". فقال له الحسين: أية قريةٍ هي؟ قال: العقر. فقال الحسين: اللهم
إني أعوذ بك من العقر! ثم نزل، وذلك يوم الخميس الثاني من المحرم سنة إحدى وستين.
فلما كان الغد قدم عليهم عمر بن سعد بن أبي وقاص من الكوفة. وكان سبب مسيره
لقتال الحسين أن عبيد الله بن زياد كان قد بعثه على أربعة آلاف من أهل الكوفة، يسير
بهم إلى دستبى، وكانت الديلم قد خرجوا إليها وغلبوا عليها، فكتب ابن زياد له عهده
على الري، وأمره بالخروج، فخرج وعسكر بالناس، فلما كان من أمر الحسين فإذا فرغنا مما
بيننا وبينه سرت إلى عملك. فاستعفاه، فقال: نعم، على أن ترد علينا عهدنا. فلما قال له
ذلك قال: أمهلني اليوم حتى أنظر. فاستشار عمر نصحاءه، فكلهم نهاه، وأتاه حمزة بن
المغيرة بن شعبة - وهو ابن أخته - فقال له: "أنشدك الله يا خالي ألا تسير إلى الحسين
فتأثم بربك وتقطع رحمك! فوالله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض كلها - لو كان
لك - خيرٌ من أن تلقى الله بدم الحسين!" فقال: أفعل إن شاء الله. وبات ليلته مفكراً في
أمره فسمع وهو يقول:

أأترك ملك الرّيِّ والريُّ رغبتي أم ارجع مذموما بقتل حسين

وفي قتله النار التي ليس دونها حجابٌ، وملك الري قرّة عين
ثم أتى ابن زياد فقال له: إنك قد وليتني هذا العمل وسمع الناس به، فإن رأيت أن تنفذ لي
ذلك وتبعث إلي الحسين من أشراف الكوفة من لست أغنى ولا أجزأ عنك في الحرب منه
- وسمى له أناساً -، فقال له ابن زياد: لا تعلمني بأشراف الكوفة، فلست أستأمرك فيمن
أريد أن أبعث، فإن سرت بجندنا وإلا فابعث إلينا بعهدنا، قال إني سائر. فأقبل في ذلك
الجيش حتى نزل بالحسين فلما نزل به بعث إليه عزرة بن قيس الأحمسي، فقال له: ائته
فاسأله: ما الذي جاء بك؟ وماذا تريد؟ وكان عزرة ممن كتب إلى الحسين، فاستحيى منه
أن يأتيه، فعرض عمر ذلك على الرؤساء الذين كاتبوه، فكلهم أباه وكرهه.
فقام إليه كثير بن عبد الله، وكان فارسا شجاعا، فقال: أنا ذاهب إليه ووالله إن شئت
لأفتكن به. فقال عمر: ما أريد أن يفتك به ولكن أن تسأله: ما الذي جاء به؟ فأقبل إليه،
فلما رآه أبو ثمامة الصائدي قال للحسين: أصلحك الله، قد جاءك شر أهل الأرض وأجرؤه
على دم وأفتكه. فقام إليه، فقال له: ضع سيفك. قال لا والله ولا كرامة، إنما أنا رسول فإن
سمعتم أبلغتكم ما أرسلت به إليكم، وإن أبيتم انصرفت عنكم.
فقال له رجل: فإني آخذ
بقائم سيفك ثم تكلم بحاجتك. قال: لا والله لا تمسه. فقال له: أخبرني ما جئت به وأنا
أبلغه عنك ولا أدعك تدنو منه فإنك فاجر. فاستبا، ثم انصرف إلى عمر فأخبره الخبر.
فدعا عمر قرة بن قيس الحنظلي، فقال له: ويحك يا قرة، الق حسينا فاسأله: ما جاء به؟
وماذا يريد؟ فأتاه فأخبره رسالة ابن سعد، فقال له الحسين: كتب إلى أهل مصركم أن أقدم
عليهم، فأما إذ كرهتموني فإني أنصرف عنهم. فانصرف قرة إلى عمر فأخبره الخبر، فقال
عمر: إني لأرجو أن يعافيني الله من حربه وقتاله.
ثم كتب إلى عبيد الله بن زياد: "أما بعد، فإني حيث نزلت بالحسين بعثت إليه رسولي،
فسألته عما أقدمه وماذا يطلب وماذا يسأل، فقال: كتب إلي أهل هذه البلاد وأتتني رسلهم

فسألوني القدوم ففعلت، فأما إذ كرهوني وبدا لهم غير ما أتتني رسلهم فأنا منصرف
عنهم".
فلما قرئ الكتاب على ابن زياد قال:
الآن إذ علقت مخالبنا به يرجو النجاة ولات حين مناص
وكتب إلى عمر بن سعد: "بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فقد بلغني كتابك وفهمت ما
ذكرت، فاعرض على الحسين أن يبايع يزيد بن معاوية أمير المؤمنين هو وجميع أصحابه، فإذا
هو فعل رأينا والسلام" فلما قرأ عمر الكتاب قال: قد أحسست ألا يقبل ابن زياد العافية.
قال: وكتب ابن زياد إلى عمر بن سعد: "أما بعد، فحل بين الحسين وأصحابه وبين الماء،
فلا يذوقوا منه قطرة، كما صنع بالتتقي الزكي المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن عفان".
فبعث عمر عمرو بن الحجاج على خمسمائة فارس، فنزلوا على الشريعة، وحالوا بين
الحسين وأصحابه وبين الماء، ومنعوهم أن يسقوا منه قطرة، وذلك قبل قتل الحسين بثلاث.
وناداه عبد الله بن أبي حصين الأزدي: "يا حسين، ألا تنظر إلى الماء كأنه كبد السماء!
والله لا تذوق منه قطرة حتى تموت عطشاً!". فقال الحسين: "اللهم اقتله عطشا ولا تغفر
له أبدا!". قال أبو جعفر الطبري في تاريخه: قال حميد بن مسلم "والله لقد عدته بعد ذلك
في مرضه، فوالله الذي لا إله إلا هو لقد رأيته يشرب حتى يبغر، ثم يقيء، ثم يعود فيشرب
حتى يبغر، فما يروى، فما زال ذلك دأبه حتى لفظ غصته" يعني نفسه.
قال: فلما اشتد على الحسين ومن معه العطش دعا أخاه العباس بن علي، فبعثه في ثلاثين
فارساً وعشرين راجلاً، وبعث معهم بعشرين قربة، فدنوا من الماء، وقاتلوا عليه، حتى
ملئوا القرب وعادوا بها إلى الحسين.
قال: ثم بعث الحسين إلى عمربن سعد أن القني الليلة بين عسكري وعسكرك. وكان
رسوله إليه عمرو بن قرظة بن كعب الأنصاري، فخرج عمر في نحو من عشرين فارساً،
وأقبل الحسين في مثل ذلك، فلما التقيا أمر الحسين أصحابه أن يتنحوا عنه، وأمر عمر بمثل
ذلك، فتكلما، فأطالا حتى ذهب من الليل جانب، ثم انصرف كل منهما إلى عسكره.

قال: وتحدث الناس فيما بينهم ظناً يظنونه أن الحسين قال لعمر بن سعد: اخرج معي إلى
يزيد بن معاوية وندع العسكرين. فقال له عمر: إذن تهدم داري.
قال: إذن أبنيها لك. قال:
إذن نؤخذ ضياعي. قال: إذن أعطيك خيراً منها في الحجاز.
فكره ذلك عمر بن سعد.
فتحدث الناس بذلك من غير أن يكونوا سمعوه.
قال: وذكر جماعة من المحدثين أن الحسين قال: اختاروا مني خصالا ثلاثا: إما أن أرجع إلى
المكان الذي أقبلت منه، وإما أن أضع يدي في يد يزيد بن معاوية فيرى فيما بيني وبينه
رأيه، وإما أن أسير إلى أي ثغر من ثغور المسلمين شئتم فأكون رجلا من أهله لي ما لهم
وعلي ما عليهم.
وأنكر عقبة بن سمعان هذه المقالة وقال: "صحبت الحسين، فخرجت معه من المدينة إلى
مكة، ومن مكة إلى العراق، ولم أفارقه حتى قتل، وليس من مخاطبته الناس كلمةٌ إلا وقد
سمعتها، ألا والله ما أعطاهم ما يتذاكر الناس ويزعمون من أن يضع يده في يد يزيد بن معاوية
ولا أن يسيره إلى ثغر من ثغور المسلمين، ولكنه قال: دعوني أرجع من المكان الذي أقبلت
منه، أو دعوني أذهب في هذه الأرض العريضة حتى ننظر: إلام يصير أمر الناس؟.
وقيل: التقى الحسين وعمر بن سعد مراراً ثلاثا أو أربعا، فكتب عمر إلى عبيد الله بن
زياد: "أما بعد، فإن الله قد أطفأ النائرة وجمع الكلمة، وأصلح أمر الأمة، هذا الحسين قد
أعطاني أن يرجع إلى المكان الذي منه أتى، أو أن نسيره إلى ثغر من الثغور شئنا فيكون
رجلا من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم، أو أن يأتي يزيد أمير المؤمنين فيضع يده في يده
فيرى فيما بينه وبينه رأيه، وفي هذا لكم رضىً وللأمة صلاح".
فلما قرأ عبيد الله الكتاب قال: هذا كتاب رجل ناصح لأميره مشفق على قومه، نعم، قد
قبلت.
فقام إليه شمر بن ذي الجوشن فقال: "أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك وإلى جنبك، والله
لئن رحل من بلادك ولم يضع يده في يدك ليكونن أولى بالقوة والعزة ولتكونن أولى بالضعف
والعجز، فلا تعطه هذه المنزلة فإنها من الوهن، ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه،

فإن عاقبت فأنت ولي العقوبة، وإن عفوت كان ذلك لك، والله لقد بلغني أن الحسين وعمر
بن سعد يجلسان بين العسكرين فيتحدثان عامة الليل".
فقال له ابن زياد: "نعم ما رأيت، اخرج بهذا الكتاب إلى عمر بن سعد، فليعرض على
حسين وأصحابه النزول على حكمي، فإن فعلوا فليبعث بهم إلى سلما، وإن هم أبوا
فليقاتلهم، فإن فعل فاسمع له وأطع، وإن هو أبى أن يقاتلهم فأنت أمير الناس وثب عليه
فاضرب عنقه وابعث إلي برأسه".
وكتب ابن زياد إلى عمر بن سعد: "أما بعد، فإني لم أبعثك إلى الحسين لتكف عنه، ولا
لتطاوله، ولا لتمنيه السلامة والبقاء، ولا لتقعد له عندي شافعاً، انظر، فإن نزل الحسين
وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعث بهم إلى سلما، وإن أبوا فازحف إليهم حتى
تقتلهم وتمثل بهم، فإنهم لذلك مستحقون، فإن قتل الحسين فأوطئ الخيل صدره وظهره، فإنه
عاقٌ مشاقٌ قاطع ظلوم، فإن أنت، مضيت لأمرنا فيه جزيناك جزاء السامع المطيع، وإن
أنت أبيت فاعتزل عملنا وجندنا، وخل بين شمرٍ وبين العسكر، فإنا قد أمرناه بأمرنا،
والسلام".
فأقبل شمر بكتاب ابن زياد إلى عمر بن سعد، فقرأه، فقال له عمر: "مالك؟ ويلك! لا
قرب الله دارك، وقبح الله ما قدمت به علي! والله إني لأظنك أنت الذي ثنيته أن يقبل ما
كتبت به إليه، أفسدت علينا أمراً كنا نرجو أن يصلح، لا يستسلم والله حسينٌ أبدا، والله
إن نفساً أبيةً لبين جنبيه!".
فأقبل له شمر: أخبرني ما أنت صانع: أتمضي لأمر أميرك وتقاتل عدوه وإلا فخل بيني وبين
الجند والعسكر؟ فقال: لا، ولا كرامة لك، ولكن أنا أتولى ذلك.
فنهض إليه عشية الخميس لتسع مضين من المحرم.
وكان شمر لما قبض كتاب ابن زياد إلى عمر بن سعد قام هو وعبد الله بن أبي المحل،
وكانت عمته أم البنين ابنة حزام عند علي بن أبي طالب فولدت له العباس وعبد الله
وجعفرا وعثمان.
قال عبد الله: "أصلح الله الأمير، إن بني أختنا مع الحسين، فإن رأيت أن تكتب لهم أماناً
فعلت". فقال: نعم ونعمة عينٍ فأمر كاتبه فكتب له أماناً.

فلما نهض عمر إلى الحسين جاء شمر حتى وقف على أصحاب الحسين فقال: أين بنو
أختنا؟ فخرج إليه العباس وعبد الله وجعفر وعثمان بنو علي، فقالوا: مالك؟ وما تريد؟
قال: أنتم يا بني أختي آمنون، فقالوا له: لعنك الله ولعن أمانك! لئن كنت خالنا أتؤمننا وابن
رسول الله لا أمان له!
قال: ثم إن عمر بن سعد نادى: يا خيل الله اركبي وأبشري.
فركب الناس، ثم زحف بهم
نحوهم بعد صلاة العصر، والحسين جالس أمام بيته محتبياً بسيفه، إذ خفق برأسه على
ركبتيه، وسمعت أخته الصيحة. فدنت منه فأيقظته وقالت: أما تسمع الأصوات قد
اقتربت! فرفع الحسين رأسه فقال: إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام،
فقال لي: إنك تروح إلينا. فلطمت وجهها وقالت: واويلتاه!
فقال: ليس لك الويل يا أخيه،
اسكتي رحمك الله!
وقال له العباس: يا أخي أتاك القوم. نهض ثم قال: يا عباس أركب بنفسي. فقال له
العباس: بل أروح أنا. فقال: اركب أنت يا أخي حتى تلقاهم فتقول لهم: مالكم؟ وما بدا
لكم؟ وتسألهم عما جاء بهم. فأتاهم العباس فاستقبلهم في نحو عشرين فارساً، فقال لهم:
ما بدا لكم؟ وما تريدون؟ قالوا: جاء أمر الأمير بأن نعرض عليكم أن تنزلوا على حكمه
أو نناجزكم. قال: فلا تعجلوا حتى أرجع إلى أبي عبد الله فأعرض عليه ما ذكرتم.
فوقفوا، وانصرف راجعاً يركض إلى الحسين فأخبره الخبر، فقال له الحسين: ارجع إليهم فإن
استطعت أن تؤخرهم إلى غدوة لعلنا نصلي لربنا الليلة وندعوه ونستغفره. فرجع العباس
إليهم فقال: "يا هؤلاء، إن أبا عبد الله يسألكم أن تنصرفوا هذه الليلة، حتى ينظر في هذا
الأمر، فإن هذا الأمر لم يجري بينكم وبينه فيه منطق، فإذا أصبحنا التقينا إن شاء الله،
فإما رضيناه فأتينا الأمر الذي تسألوننا وتسوموننا، أو كرهناه فرددناه".
قال: وإنما أراد الحسين أن يردهم عنه تلك العشية حتى يأمر بأمره ويوصي أهله.
فاستشار عمر بن سعد شمر بن ذي الجوشن في ذلك، فقال شمر أنت الأمير والرأي رأيك:

فأقبل عمر على الناس فقال: ماذا ترون؟ فقال له عمرو بن الحجاج الزبيدي: سبحان الله!
والله لو كان من الديلم ثم سألوك هذه المنزلة لكان ينبغي لك أن تجيبهم إليها.
وقال قيس بن الأشعث: أجبهم إلى ما سألوك فلعمري ليصبحنك بالقتال غدوةً. فقال:
والله لو أعلم أن يفعلوا ما أخرتهم العشية. ثم رجع عنهم.
قال: وجمع الحسين أصحابه بعد ما رجع عمر بن سعد عنهم فقال: "أثني على الله تبارك
وتعالى أحسن الثناء، وأحمده على السراء والضراء، اللهم إني أحمدك على أن أكرمتنا
بالنبوة، وعلمتنا القرآن، وفقهتنا في الدين، وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، فاجعلنا لك
من الشاكرين، أما بعد، فإني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي ولا أهل بيت
أبر ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعاً عني خيراً، ألا وإني لأظن يومنا من هؤلاء
الأعداء غدا، ألا وإني قد أذنت لكم، فانطلقوا جميعاً في حل، ليس عليكم مني ذمام، هذا
الليل قد غشيكم فاتخذوه جملا، ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، ثم
تفرقوا في البلاد، في سوادكم ومدائنكم، حتى يفرج الله، فإن القوم إنما يطلبونني ولو قد
أصابوني لهواً عن طلب غيري!".
فقال له أخوته وأبناؤه وبنو أخيه وأبناء عبد الله بن جعفر: "لم نفعل ذلك؟ لنبق بعدك!
لا أرانا الله ذلك أبدا!". بدأهم بهذا القول العباس بن علي، ثم تكلموا بهذا ونحوه، فقال
الحسين: يا بني عقيل، حسبكم من الفتك بمسلم، فاذهبوا فقد أذنت لكم!.
قالوا: "فماذا يقول الناس؟ يقولون: أنا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الأعمام، لم
نرمي معهم بسهم، ولم نطعن معهم برمحٍ، ولم نضرب معهم بسيف، ولا ندري، ما صنعوا!لا
والله لا نفعل، ولكن نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا ونقاتل معك حتى نرد موردك فقبح الله
العيش بعدك!" .
وقام إليه مسلم بن عوسجة الأسدى، فقال: "أنحن نتخلى عنك ولم نعذر إلى الله في أداء
حقك؟ أما والله لا أفارقك حتى أكسر في صدورهم رمحي واضربهم بسيفي ما ثبت

قائمه في يدي! والله لو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دونك حتى
أموت!".
وقال له سعد بن عبد الله الحنفي: "والله لا نخليك، حتى يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة
رسول الله صلى الله عليه وسلم فيك، والله لو علمت أني أحيا ثم أحرق حياً ثم أذرى -
يفعل بي ذلك سبعين مرة - ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك! فكيف لا أفعل ذلك وإنما
هي قتلة واحدة، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبدا!".
وقال زهير بن القين: "والله لوددت أني قتلت ثم نشرت ثم قتلت، حتى أقتل هكذا ألف
قتلة، وأن الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك!".
وتكلم جماعة أصحابه بكلامٍ يشبه بعضه بعضاً في وجه واحد، فقالوا: "والله لا نفارقك،
ولكن أنفسنا لك الفداء! ونقيك بنحورنا وجباهنا وأيدينا وأبداننا! فإذا نحن قتلنا وفينا
وقضينا ما علينا!".
وهذا القول من كلام الحسين وكلامهم مروي عن زين العابدين علي بن الحسين رضي الله
عنهما.
قال: وسمعته زينب أخته في تلك الليلة وهو في خباء له يقول - وعنده حوى مولى أبي ذر
الغفاري وهو يعالج سيفه ويصلحه - :

يا دهر أفٌّ لك من خليل كم لك بالإشراق والأصيل
من صاحبٍ أو طالبٍ قتيل والدهر لا يقنع بالبديل
وإنّما الأمر إلى الجليل وكل حيٍ سالك السبيل

فأعاد ذلك مرتين أو ثلاثاً، فلما سمعته لم تملك لنفسها أن وثبت تجر ثوبها وإنها لحاسرة
حتى انتهت إليه فقالت: "واثكلاه! ليت الموت أعدمني الحياة! اليوم ماتت فاطمة أمي
وعلي أبي وحسنٌ أخي! يا خليفة الماضي وثمال الباقي!".
فنظر إليها وقال: يا أخية لا يذهبن حلمك الشيطان. قالت: بأبي وأمي أنت استقتلت نفسي فداؤك! فردد غصته،
وترقرقت عيناه، ثم قال: "لو ترك القطا ليلاً لنام! ". فقالت: "يا ويلتاه! أفتغضب نفسك
اغتصاباً؟ فذلك أقرح لقلبي وأشد على نفسي!". ثم لطمت وجهها وأهوت إلى جيبها
فشقته، ثم خرت مغشياً عليه، فقام إليها الحسين فصب على وجها الماء وقال لها: "يا

أخيه، اتق الله، وتعزي بعزاء الله واعلمي أن أهل الأرض يموتون، وأن أهل السماء لا
يبقون، وأن كل شيءٍ هالك إلا وجهه، الذي خلق الأرض بقدرته، ويبعث الخلق فيعودون
وهو فرد وحده، وأبي خيرٌ مني، وأمي خيرٌ مني، وأخي خيرٌ مني، ولي ولهم ولكل مسلم
أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم!". فعزاها بهذا ونحوه، وقال لها: "يا أخيه، إني
أقسم عليك فأبري قسمي، أن لا تشقي علي جيباً، ولا تخمشي علي وجها، ولا تدعي
علي بالويل والثبور إذا أنا هلكت! ".
ثم خرج إلى أصحابه، فأمرهم أن يقربوا بيوتهم بعضها إلى بعض، وأن يدخلوا الأطناب
بعضها في بعض، وأن يكونوا هم بين البيوت، فيستقبلوا القوم من وجه واحد، والبيوت من
ورائهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم.
قال: وقاموا الليل كله يصلون ويستغفرون ويدعون ويتضرعون.
فلما صلى عمر بن سعد الغداة، وذلك يوم السبت، وهو يوم عاشوراء، وقيل: يوم الجمعة،
خرج فيمن معه من الناس.
وعبأ الحسين أصحابه بالغداة، وكان معه اثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلاً، فجعل
زهير بن القين في ميمنته، وحبيب بن مظهر في ميسرته، وأعطا رايته العباس أخاه، وأمر
بحطب وقصب فألقي في مكان مخفض من ورائهم كأنه ساقيه كانوا عملوه في ساعة من
الليل، وأضرم فيه نارا، لئلا يؤتوا من ورائهم، فنفعهم ذلك.
وجعل عمر بن سعد على ميمنته عمرو بن الحجاج الزبيدي، وعلى ميسرته شمر بن ذي
الجوشن، وعلى الخيل عزرة بن قيس الأحمسي، وعلى الرجال شبثٌ بن ربعي، وأعطى
الراية ذويداً مولاه، وجعل على ربع المدينة عبد الله بن زهير الأزدي، وعلى ربع ربيعة
وكندة قيس بن الأشعث بن قيس، وعلى ربع مذحج وأسد عبد الرحمن بن أبي سبرة
الحنفي، وعلى ربع تميم وهمدان الحر بن يزيد الرياحي.
فشهد هؤلاء كلهم مقتل الحسين إلا الحر بن يزيد، فأنه عدل إلى الحسين وقتل على ما
نذكره.
قال: ولما أقبلوا إلى الحسين أمر بفسطاط فضرب، ثم أمر بمسك، فميث في جفنة عظيمة،

ثم دخل الحسين ذلك الفسطاط واستعمل النورة، ثم خرج فركب دابته، ودعا بمصحف
فوضعه أمامه، ورفع يديه فقال: "اللهم أنت ثقتي في كل كرب، ورجائي في كل شدة، وأنت لي
في كل أمر نزل بي ثقة وعدة، كم من هم يضعف فيه الفؤاد، وتقل فيه الحيلة، ويخذل فيه
الصديق، ويشمت فيه العدو أنزلته بك وشكوته إليك، رغبة مني إليك عمن سواك، ففرجته
وكشفته وكفيتنيه، فأنت ولي كل نعمة، وصاحب كل حسنة، ومنتهى كل رغبة!".
وأقبلوا نحو الحسين، فنظروا إلى النار تضطرم في الحطب والقصب، فقال شمر بن ذي
الجوشن: يا حسين استعجلت النار في الدنيا قبل يوم القيامة.
فقال له الحسين: يا ابن راعية المعزة أنت أولى بها صلياً!.
ثم ركب الحسين راحلته، وحمل ابنه علياً على فرسه "لاحق".
ما تكلم به الحسين
قبل إنشاب الحرب وما وعظ به الناس وما أجابوه وما تكلم به أصحابه وما أجيبوا به
وخبر مقتله
قال: ولما ركب الحسين راحلته نادى بأعلى صوته نداء يسمع جل الناس: أيها الناس،
اسمعوا قولي، ولا تعجلوني حتى أعظكم بما يحق لكم، وحتى أعتذر لكم من مقدمي
عليكم، فإن قبلتم عذري وصدقتم قولي وأعطيتموني النصف كنت بذلك أسعد ولم يكن
لكم على سبيل، وإن لم تقبلوا مني العذر ولم تعطوا النصف من أنفسكم "فأجمعوا أمركم
وشركاءكم، ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون"، "إن -ولي الله الذي
نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين".
ثم حمد الله وأثنى عليه، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى ملائكة الله
وأنبيائه، ثم قال: أما بعد، فانسبوني وانظروا من أنا؟ ثم ارجعوا إلى أنفسكم، وعاتبوها،
فانظروا هل يصلح لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيكم وابن وصيه وابن
عمه وأول المؤمنين بالله والمصدق لرسوله بما جاء به من عند ربه؟ أوليس حمزة سيد
الشهداء عم أبي؟ أوليس جعفر الطيار في الجنة بجناحين بعمي؟ أولم يبلغكم قول

مستفيض فيكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي ولأخي: "هذان سيدا شباب
أهل الجنة"؟ فإن صدقتموني بما أقول، وهو الحق، وما تعمدت كذباً مذ علمت أن الله
يمقت عليه أهله ويضر به من اختلقه، وإن كذبتموني فإن فيكم من إن سألتموه عن ذلك
أخبركم، سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري أو أبا سعيد الخدري أو سهل بن سعد
الساعدي أو زيد بن أرقم أو أنس بن مالك يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله
صلى الله عليه وسلم لي ولأخي، أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟!.
فقال له شمر: هو يعبد الله على حرف إن كان يدري ما يقول.
فقال له حبيب بن مظهر:
"والله إني لأراك تعبد الله على سبعين حرفا، وإني أشهد أنك صادق وأنك لا تدري ما
تقول، قد طبع الله على قلبك!".
ثم قال الحسين: فإن كنتم في شكٍ من هذا القول أفتشكون أني ابن بنت نبيكم؟ فوالله ما
بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غير منكم ولا من غيركم! أخبروني أتطلبوني بقتيل منكم
قتلته، أو مال لكم استهلكته، أو بقصاص من جراحة؟!.
فلم يكلموه، فنادى: "ياشبث بن ربعي، ويا حجار بن أبحر، ويا قيس بن الأشعث، ويا
يزيد بن الحارث، أم تكتبوا إلي أن قد أينعت الثمار، واخضر الجناب، وطمت الجماجم،
وإنما تقدم على جند لك مجند، فاقبل.؟"
قالوا: لم نفعل قال: "سبحان الله! بلى والله لقد فعلتم!".
ثم قال: أيها الناس إذ كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض.
فقال له قيس بن الأشعث: أولا تنزل على حكم بني عمك فإنهم لن يروك إلا ما تحب ولن
يصل إليك منهم مكروه. فقال له الحسين "أنت أخو أخيك، أتريد أن يطلبك بنوها هاشم
بأكثر من دم مسلم بن عقيل؟ لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل ولا أقر إقرار
العبيد! عباد الله، إني عذت بربي وربكم أن ترجمون إني عذت بربي وربكم من كل
متكبر لا يؤمن بيوم الحساب!"
ثم أناخ راحلته، ونزل عنها، وأمر عقبة بن سمعان فعقلها، وأقبلوا يزحفون نحوه.

فخرج زهير بن القين على فرس له شاكي السلاح، وقال: "يا أهل الكوفة، نذار لكم من
عذاب الله نذار، إن حقاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتى الآن أخوة، وعلى
دين واحد وملة واحدة، ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، فأنتم للنصيحة أهل، إن الله قد
ابتلانا وإياكم بذرية محمد صلى الله عليه وسلم لينظر ما نحن وأنتم عاملون، إنا ندعوكم إلى
نصرهم وخذلا ن الطاغية ابن الطاغية عبيد الله بن زياد فإنكم لا تذكرون منهما إلا
سوءا، يسملان أعينكم، وقطعان أيديكم وأرجلكم، ويمثلان بكم، ويرفعانكم على جذوع
النخل ويقتلان أماثلكم وقراءكم، أمثال حجر بن عدي وأصحابه، وهانئ بن عروة
وأشباهه!"
قال: فسبوه وأثنوا على عبيد الله بن زياد، ودعوا له، وقالوا: والله لا نبرح حتى نقتل
صاحبك ومن معه أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله سلماً.
فقال لهم: "عباد الله، إن ولد فاطمة أحق بالود والنصر من ابن سمية، فإن كنتم لم تنصروه
فأعيذكم بالله أن تقتلوه، خلوا بين هذا الرجل وبين ابن عمه يزيد بن معاوية، فلعمري إن يزيد
ليرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين!".
فرماه شمر بسهم وقال: اسكت، أسكت الله نأمتك، أبرمتنا بكثرة الكلام!
فقال له زهير: "يا ابن البوال على عقبيه، ما إياك أخاطب، إنما أنت بهيمة، والله ما أظنك
تحكم من كتاب الله آيتين، فأبشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم!"
فقال له شمر: إن الله قاتلك وصاحبك عن ساعة. قال: "أفبالموت تخوفني؟ فوالله للموت
أحب إلي من الخلد معكم!" ثم رفع صوته وقال: "عباد الله، لا يغرنكم من دينكم هذا
الجلف الجافي وأشباهه فوالله لا تنال شفاعة محمد قوماً هراقوا دماء ذريته وأهل بيته وقتلوا
من نصرهم وذب عن حريمهم!"
فأتاه رجل من قبل الحسين فقال له: "إن أبى عبد الله يقول لك: أقبل، فلعمري لئن كان
مؤمن آل فرعون نصح قومه وأبلغ في الدعاء لقد نصحت لهؤلاء وأبلغت لو نفع الصلح
والإبلاغ!".

قال: ولما زحف عمر بن سعد إلى الحسين أتاه الحر بن يزيد
فقال له: "أصلحك الله، أمقاتل
أنت هذا الرجل؟!" قال: "إي والله، قتالاً أيسره أن تسقط
الرءوس وتتطيح الأيدي!" قال:
أفما لكم في واحدة من الخصال التي عرض عليكم رضىً؟ قال
عمر: "أما والله لو كان
الأمر لي لفعلت! ولكن أميرك قد أبى ذلك".
فأخذ الحر يدنو من الحسين قليلاً قليلا، وأخذته رعدة، فقال له
رجل من قومه يقال له
"المهاجر بن أوس". ما تريد يا ابن يزيد؟ أتريد أن تحمل؟
فسكت، وأخذه مثل العرواء،
فقال له: "يا ابن يزيد، إن أمرك لمريب! والله ما رأيت منك في
موقف قط مثل شيء أراه
الآن! ولو قيل لي: من أشجع أهل الكوفة رجلا؟ ما عدوتك! فما
هذا الذي أرى
منك؟" فقال له: "إني - والله - أخير نفسي بين الجنة والنار،
والله لا أختار على الجنة
شيئاً ولو قطعت وحرقت!". ثم ضرب فرسه، فلحق بالحسين،
فقال له: "جعلني الله فداك
يا ابن رسول الله، أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع،
وسايرتك في الطريق،
وجعجعت بك في هذا المكان، ووالله الذي لا إله إلا هو ما ظننت
أن القوم يردون عليك
ما عرضت عليهم أبدا ولا يبلغون منك هذه المنزلة! فقلت في
نفسي لا أبالي أن أطيع القوم
في بعض أمرهم ولا يرون أني خرجت من طاعتهم، وأما هم
فسيقبلون من الحسين بعض
هذه الخصال التي يعرض عليهم، ووالله لو ظننت أنهم لا
يقبلونها منك ما ركبتها منك!
وإني قد جئتك تائباً مما كان مني إلى ربي مواسياً لك بنفسي
حتى أموت بين يديك! أفترى
ذلك لي توبة؟" قال: نعم، يتوب الله عليك ويغفر لك.
قال: فتقدم الحر، ثم قال: "أيها الأمير، ألا تقبلون من الحسين
خصلة من هذه الخصال التي
عرض عليكم فيعافيكم الله من حربه وقتاله؟" فقال له عمر:
"قد حرصت، لو وجدت إلى
ذلك سبيلاً فعلت!" فقال: " يا أهل الكوفة، لأمكم الهبل!
دعوتموه حتى إذا أتاكم
أسلمتموه! وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه ثم عدوتم عليه
لتقتلوه! أمسكتم بنفسه
وأخذتم بكظمه وأحطتم به من كل ناحية، فمنعتموه التوجه في
بلاد الله العريضة، حتى يأمن

ويأمن أهل بيته، فأصبح في أيديكم كالأسير لا يملك لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها ضرا!
ومنعتموه ومن معه من ماء الفرات الجاري الذي يشربه اليهودي والنصراني والمجوسي، وتمرغ
فيه خنازير السواد وكلابه، وهاهم قد صرعهم العطش! بئس ما خلفتم محمداً في ذريته!
لا أسقاكم الله يوم الظمأ إن لم تتوبوا وتنزعوا عن ما أنتم عليه من يومكم هذا في ساعتكم
هذه!" فرموه بالنبل، فرجع حتى وقف أمام الحسين.
وزحف عمر بن سعد، ثم نادى: "يا ذويد، أذن رايتك" ثم رمى بسهم وقال: اشهدوا أني
أول من رمى بسهم.. ثم ارتمى الناس.
وخرج يسار مولى زياد بن أبيه وسالم مولى عبيد الله بن زياد، فقالا: من يبارز؟ فخرج
إليهم عبد الله بن عمير الكلبي، فقالا له: من أنت؟ فانتسب لهما، فقالا له: لا نعرفك،
ليخرج إلينا زهير بن القين أو حبيب بن مظهر أو برير بن خضير. وكان يسار أمامك سالم،
فقال له الكلبي: "يا ابن الزانية، أوبك رغبة عن مبارزة أحد من الناس؟ وهل يخرج إليك
أحد من الناس إلا وهو خير منك؟!" ثم حمل عليه فضربه بسيفه حتى برد، فإنه لمشتغل
به يضربه إذا شد عليه سالم فلم يأبى له، حتى غشيه فبدره الضربة، فاتقاه الكلبي بيده
اليسرى فأطار أصابع كفه اليسرى، ثم مال عليه الكلبي فضربه حتى قتله.
وكان الكلبي هذا قد رأى الناس من أهل الكوفة بالنخيلة وهم يعرضون ليسرحوا إلى
الحسين، فقال: "والله لقد كنت على جهاد أهل الشرك حريصاً، وإني لأرجو أن لا يكون
جهاد هؤلاء الذين يغزون ابن بنت نبيهم أيسر ثواباً عند الله من ثوابه إياي في جهاد
المشركين!" فدخل على امرأته أم وهب بنت عبد، فأخبرها بما سمع وأعلمها بما يريد،
فصوبت رأيه وقالت: أخرجني معك! فخرج بها ليلاً حتى أتى الحسين فأقام معه، فلما قتل
العبدين أقبل يرتجز ويقول:
إن تنكروني فأنا ابن كلب
حسبي ببيتي في عليمٍ حسبي
إني امرؤ ذو مرّة وعصبٍ
ولست بالخّوّار عند النّكب
إنّي زعيمُ لك أمّ وهب

بالطعن فيهم مقدماً والضّرب
ضرب غلام مؤمنٍ بالرّبّ
فأخذت امرأته أمٍ وهب عمودا ثم أقبلت نحوه تقول له: "فداك أبي وأمي! قاتل دون
الطيبين ذرية محمد صلى الله عليه وسلم!" فأقبل إليها يردها نحو النساء، وأخذت تجاذب
ثوبه وقالت: لن أدعك دون أن أموت معك! فناداها الحسين فقال: "جزيتم من أهل بيت
خيرا! ارجعي رحمك الله إلى النساء فاجلسي معهن، فإنه ليس على النساء قتال."
فانصرفت إليهن.
وحمل عمرو بن الحجاج، وهو في الميمنة، فلما دنا من الحسين جثوا له على الركب،
وأشرعوا الرماح نحوهم، فلم تقدم خيلهم على الرماح، فذهبت الخيل لترجع، فرشقوهم
بالنبل، فصرعوا منهم رجالا وجرحوا آخرين.
وجاء عبد الله بن حوزة التميمي حتى وقف أمام الحسين، فقال له: يا حسين فقال: ما
تشاء؟ قال: أبشر بالنار. قال: "كلا، إني أقدم على رب رحيم شفيع مطاع! من أنت؟".
قال أصحابه: هذا ابن حوزة. قال: رب حزه إلى النار! فاضطرب به فرسه في جدول،
فوقع فيه، وتعلقت رجله بالركاب، ونفر الفرس، فمر به يضرب برأسه كل شجرة وحجر
حتى مات، وانقطعت فخذه وساقه وقدمه.
ثم برز الناس بعضهم إلى بعض، فصاح عمرو بن الحجاج بالناس: "يا حمقى، أتدرون من
تقاتلون؟ فرسان المصر قوماً مستميتين لا يبرز لهم منكم أحد، فإنهم قليل، فوالله لو لم
ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم!" فقال عمر: "صدقت، الرأي ما رأيت".
ثم حمل عمرو بن الحجاج على الحسين من نحو الفرات، فاضطربوا ساعة، فصرع مسلم بن
عوسجة الأسدي من أصحاب الحسين، ثم مات، فترحم الحسين عليه ثم قال: "فمنهم من
قضى نحبه، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا".
وحمل شمر بن ذي الجوشن بالميسرة على يليه من أصحاب الحسين، فثبتوا له وطاعنوه،
فقتل الكلبي، بعد أن قتل رجلين آخرين وقاتل قتالاً شديداً، فكان هو القتيل الثاني من
أصحاب الحسين.

وقاتل أصحاب الحسين قتالاً شديداً، فكانوا لا يحملون على جانب من خيل الكوفة إلا
كشفوه، فلما رأى ذلك عزرة بن قيس " وهو على خيل الكوفة " بعث إلى عمر بن سعد
فقال: " ألا ترى ما تلقى خيلي منذ اليوم من هذه العدة اليسيرة؟ ابعث إليهم الرجال
والرماة! " . فقال عمر لشبث بن ربعى: تقدم إليهم. فقال: سبحان الله! أتعمد إلى شيخ
مضر وأهل المصرعامه تبعثه في الرماة؟ لم تجد من تندب لهذا ويجزى عنك غيري! وكان
لا يزالون يرون من شبث الكراهة لقتال الحسين.
قال: فلما قال شبث ذلك دعا عمر بن سعد الحصين بن نمير وبعث معه المجففة وخمسمائة
من المرامية، فلما دنوا من الحسين وأصحابه رشقوهم بالنبل،فلم يلبثوا أن عقروا خيولهم
وصاروا رجالة كلهم.
و قاتل الناس أشد قتال حتى انتصف النهار، وهم لا يقدرون على أن ياتوا الحسين
وأصحابه إلا من وجه واحد، لا جتماع أبنيتهم وتقارب بعضها من بعض.
فأرسل عمر بن سعد رجالاً يقوضونها عن أيمانهم وعن شمائلهم، ليحيطوا بهم،فكان النفر
من أصحاب الحسين الثلاثة والأربعة يتخللون البيوت فيقتلون الرجل وهو يقوض وينهب.
فأمر بها عمر بن سعد فأحرقت، فقال الحسين:"دعوهم يحرقوها، فانهم إذا أحرقوها لا
يستطيعون أن يجوزوا منكم إليها!". فكان ذلك كذلك، وجعلوا لا يقاتلونهم إلا من وجه
واحد.
و خرجت أم وهب امرأة الكلبي تمشي إلى زوجها، حتى جلست عند رأسه، فجعلت
تمسح التراب عن وجهه وتقول: هنيئاً لك الجنة! فقال شمر لغلام اسمه رستم: اضرب
رأسها بالعمود.فضرب رأسها، فشدخه،فماتت مكانها.
و حمل شمر حتى بلغ فسطاط الحسين ونادى:" على بالنار حتى أحرق هذا البيت على
أهله". فصاح النساء وخرجن من الفسطاط.و صاح به الحسين ودعا عليه، فرده شبث
بن ربعي عن ذلك، وحمل زهير بن القين عشرة من أصحابه على شمر ومن معه فكشفهم
عن البيوت حتى ارتفعوا عنها وقتلوا أبا عزة الضبابي من أصحاب شمر، وعطف الناس

عليهم فكثروهم
فقال أبو ثمامة عمرو بن عبد الله الصائدي للحسين:" يا أبا عبد الله، نفسي لك الفداء،
اني أرى هؤلاء قد اقتربوا منك، ولا والله لا تقتل حتى أقتل دونك إن شاء الله! وأحب أن
ألقى ربي وقد صليت هذه الصلاة التي قد دنا وقتها!" فدعا له الحسين وقال: نعم هذا أول
وقتها.ثم قال سلوهم أن يكفوا عنا حتى نصلي. ففعلوا، فقال لهم الحصين بن نمير: إنها لا
تقبل. فسبه حبيب بن مظهر، فحمل عليه الحصين، وخرج إليه حبيب بن مظهر، فضرب
وجه فرسه بالسيف، فشب، فسقط عنه الحصين، فاستنقذه أصحابه، وقاتل حبيب قتالاً
شديداً، فقتل بديل به صريم التميمي، وحمل عليه آخر من تميم، فطعنه، فوقع، فذهب
ليقوم، فضربه الحصين على رأسه بالسيف، فوقع، فنزل إليه التميمي فاحتز رأسه.
فقال حسين عند ذلك: أحتسب نفسي وحماة أصحابي!! وحمل الحر بن يزيد وزهير بن
القين فقاتلا قتالاً شديداً، فقتل الحر، وقتل أبو ثمامة الصائدي ابن عم له كان عدوه.
ثم صلى الحسين صلاة الظهر بأصحابه صلاة الخوف، ثم اقتتلوا بعد الظهر، فاشتد قتالهم،
ووصل الحسين فاستقدم سعد بن عبد الله الحنفي لأمامه، فاستهدف لهم يرمونه بالنبل
حتى سقط، وقاتل زهير بن القين قتالاً شديداً وجعل يقول:
أنا زهير وأنا ابن القين
أزودهم بالسيف عن حسين
و جعل يضرب على منكب الحسين ويقول:
أقدم هديت هادياً مهدياً
فاليوم تلقى جدك النبيا
و حسناً والمرتضى عليا
و ذا الجناحين الفتى الكميا
و أسد الله الشهيد الحيا
قال: فحمل على زهير الكثير بن عبد الله الشعبي ومهاجر بن أوس فقتلاه.
قال: وكان نافع بن هلال البجلي قد كتب اسمه على أفواق نبله، وكانت مسمومة، فقتل بها
اثنى عشر رجلاً سوى من جرح، فضرب حتى كسرت عضداه، وأخذ أسيراً، فأتى به
شمر عمر ابن سعد والدم يسيل على لحيته، فقال له عمر:" ويحك يا نافع! ما حملك على

ما صنعت بنفسك؟" قال:" ان ربي يعلم ما أردت! والله قتلت منكم اثنى عشر سوى
من جرحت، وما ألوم نفسي، ولو بقي لي عضدٌ وساعدٌ ما أسرتموني!" فقال له شمر: اقتله
أصلحك الله. قال: أنت جئت به ان شئت فاقتله، فانتضى شمر سيفه، فقال له نافع:" أما
والله لو كنت من المسلمين لعظم عليك أن تلقى الله بدمائنا! فالحمد لله الذي جعل منايانا
على يد شرار خلقه!" فقتله.
ثم حمل شمر على أصحاب الحسين، فلما رأوا أنهم قد كثروا وأنهم لا يقدرون على أن
يمنعوا الحسين تنافسوا أن يقتلوا بين يديه،فجاءه عبد الله وعبد الرحمن ابنا عزرة الغفاريان
فقالا: قد جازنا العدو إليك فأحببنا أن نقتل بين يديك! فرحب بهما، وقال: ادنوا مني فدنوا
منه، فجعلا يقاتلان قريباً منه.
و جاءه الفتيان الجابريان: سيف بن الحارث بن سريع ومالك ابن عبد بن سريع، وهما ابنا
عم وأخوان لأم، وهما يبكيان، فقال:" ما يبكيكما؟ والله إني لأرجو أن تكونا عن ساعة
قريري عين!" قالا:" والله ما على أنفسنا نبكي، ولكنا نبكي عليك! نراك قد أحيط بك
ولا نقدر أن نمنعك!". فقال: جزاكما الله خيراً!.
و جاء حنظلة بن أسعد الشبامي فوقف بين يدي الحسين، وجعل ينادي: يا قوم، اني
أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب، مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود واللذين من بعدهم وما الله
يريد ظلماً للعباد، ويا قوم اني أخاف عليكم يوم التناد، يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من
عاصم، ومن يضلل الله فما له من هاد، يا قوم لا تقتلوا الحسين فيسحتكم الله بعذاب"
رحمك الله! انهم قد استوجبوا العذاب حين ردوا عليك ما دعوتهم إليه من الحق ونهضوا
إليك ليستبيحوك، فكيف بهم الآن وقد قتلوا إخوانك الصالحين؟!". قال:رح إلى خيرٍ من
الدنيا وما فيها وإلى ملكٍ لا يبلى. فسلم على الحسين واستقدم فقاتل حتى قتل.
ثم استقدم الفتيان الجابريان، فودعا حسيناً، وقاتلا حتى قتلا.
و جاء عابس بن أبي شبيب الشاكري وشوذب مولى شاكر إلى الحسين،فسلما عليه،
وتقدما فقاتلا، فقتل شوذب، وتقدم عابس نحوهم بالسيف،و به ضربة على جبينه، وكان

أشجع الناس، فجعل ينادي:" ألا رجل لرجل؟". فعرفه ربيع بن تميم الهمداني، فقال:" أيها
الناس، هذا الأسد الأسود، هذا ابن أبي شبيب، لا يخرجن إليه أحد منكم!". فقال
عمر بن سعد: ارضخوه بالحجارة. فرموه من كل جانب،فلما رأى ذلك ألقى درعه ومغفره
ثم شد على الناس، فهزمهم بين يديه، ثم عطفوا عليه من كل جانب، فقتلوه، فادعى قتله
جماعةٌ وأتوا ابن سعد، فقال:"لا تختصموا هذا لم يقتله إنسان واحد!". ففرق بينهم بهذا
القول.
و جاء أبو الشعثاء يزيد بن أبي زياد الكندي، وكان رامياً، فجثا على ركبتيه بين يدي
الحسين فرمى بمائة سهم ما سقط منها خمسة أسهم، وكان يزيد هذا ممن خرج مع عمر بن
سعد، فلما ردوا ما عرض عليهم الحسين عدل إليه، فقاتل حتى قتل.
و كان آخر من تبقى مع الحسين من أصحابه سويد بن عمرو ابن أبي المطاع الخثعمى.
و كان أول قتيل من بني أبي طالب يومئذٍ علي الأكبر ابن الحسين، وأمه ليلى ابنة أبي مرة
بن عروة بن مسعود الثقفية، وذلك أنه حمل على الناس وهو يقول:
أنا علي بن الحسين بن علي
نحن ورب البيت أولى بالنبي
تا الله لا يحكم فينا ابن الدعي
فعل ذلك مراراً وهو يشد على الناس بسيفه، فاعترضه مرة بن منقذ بن النعمان العبدي،
وطعنه، فصرع، وقطعه الناس بأسيافهم، فقال الحسين: " قتل الله قوماً قتلوك يا بني! ما
أجرأهم على الله وعلى انتهاك حرمة الرسول! على الدنيا بعدك العفاء! " وأقبل الحسين
إليه ومعه فتيانه فقال: احملوا أخاكم. فحملوه حتى وضعوه بين يدي الفسطاط الذين كانوا
يقاتلون أمامه.
وشد عثمان بن خالد الجهني وبشر بن سوط الهمذاني على عبد الرحمن بن عقيل بن أبي
طالب فقتلاه، ورمى عبد الله بن عزرة الخثعمي جعفر بن عقيل بن أبي طالب فقتله، ورمى
صبيح الصدائي عبد الله بن مسلم بن عقيل بسهم فوضع كفه على جبهته فلم يستطيع أن
يحركها ثم رماه بسهم آخر فقتله.

وحمل الناس عليهم من كل جانب، فحمل عبد الله بن قطبة الطائي على عون بن عبد الله
بن جعفر فقتله، وحمل القاسم بن الحسن بن علي فحمل عليه عمرو بن سعد بن نفيل
الأزدي، فضرب رأسه بالسيف فوقع القاسم إلى الأرض لوجهه، وقال: يا عماه! فانقض
الحسين إليه كالصقر، ثم شد شدة ليث أغضب، فضرب عمراً بالسيف، فاتقاه بالساعد،
فقطع يده من المرفق، فصاح، وحملت خيل الكوفة ليستنقذوا عمراً، فاستقبلته بصدورها،
وجالت عليه بفرسانها، فوطئته حتى مات، وانجلت الغبرة والحسين قائم على رأس القاسم
وهو يفحص برجليه، والحسين يقول: " بعداً لقوم قتلوك ومن خصمهم يوم القيامة فيك
جدك! " ثم قال: " عز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك، وأن يجيبك فلا ينفعك
صوتٌ والله كثر واتره وقل ناصره! " ثم احتمله على صدره حتى القاه مع ابنه علي ومن
قتل من أهل بيته.
قال: ومكث الحسين طويلاً من النهار، كلما انتهى إليه رجل من الناس انصرف عنه وكره
أن يتولى قتله وعظيم إثمه، فأتاه رجل من كندة يقال له " مالك بن النسير " فضربه على
رأسه بالسيف، فقطع البرنس، وأدمى رأسه، وامتلأ البرنس دماً، فقال له الحسين: " لا أكلت
بها ولا شربت! وحشرك الله مع القوم الظالمين! " وألقى ذلك البرنس، ثم دعا بقلنسوة
فلبسها واعتم، وجاء الكندي فأخذ البرنس وكان من خز، فقدم به على امرأته، وأقبل
يغسله من الدم، فقالت له: " أسلب ابن بنت رسول الله يدخل بيتي؟ أخرجه عني! " فلم
يزل ذلك الرجل فقيراً بشرٍ حتى مات.
قال:ودعا الحسين بابنه عبد الله وهو صغير، فأجلسه لفي حجره فرماه رجل من بني أسد
بسهم فذبحه، فأخذ الحسين دمه بيده فصبه بالأرض، ثم قال:"اللهم ربي إن كنت حبست
عنا النصر من السماء فاجعل ذلك لما هو خير، وانتقم من هؤلاء الظالمين!"ورمى عبد الله
بن عقبة الغنوي أبا البكر بن الحسين بسهم فقتله، وقتل إخوة الحسين وهم العباس وعبد
الله وجعفر وعثمان.

قال: واشتد عطش الحسين، فدنا من الفرات ليشرب فقال رجل من بني أبان بن درام: "
ويلكم! حولوا بينه وبين الماء "، وضرب فرسه، واتبعه الناس حتى حال بينه وبين الفرات،
فقال الحسين: اللهم أظمئه! وانتزع الأبانى سهماً فأثبته في حنك الحسين، فانتزع الحسين
السهم، ثم بسط كفيه فامتلأ دماً، فقال اللهم إني أشكو إليكما يفعل بابن بنت نبيك، اللهم
أحصهم عدداً واقتلهم بدداً، ولا تبق منهم أحداً، وقيل أن الذي رماه حصينا بن نمير،
قال: فما مكث الذي رماه إلا يسيراً، ثم صب الله عليه الظمأ فجعل لا يروى، والماء يبرد له
فيه السكر، وعساسٌ فيها لبن، وقلال فيها الماء، وإنه ليقول: ويلكم، اسقوني، قتلني الظمأ،
فيعطى القلة والعس فيشربه، فما لبث إلا يسيراً حتى انقد بطنه انقداد بطن البعير.
قال: ثم إن شمر بن ذي الجوشن أقبل في نحو عشرة من رجاله أهل الكوفة قبل منزل
الحسين الذي فيه أهله وعياله، فمشى نحوهم فحالوا بينه وبين رحله، فقال: ويلكم، إن لم
يكن لكم دين وكنتم لا تخافون يوم المعاد فكونوا في دنياكم أحراراً ذوي أحساب، امنعوا
رحلي وأهلي من طعامكم وجهالكم.قال شمر: ذلك لك يا ابن فاطمة، وأقدم شمر عليه
بالرجالة منهم أبو الجنوب عبد الرحمن الجعفي، وصالح بن وهب اليزني،وسنان بن أنس
النخعي، وخولى بن يزيد الأصبحي، وجعل شمر يحرضهم على الحسين، وهو يحمل عليهم
فينكشفون عنه، ثم أحاطوا به، وأقبل إلى الحسين غلام من أهله، فأخذته زينب بنت علي
لتحبسه، فأبى الغلام، وجاء يشتد حتى قام إلى جنب الحسين، وقد أهوى ابن كعب بن
عبيد الله " من بني تيم الله بن ثعلبة " إلى الحسين بالسيف، فقال له الغلام: يا ابن الخبيثة
أتقتل عمي؟! فضربه بالسيف فاتقاه الغلام بيده، فأطنها إلى الجلدة، فنادى الغلام: يا أمتاه،
فضمه الحسين إليه وقال: " يا ابن أخي اصبر على ما نزل بك، واحتسب في ذلك الخير،
فإن الله يلحقك بآبائك الصالحين، برسول الله صلى عليه وسلم، وعلى حمزة وجعفر
والحسن " ثم قال الحسين: " اللهم أمسك عنهم قطر السماء، وامنعهم بركات الأرض، اللهم

فإن متعتهم إلى حين ففرقهم فرقا، واجعلهم طرائق قددا، ولاترضي عنهم الولاة أبدا، فإنهم
دعونا لينصرونا، فعدوا علينا فقتلونا! " ثم ضارب الرجالة حتى انكشفوا عنهم.
قال: ودنا عمر بن سعد من الحسين فخرجت زينب بنت علي أخت الحسين فقالت: يا
عمر! أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه؟ فجعلت دموع عمر تسيل على خديه ولحيته،
وصرف وجهه عنها.
ومكث الحسين طويلاً من النهار ولو شاء الناس أن يقتلوه لفعلوا، ولكنهم كان يتقى بعضهم
ببعض، ويحب هؤلاء أن يكفهم هؤلاء، فنادى شمر بن أبي الجوشن في الناس، ويحكم، ما
تنتظرون بالرجل؟! اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم! فحملوا عليه من كل جانب، فضرب زرعة
بن شريك كفه اليسرى، وضرب على عاتقه ثم انصرفوا عنه وهو يقوم ويكبو، وحمل عليه
في تلك الحال سنان بن أنس النخعي فطعنه بالرمح فوقع، وقال لخولى بن يزيد الأصبحي
احتز رأسه، فأراد أن يفعل فضعف وأرعد، فقال له سنان: فت الله عضدك، وأبان يدك،
ونزل إليه فذبحه وأخذ رأسه فدفعه إلى خولى.
وسلب الحسين ما كان عليه، فأخذ سراويله بحر بن كعب، فكانت يداه في الشتاء تضخان
الماء، وفي الصيف تيبسان كأنهما عود، وأخذ قيس بن الأشعث قطيفته وهي من خز،
فكان يسمى بعد " قيس قطيفة ". وأخذ نعليه الأسود الأودي، وأخذ سيفه رجل من بني
نهشل. ومال الناس على الورس والحلل والإبل فانتهبوها، وانتهبوا ثقله ومتاعه وما على
النساء، حتى إن كانت المرأة لتنازع ثوبها فيؤخذ منها.
ووجد بالحسين ثلاث وثلاثون طعنة، وأربع وثلاثون ضربة، وكان سويد بن أبي المطاع قد
صرع، فوقع بين القتلى مثخناً بالجراح، فسمعهم يقولون: قتل الحسين فوجد خفة فوثب ومعه
سكين فقاتلهم بها ساعة، ثم قتله عروة بن بطان الثعلبي، فكان آخر قتيل من أصحاب
الحسين.
قال: وانتبهوا إلى علي بن الحسين وهو زين العابدين، فأراد شمر قتله وكان مريضاً فمنعه
حميد بن مسلم، وجاء عمر بن سعد فقال: لايدخلن بيت هؤلاء النسوة أحد، ولايعرضن

لهذا الغلام المريض، ومن أخذ من متاعهم شيئاً فليردده عليهم، فما رد أحد شيئاً، فقال
الناس لسنان بن أنس: " قتلت حسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله، قتلت أعظم
الناس خطراً، أراد أن يزيل ملك هؤلاء، فأت أمراءك فاطلب منهم، فإنهم لو أعطوك بيوت
أموالهم في قتله كان قليلاً " فأقبل على فرسه حتى وقف على باب فسطاط عمربن سعد،
ثم نادى بأعلى صوته:

أوقر ركابي فضةً وذهبا أنا قتلت السيد المحجبا
قتلت خير الناس أماً وأبا وخيرهم إذ ينسبون نسبا

فقال عمر بن سعد: أشهد أنك مجنون، أدخلوه، فلما دخل حذفه بالقضيب وقال: يا
مجنون أتنظم بهذا الكلام؟ لو سمعك ابن زياد لضرب عنقك.
وقيل: أنه قال ذلك لعبد الله
بن زياد، فقال: فإن كان خير الناس أماً وأباً فلم قتلته؟ وأمر به فضربت عنقه، خسر الدنيا
والآخرة.
تسمية من قتل مع الحسين
بن علي رضي الله عنهما ومن سلم ممن شهد القتال
قال: ولما قتل الحسين جاءت كندة بثلاثة عشر رأساً وصاحبهم قيس بن الأشعث،
وجاءت هوازن بعشرين رأساً، وصاحبهم شمر بن الجوشن، وجاءت بنو تميم بسبعة عشر
رأساً، وجاءت بنو أسد بستة، وجاءت مذحج بسبعة، وجاء سائر الجيش بسبعة، فذلك
سبعون راساً.
منهم أخوة الحسين ستة، وهم: العباس، وجعفر، وعبدالله، وعثمان، ومحمد " وهو ليس
ابن الحنفية "، وأبو بكر، أولاد علي بن أبي طالب.
ومن أولاد الحسين: علي، وأمه ليلى بنت أبي مرة بن عروة الثقفي، وعبد الله، وأمه
الرباب ابنة امرئ القيس الكلبي.
ومن أولاد الحسن بن علي ثلاثة: وهم أبو بكر، وعبد الله، والقاسم.
ومن أولاد عبد الله بن جعفر بن أبي طالب: عون، ومحمد.
ومن أولاد عقيل بن أبي طالب: جعفر، وعبد الرحمن، وعبد الله، ومسلم بالكوفة.
ومن موالي الحسين: سليمان، ومنجح.
وتكملة من قتل ممن اتبعه، وقد ذكرنا بعضهم بأسمائهم في أثناء هذه القصة.

وأما من سلم منهم: فالحسن بن الحسن، وعمرو بن الحسن لصغرهما، وعلي بن الحسين
لمرضه، والضحاك بن عبد الله المشرقي، وذلك أنه جاء إلى الحسين فقال: " يا أبن رسول
الله، قد أني قلت لك: إني أقاتل عنك ما رأيت مقاتلاً، فإذا لم أر مقاتلاً فأنا في حل من
الانصراف "
فقال له الحسين: " صدقت، وكيف لك بالنجاة؟ إن قدرت عليه فأنت في حل " وذلك
بعد أن فني أصحاب الحسين، قال الضحاك: فأقبلت إلى فرسي وكنت قد تركته في خباءٍ
حيث رأيت خيل أصحابنا تعقر، وقاتلت راجلاً، فقتلت رجلين، وقطعت يد آخر، ودعا
لي الحسين مراراً قال: فاستخرجت فرسي واستويت عليه، وحملت على عرض القوم
فأفرجوا لي، وتبعني منهم خمسة عشر رجلاً، ففتهم،فسلمت.
ومنهم عقبة بن سمعان مولى الرباب ابنة امرئ القيس الكلبية امرأة الحسين، أخذه عمر بن
سعد فقال: ما أنت؟ فقال: أنا عبد مملوك فخلى سبيله، فنجا
ومنهم الرقع بن تمامة
الأسدي، وكان قد نثر نبله فقاتل فجاءه نفر من قومه فأمنوه، فخرج إليهم فلما أخبر بن زيادة
به نفاه إلى الزارة.
ما كان بعد مقتل الحسين
مما هو متعلق بهذه الحادثة
قال ولما قتل الحسين نادى عمر بن سعد في أصحابه: من ينتدب للحسين فيوطئه فرسه،
فانتدب له عشرة، منهم إسحاق بن حيوة الحضرمي، وهو الذي سلب قميص الحسين
فبرص بعد ذلك، فداسوا الحسين بخيولهم حتى رضوا ظهره وصدره.
قال: ودفن جثة الحسين وجثث أصحابه أهل الغاضرية من بني أسد بعد ما قتلوا بيوم.
وقتل من أصحاب بن سعد ثمانية وثمانون رجلاً سوى الجرحى، فصلى عليهم عمر
ودفنهم.
قال: وسرح عمر برأس الحسين من يومه ذلك مع خولي بن يزيد وحميد بن مسلم الأزدي
إلى عبيد الله بن زياد، فأقبل به خولي فوجد باب القصر مغلقاً، فأتى منزله فوضعه تحت
إجانة في الدار، ثم دخل البيت فأوى إلى فراشه، فقالت له امرأته وهي النوار بنت مالك

الحضرمية: ما الخبر؟ قال: جئتك بغنى الدهر، هذا رأس الحسين معك في الدار، قالت:
قلت ويلك! جاء الناس بالذهب والفضة وجئت برأس ابن رسول الله صلى الله عليه
وسلم، والله لا يجمع رأسي ورأسك بيت أبداً، قالت: فقمت من فراشي فخرجت
وجلست أنظر، فو الله ما زلت أنظر إلى نور يسطع مثل العمود من السماء إلى الإجانة،
ورأيت طيراً بيضاً ترفرف عليها، فلما أصبح غدا بالرأس إلى عبيد الله بن زياد.
وقيل: بل الذي حمل الرأس شمر بن ذي الجوشن، وقيس ابن الأشعث، وعمرو بن بن
الحجاج، وعزرة بن قيس، فجلس بن زياد، وأذن للناس فأحضرت الرؤوس بين يديه، فجعل
ينكت بقضيب بين ثنيتي الحسين، فلما رآه زيد بن أرقم لا يرفع قضيبه، قال له: اعل بهذا
القضيب عن هاتين الثنيتين، فو الله الذي لا إله غيره لقد رأيت شفتا رسول الله صلى الله
عليه وسلم على هاتين الشفتين يقبلهما! ثم بكى، فقال له ابن زياد: أبكى الله عينيك،
فوالله لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك.
فخرج وهو يقول: أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم، قتلتم ابن فاطمة أمرتم ابن مرجاتة،
فهو يقتل خياركم ويستعبد شراركم، فرضيتم بالذل فبعداً لمن رضي بالذل قال: وأقام عمر
بن سعد يومه هذا والغد، ثم أذن في الناس بالرحيل إلى الكوفة، وحمل معه بنات الحسين
وأخواته، ومن كان معه من الصبيان، لاوعلي بن الحسين مريض، فاجتازوا به على الحسين
وأصحابه صرعى، فصاح النساء ولطمن الخدود، وصاحت زينب أخته: " يا محمداه !
صلى عليك ملائكة السماء، هذا حسين بالعراء مرمل بالدماء مقطع الأعضاء ! يا محمداه
! وبناتك سبايا ! وذريتك مقتلة تسفى عليها الصبى ! " فأبكت كل عدو وصديق.
قال: ولما أدخلوا على عبيد الله لبست زينب أرذل ثيابها وتنكرت، وحف بها إماؤها،
فقال عبيد الله: من هذه الجالسة ؟ فلم تكلمه حتى قال ذلك ثلاثاً وهي لا تكلمه، فقال
بعض إمائها: هذه زينب بنت فاطمة، فقال لها ابن زياد: الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم

وأكذب أحدوثتكم، فقالت: الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم وطهرنا
تطهيراً لا كما تقول، إنما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر، قال: فكيف رأيت صنع الله بأهل
بيتك؟ قالت: كتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم
فتحاجون إليه وتخاصمون عنده، فغضب ابن زياد واستشاط، ثم قال لها : قد شفى الله
نفسي من طاغيتك والعصاة المردة من أهل بيتك، فبكت ثم قالت: لعمري لقد قتلت كهلي
وأبرزت أهلي وقطعت فرعي واجتثثت أصلي، فإن يشفك هذا فقد اشتفيت، فقال لها
عبيد الله : هذه شجاعة فلعمري لقد كان أبوك شجاعا، قالت: ما للمرأة والشجاعة؟ إن
لي عن الشجاعة لشغلاً، ونظر عبيد الله إلى علي بن الحسين فقال له: ما اسمك؟ قال أنا
علي بن الحسين، قال : أولم يقتل الله علي بن الحسين،فسكت، فقال له ابن زياد ما لك لا
تتكلم؟ قال : قد كان لي أخ يقال له علي فقتله الناس، قال: إن الله قتله، فسكت علي،
فقال: مالك لا تتكلم؟ قال : الله يتوفى الأنفس حين موتها. وما كان لنفس أن تموت إلا
بإذن الله . قال: أنت والله منهم، ثم قال لرجل: والله إني لأحسبه رجلاً، فكشف عنه
مري بن معاذ الأحمري فقال: نعم قد أدرك، قال اقتله، فقال علي: من توكل بهؤلاء النسوة،
وتعلقت به زينب عمته، فقالت: يا ابن زياد حسبك منا أما رويت من دمائنا؟ وهل أبقيت
منا أحدا؟ واعتنقته وقالت: أسألك بالله إن كنت مؤمناً إن قتلته لما قتلتني معه، وقال
علي: يا ابن زياد إن كان بينك وبينهن قرابة فابعث معهن رجلاً تقياً يصحبهن بصحبة
الإسلام.فنظر إليهن ساعة ثم نظر إلى القوم فقال: يا عجبا للرحم والله إني أظنها ودت لو
أني قتلته أني قتلتها معه، دعوا الغلام، انطلق مع نسائك.
ثم نودي: " الصلاة جامعة" فاجتمع الناس في المسجد الأعظم فصعد ابن زياد المنبر،
فقال: الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله، ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه، وقتل
الكذاب ابن الكذاب الحسين بن علي وشيعته، فوثب إليه عبد الله بن عفيف الأزدي،

وكان من شيعة علي، وكانت عينه اليسرى ذهبت يوم الجمل مع علي، والأخرى بصفين
معه، وكان لا يكاد يفارق المسجد الأعظم، يصلي فيه إلى الليل ثم ينصرف، فقال : يا ابن
مرجانة إن الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك، والذي ولاك وأبوه ، يا ابن مرجانة تقتلون أبناء
النبيين، وتكلمون بكلام الصديقين، فقال ابن زياد: علي به، فوثبت عليه الجلاوزة فأخذوه،
فنادى بشعار الأزد "يا مبرور" فوثبت إليه فئة من الأزد، فانتزعوه، وأتوا به أهله، فأرسل
إليه من أتاه به فقتله، ثم أمر بصلبه في السبخة فصلب.
قال : وأمر ابن زياد برأس الحسين فطيف به في الكوفة.
قال : ثم أرسل ابن زياد رأس الحسين ورؤوس أصحابه مع زحر ابن قيس إلى يزيد بن
معاوية ومعه جماعة، وقيل: مع شمر وجماعة، وأرسل معهم النساء والصبيان، وفيهم علي
بن الحسين، وقد جعل ابن زياد الغل في يديه وعنقه، وحملهم على الأقتاب، فلم يكلمهم عليٌ
في الطريق، فدخل زحر بن قيس على يزيد فقال له: ما وراءك ويلك وما عندك؟ قال :
أبشر يا أمير المؤمنين بفتح الله عليك ونصره، ورد علينا الحسين بن على مع ثمانية عشر من
أهل بيته وستين من شيعته، فسرنا إليهم فسألناهم أن يستسلموا وينزلوا على حكم الأمير
عبيد الله بن زياد أو القتال، فاختاروا القتال، فغدونا عليهم مع شروق الشمس فأحطنا بهم
من كل ناحية، حتى أخذت السيوف مأخذها من هام القوم، فجعلوا يهربون إلى غير وزرٍ،
ويلوذون منا بالآكام والحفر لواذاً كما لاذ الحمائم من صقر، فو الله يا أمير المؤمنين ما كان إلا
جزر جزور، أو نومة قائل حتى أتينا على آخرهم، فهاتيك أجسادهم مجردة، وثيابهم
مرملة، وخدودهم معفرة، تصهرهم الشمس وتسفى عليهم الريح، زوارهم العقبان والرخم
بقي سبسبٍ . قال: فدمعت عينا يزيد وقال : كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل
الحسين، لعن الله ابن سمية، أما والله لو أني صاحبه لعفوت عنه، فرحم الله الحسين.
قال : ولما وصل علي بن الحسين ومن معه والرأس إلى دمشق، وقف محفر بن ثعلبة
العائذي، وكان عبيد الله قد تركهم معه ومع شمر على باب يزيد بن معاوية، ثم رفع صوته

وقال : هذا محفر ابن ثعلبة أتى أمير المؤمنين باللئام الفجرة، فأجابه يزيد ما ولدت أم محفر
شرٌ وألأم، ولكنه قاطع ظلوم، ثم دخلوا على يزيد فوضعوا الرأس بين يديه وحدثوه،
فسمعت الحديث هند بنت عبد الله بن عامر بن كريز، وكانت تحت يزيد، فتقنعت بثوبها
وخرجت فقالت: يا أمير المؤمنين رأس الحسين بن فاطمة بنت رسول الله؟ قال: نعم
فأعولي عليه وحدي على ابن بنت رسول الله وصريحة قريش، عجل عليه ابن زياد فقتله،
قتله الله، ثم أذن للناس فدخلوا عليه، والرأس بين يديه، ومعه قضيب وهو بنكت في ثغره،
ثم قال : إن هذا وأنا كما قال الحصين بن الحمام:

أبي قومنا أن ينصفونا فأنصف قواضب في أيماننا تقطر الدما
نفلق هاماً من رجال العزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما

فقال أبو برزة الأسلمي: " أتنكت بقضيبك في ثغر الحسين؟ أما لقد أخذُ قضيبك في ثغره
مأخذاً لربما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرشفه، أما إنك يا يزيد تجئ يوم القيامة
وابن زياد شفيعك ويجئ هذا ومحمد شفيعه!" ثم قام فولى.
فقال يزيد : يا حسين والله لو
أن صاحبك ما قتلتك، ثم قال: " أتدرون من أين أتى هذا؟ " قال : أبي خير من جده،
وأمي فاطمة خير من أمه، وجدي رسول الله خير من جده، وأنا خير منه، وأنا أحق بهذا
الأمر منه، فأما قوله: أبوه خير من أبي فقد حاج أبي أباه إلى الله وعلم الناس أيهما حكم
له، وأما قوله : أمي خير من أمه ، فلعمري فاطمة بنت رسول الله خير من أمي، وأما قوله
جدي رسول الله خير من جده، فلعمري ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله
فينا عدلا ولاندا، ولكنه إنما أتى من قبل فقهه، ولم يقرأ "قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من
تشاء".
قال : ثم أدخل نساء الحسين عليه والرأس بين يديه، فجعلت فاطمة وسكينة ابنتا الحسين
تتطاولان لتنظرا إلى الرأس، وجعل يزيد يتطاول ليستر عنهما الرأس، فلما رأين الرأس
صحن، فصاح نساء يزيد وولولن وبنات معاوية، فقالت فاطمة بنت الحسين وكانت أكبر من

سكينة : أبنات رسول الله سبايا يا يزيد؟ فقال : يا ابنة أخي أنا لهذا كنت أكره، فقام
رجل من أهل الشام فقال : هب لي هذه، يعني فاطمة بنت علي، فأخذت بثياب أختها
زينب وكانت أكبر منها، فقالت زينب كذبت ولو مت، ما ذلك لك ولا له، فغضب يزيد وقال
: كذبت والله إن ذلك لي، ولو شئت أن أفعله لفعلته، قالت: كلا والله ما جعل الله ذلك
لك، إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا! فغضب يزيد واستطار، ثم قال: إياي تستقبلين
بهذا، إنما خرج من الدين أبوك وأخوك، قالت زينب: بدين الله ودين أبي وأخي اهتديت
أنت وأبوك وجدك، قال: كذبت عدوة الله، قالت أنت أمير تشتم ظالماً وتقهر بسلطانك،
فاستحى وسكت، ثم أخرجن وأدخلن دور يزيد فلم تبق امرأة من آل يزيد إلا أتتهن وأقمن
المأتم، وسألهن عما أخذ منهن فأضعفه لهن، وكانت سكينة تقول: ما رأيت كافراً بالله
خيرا من يزيد بن معاوية.
قال : ثم أمر بعلي بن الحسين فأدخل مغلولاً، فقال : لو رآنا رسول الله صلى الله عليه
وسلم مغلولين لفك عنا، قال : صدقت، وأمر بفك غله عنه، فقال علي: لو رآنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم على بعد لأحب أن يقربنا، فأمر به فقرب منه، وقال له يزيد: يا علي
أبوك الذي قطع رحمي وجهل حقي ونازعني سلطاني فصنع الله به ما رأيت .
فقال علي: " ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن
نبرأها إن ذلك على الله يسير لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما أتاكم والله لا
يحب كل مختال فخور" فقال يزيد: " ما أصابكم مصيبة فبما كسبت أيديكم " ثم سكت
عنه، وأمر بإنزاله وإنزال نسائه في دار على حدة، وكان يزيد لا يتغدى ولا يتعشى إلا دعا
علياً عليه، فدعاه يوماً فجاء ومعه عمرو بن الحسن وهو غلام صغير، فقال يزيد لعمرو :
أتقاتل هذا؟ يعني خالداً ابنه، فقال : أعطني سكينا وأعطه سكينا حتى أقاتله، فضمه
يزيد إليه وقال : شنشنةٌ أعرفها من أخزم، وهل تلد الحية إلا حية؟

وقيل: لما وصل رأس الحسين إلى يزيد حسنت حال ابن زياد عنده، ووصله، وسره ما
فعل، ثم لم يلبس إلا يسيرا حتى بلغه بغض الناس له، ولعنهم إياه، وسبهم، فندم على قتل
الحسين وكان يقول: " وما علي لو احتملت الأذى وأنزلت الحسين معي في داري وحكمته في
ما يريد، وإن كان علي من ذلك وهن في سلطاني، حفظاً لرسول الله ورعايةً لحقه وقرابته،
لعن الله ابن مرجانة، فإنه اضطره، وقد سأله أن يضع يده في يدي، أو يلحق بثغر حتى يتوفاه
الله، فلم يجبه إلى ذلك، وقتله، فبغضني بقتله إلى المسلمين، وزرع في قلوبهم العداوة،
فأبغضني البر والفاجر بما استعظموه من قتلي حسينا، ما لي ولابن مرجانة لعنه الله
وغضب عليه!".
قال: ثم ندم ابن زياد أيضاً على قتله الحسين، وقال لعمر بن سعد : يا عمر ائتني بالكتاب
الذي كتبته إليك في قتل الحسين؟ قال : مضيت لأمرك وضاع الكتاب، قلب : لتجئ به،
قال : ضاع، قال : لتجئ به، قال : ترك ولله يقرأ على عجائز قريش بالمدينة اعتذاراً إليهن،
أما والله نصحتك في حسين نصيحةً لو نصحتها أبي سعد ابن أبي وقاص لكنت قد أديت
حقه! " فقال عثمان بن زياد : " صدق، والله لوددت لو أنه ليس من بني زياد رجل إلا وفي
أنفه خزامة إلى يوم القيامة، وأن حسينا لم يقتل! " فما أنكر عبيد الله بن زياد على أخيه.
ذكر ورود الخبر بمقتل الحسين
رضي الله عنه إلى المدينة وعود أهله إليها
قال : لما قتل الحسين أمر عبيد الله بن زياد عبد الملك بن الحارث السلمي بالمسير إلى
المدينة، ليبشر عمرو بن سعيد أمير المدينة بقتل الحسين، فاعتذر عبد الملك، فزجره ابن
زياد، فخرج حتى قدم المدينة، فلقيه رجل من قريش فقال : ما الخبر؟ فقال : الخبر عند
الأمير، فاسترجع القرشي، وقال : قتل والله الحسين!
ودخل عبد الملك على عمرو بن سعيد فأخبره بقتل الحسين، فقال : ناد بقتله، ففعل، قال
عبد الملك : فلم أسمع واعية قطُّ، مثل واعية نساء بني هاشم في دورهن على الحسين!
فلما سمع عمرو بن سعيد أصواتهن ضحك وقال : واعيةٌ بواعية عثمان وأنشد بيت

عمرو بن معدى كرب:
عجت نساء بني زياد عجةً كعجيج نسوتنا غداة الأرنب
والأرنب كان لبني زبيد على بني زياد بني الحارث بن كعب ثم صعد عمرو المنبر فأعلم
الناس بقتل الحسين.
قال ولما نودي بقتله خرجت زينب بنت عقيل بن أبي طالب ومعها نساء حاسرة ناشرةً
شعرها، وهي تقول :
ماذا تقولون إن قال النبي لكم : ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم؟
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي منهم أسارى وقتلى ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمي
وقيل : سمع بعض أهل المدينة يوم قتل الحسين منادياً ينادي:
أيها القاتلون جهلاً حسينا أبشروا بالعذاب والتنكيل
كل أهل السماء يدعو عليكم من نبي وملاك وقبيل
قد لعنتم على لسان ابن داو د وموسى وحامل الإنجيل
وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: " رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في
الليلة التي قتل فيها الحسين وبيده قارورة، وهو يجمع فيها دماً، فقلت : يا رسول الله ما
هذا؟ قال هذه دماء الحسين وأصحابه أرفعها إلى الله تعالى! " فأصبح ابن عباس فأعلم
الناس بقتل الحسين، وقص رؤياه.
وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى أم سلمة تراباً من تربة الحسين، حمله إليه
جبريل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " إذا صار التراب هذا دماً فقد قتل الحسين"
فحفظت أم سلمة ذلك التراب في قارورة، فلما قتل الحسين صار ذلك التراب دما فأعلمت
الناس بقتله، وهذا القول يستقيم على قول عن أم سلمة توفيت بعد الحسين.
قال : ولما أراد يزيد أن يسير آل الحسين إلى المدينة، أمر النعمان ابن بشير أن يجهزهم بما
يصلحهم، ويسير معهم رجلاً أميناً من أهل الشام، ومعه خيل تسير بهم إلى المدينة، ودعا
علياً ليودعه وقال : " لعن الله ابن مرجانة، أما والله لو أني صاحبه ما سألني خصلة أبداً
إلا أعطيته إياها، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت، ولو بهلاك بعض ولدي، ولكن

قضى الله بذلك ، كاتبني بأية حاجة تكون لك " وأوصى بهم ذلك الرسول.
فخرج بهم، فكان يسايرهم ليلاً فيكونون أمامه بحيث لا يفوتون طرفه، وإذا نزل تنحى
عنهم هو وأصحابه، فكانوا حولهم كهيئة الحرس، وكان يسائلهم عن حوائجهم ويلطف بهم
حتى دخلوا المدينة. فقالت فاطمة بنت علي لأختها : لقد أحسن هذا الرجل إلينا فهل
لك أن نصله بشيء؟ فقالت : والله ما معنا ما نصله به إلا حلينا، فأخرجتا سوارين
ودملجين لهما فبعثتا به إليه، واعتذرتا، فرد الجميع، وقال: لو كان الذي صنعته للدنيا لكان
في هذا ما يرضيني، ولكن والله ما فعلته إلا لله ولقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه
وسلم.

الاختلاف في مقر رأس الحسين
وأين دفن

قد اختلف المؤرخون في مقر رأسه، فمنهم من قال: إنه دفن بدمشق، ومنهم من زعم أنه
نقل إلى مرو، ومنهم من يقول: إنه أعيد إلى الجسد ودفن بالطف، ومنهم من قال: دفن
بعسقلان، ثم نقل إلى مصر، ومنهم من قال: دفن في المدينة عند قبر أمه فاطمة رضي الله
عنهما. وقد رأينا أن نذكر أقوالهم في ذلك ومستحجهم.
قال: فأما من قال أنه دفن بدمشق فإنه يقول: إنه لما قتل الحسين رضي الله عنه، وحمل
رأسه إلى عبيد الله بن زياد بالكوفة كما تقدم وحمله إلى دمشق، طلب من يقوره فلم يجبه
إلا طارق بن المبارك مولى بني أمية وكان حجاماً، ففعل، وقد هجي أبو يعلى الكاتب، وهو
أحد أسباط طارق هذا، فقيل فيه:

شق رأس الحسين جدُ أبى يع لى وساط الدماغ بالإبهام

ثم أرسل ابن زياد به إلى دمشق، فنصبه يزيد بن معاوية فيها ثلاثة أيام، ووضع في مسجد
عند باب المسجد الجامع، يعرف بمسجد الرأس، وهو تجاه باب الساعات، كان بابه هناك،
ثم سد وفتح من مشهد زين العابدين في سنة ثلاثين وستمائة ونحوها، ثم كان الرأس في
خزانة يزيد بن معاوية.
واختلف أيضاً القائلون إنه دفن بدمشق في المكان الذي دفن فيه بها. فحكى ابن أبي

الدنيا في المقتل عن منصور بن جمهور أنه قال: دخلت خزانة يزيد بن معاوية، فلما فتحت
أصبت جونة حمراء فقلت لغلام لي يقال له سليم: احتفظ بهذه الجونة فإنها كنز من كنوز
بني أمية، فلما فتحتها وجدت بها رأساً وورقة مكتوب فيها: " رأس الحسين بن علي بن
فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم "، وإذا هو مخضوب بالسواد، فلفه بثوب ثم
دفنه عند باب الفراديس، عند البرج الثالث مما يلي المشرق.
وحكى الاسترباذي في كتابه " الداعي إلى وداع الدنيا " عن أبي سعيد الزاهد أنه قال: قبر الحسين بكربلاء ورأسه بالشام
في مسجد دمشق على رأس أسطوانة، وقال غيره: على عمودين يمين القبلة، وقيل أن يزيد
دفنه في قبر أبيه معاوية، ومنهم من قال: في مقابر المسلمين. وأما من قال : إنه بمرو فإنه
يقول: إن أبا مسلم الخرساني لما استولى على دمشق، أخذ الرأس ونقله إلى مرو، ودفن بها
في دار الإمارة، وأن الرأس حشي بالمسك وكفن وصلي عليه مرة بعد أخرى.
وأما من قال : إنه أعيد إلى الجسد ودفن معه، فمنهم من يقول: إن يزيد أعاده بعد أربعين
يوماً، ومنهم من يقول: بل استقر في خزانة السلاح إلى أن ولى سليمان بن عبد الملك
فأحضره وقد قحل، وبقي عظم أبيض فجعل عليه ثوب وجعله في سفط وصلى عليه ودفن
في مقابر المسلمين، فلما ولى عمر بن عبد العزيز بعث إلى خازن السلاح يطلب منه الرأس،
فطالعه بما كان من أمره فأمره بنبشه وأخذه، فالله أعلم بما صنع به، لكنهم استدلوا من
ديانة عمر بن عبد العزيز وصلاحه وخيره أنه نقله إلى الجسد ودفن معه.
وأما من قال: إنه كان بعسقلان ثم نقل إلى مصر فاستنادهم في ذلك إلى رؤيا منام، وذلك
أن رجلاً رأى في منامه، وهو بعسقلان أن رأس الحسين في مكان بها، عين له في منامه
فنبش ذلك الموضع، وذلك أيام المستنصر بالله العبيدي صاحب مصر، ووزارة بدر
الجمالي، فابتنى بدر الجمالي له مشهداً بعسقلان، فلم يزل الأمر على ذلك إلى أن تغلب
الفرنج على عسقلان، في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، فحمل إلى القاهرة في البحر.

وحكى محمد بن القاضي المكين عبد العزيز بن حسين في سيرة الصالح بن رزيك، قال: لما
ولي عباس بن أبي الفتوح الوزارة بمصر في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، في مستهل جمادى
الآخرة وصل الخبر بتملك الفرنج عسقلان، فنقل رأس الحسين فيها من المشهد الذي أنشأه
أمير الجيوش بدر الجمالي، وكمله الأفضل - إلى القاهرة، فكان وصوله إليها في يوم الأحد،
ثامن جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، وكان قد سير أحد الأستاذين الخواص
لتلقيه إلى مدينة تنيس، فوصل في عشارى من عشاريات الخدمة، ودخل فيه إلى خليج
القاهرة، وأدخل من باب البستان المعروف بالكافوري، في ليلة الاثنين التاسع من الشهر،
وسلك به إلى القصر الغربي إلى أن وصل إلى القصر الشرقي، ولم يزل الحال على ذلك إلى أن
حدث من عباس وابنه ما حدث، من قبل الظافر وإخوته وابن أخيه، على ما نذكر إن
شاء الله في كتابنا هذا، فلما نهض الصالح بن زريك في الطلب بثأرهم، وولي الوزارة، لم يقدم
شيئاً على الشروع في بناء المشهد بالقصر، في الموضع المعروف بقبة الخراج من دهاليز باب
الديلم وكمل المشهد، فلما كان في ليلة يسفر صباحها عن تاسع المحرم خمس وخمسين
وخمسمائة، خرج ابن رزيك من داره راجلاً إلى الإيوان، فأخرج الرأس فحمله خاشعاً
مستكيناً إلى أن أحله بالضريح، ومدحه الشعراء، فمن ذلك قول أحدهم:

أدركت من عباس ثأراً دونه ما أدرك السفاح من مروان
وحقرت ما فخر بن ذي يزنٍ به لما أقر الملك في غمدان
وجمعت أشلاء الحسين وقد غدت بدداً فأضحت في أعز مكان
وعرفت للعضو الشريف محله وجليل موضعه من الرحمن
أكرمت مثواه لديك وقبل في آل الطريد غدا بدار هوان
وقضيت حق المصطفى في حمله وحظيت من ذي العرش بالرضوان
ونصبته للمسلمين تزوره مهجٌ إليه شديدة الهيمان
أسكنته في خير مأوىً خطه أبناؤه في سالف الأزمان
ولو استطعت جعلت قلبك لحده في موضع التوحيد والإيمان
حرم تلوذ به الجناة فتنثني محبوةً بالعفو والغفران
قد كان مغترباً زماناً قبل ذا فالآن عدت به إلى الأوطان

وأما من قال: إنه بالمدينة، فيقول: إنه لما نصب بدمشق وطيف به، أمر يزيد بن معاوية
النعمان بن بشير الأنصاري أن يحمله إلى المدينة، ليشاهده الناس، وليرهب به عبد الله بن
الزبير، فلما وصل إلى المدينة ودخل به على عمرو بن سعيد الأشدق، قال: وددت أن أمير
المؤمنين لم يكن بعث به إلي، فقال له مروان بن الحكم: اسكت لا سكت ولكن قل كما قال:

ضربت دوسي فيهم ضربةً أثبتت أوتاد ملك فاستقر

ثم أمر به عمرو بن سعيد فكفن ودفن عند قبر أمه فاطمة رضي الله عنهما.
وقيل : بل أرسل إلى من بالمدينة من بني هاشم، أن دونكم رأس صاحبكم، فأخذوه،
فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه عند قبر أمه رضي الله عنهما، والله تعالى أعلم، وقد
تكلم عمر بن أبي المعالي أسعد بن عمار بن سعد بن عمار بن علي رحمه الله تعالى في
كتابه الذي ترجمه " الفاصل بين الصدق والمين في مقر رأس الحسين " على هذه الأقوال
المتقدمة ووهنها وضعفها " واستدل على ضعفها "، ورجح أنه بالمدينة، حتى كاد يبلغ فيه
مبلغ القطع، فقال ما معناه: أما قولهم إنه كان في خزائن بني أمية إلى أن ظهرت الخلافة
العباسية، وأن أبا مسلم نقله إلى خراسان، فهذا بعيد جداً، وذلك أن أبا مسلم لما فتح
الشام كان بخراسان، والذي فتح دمشق عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس، فكيف
يتصور أن ينقله أو يمكن من نقله إلى مولاه بخراسان؟ ولو ظفر به في خزائن بني أمية لأظهره
للناس ليزدادوا لبني أمية بغضاً، وأيضاً فقد ولى العبد الصالح عمر بن عبد العزيز الخلافة،
وبعيد أن كان يترك رأس ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في خزائن السلاح ولم
يواره.
أما قولهم إنه كان بعسقلان فلم يوجد ذلك في تاريخ من التواريخ أنه نقل إلى عسقلان أو إلى
مصر،ويقوي ذلك أن الشام ومصر لم يكن بهما شيعة علوية فينقل إليهم ليروه وتنقطع آمالهم
من الحسين وتضعف نفوسهم عن الوثوب مع غيره ولانضمام إليه.
وأما قولهم إنه بالمدينة عند قبر أمه فقد قاله محمد بن سعد في طبقاته، وابن أبي الدنيا

وأبو المؤيد الخوارزمي خطيب خوارزم في إحدى روايتهما، وصححه أبو الفرج ابن الجوزي،
والله تعالى أعلم.
وقد أخذ هذا الفصل حقه، فلنذكر خلاف ذلك من الأخبار التي اتفقت في أيام يزيد بن
معاوية على حكم اليقين:
مقتل أبي بلال مرداس
بن حدير الحنظلي الخارجي
قد ذكرنا في أيام معاوية خروجه وأن ابن زياد بعث إليه أسلم بن زرعة الكلابي في ألفين،
فهزمهم بآسك.
فلما كان في هذه السنة أرسل إليه ابن زياد ثلاثة آلاف، عليهم عباد بن الأخضر التميمي"
والأخضر زوج أمه، نسب إليه وإنما هو عباد بن علقمة بن عباد" فسار إليه، واتبعه حتى
لحقه بتوج، فاقتتلوا حتى دخل وقت العصر، فقال أبو بلال: هذا يوم جمعة، وهو يوم عظيم،
دعونا حتى نصلي، فتوادعوا، فعجل عباد الصلاة وقيل: بل قطعها، والخوارج يصلون، فشد
عليهم هو وأصحابه، فقتلوهم وهم ما بين قائم وراكع وساجد، لم يتغير منهم أحد عن
حاله، فقتلوا عن آخرهم.
ورجع عباد إلى البصرة برأس أبي بلال، فرصده عبيدة بن هلال ومعه ثلاثة نفر، فأقبل
عباد يريد قصر الإمارة، فقالوا له: قف حتى نستفتيك، فوقف، فقالوا: نحن أخوة أربعة قتل
أخونا فما ترى؟ قال: استعدوا الأمير، قالوا استعديناه فلم يعدنا، قال: فاقتلوه قتله الله،
فوثبوا عليه وقتلوه، واجتمع الناس على الخوارج فقتلوا.
وفيها استعمل يزيد بن معاوية سلم بن زياد على خراسان وسجستان، وعزل عنهما
أخويه: عبد الرحمن وعبادا بني زياد، فكتب عبيد الله بن زياد إلى أخيه عباد يخبره بولاية
سلم، فقسم عباد ما في بيت المال على عبيدة، وفضل فضلٌ فنادى: من أراد سلفاً
فليأخذ، فأسلف كل من أتاه، وخرج عن سجستان، فلما كان بجيرفت بلغه مكان أخوه
سلم، وكان بينهما جبل، فعدل عنه، فذهب لعباد تلك الليلة ألف مملوك، أقل ما مع
أحدهم عشرة آلاف، وسار عباد حتى قدم على يزيد، فسأله عن المال، فقال: كنت
صاحب ثغر فقسمت ما أصبت بين الناس.

قال: ولما سار سلم إلى خراسان كتب يزيد إلى عبيد الله بن زياد معه بنخبة ستة آلاف
فارس، وقيل ألفين، فكان سلم ينتخب الوجوه والفرسان، فخرج معه عمران بن الفضيل
البرجمي والمهلب بن أبي صفرة وطلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي وغيرهم، وسار
حتى قدم خراسان، وعبر النهر غازياً، وكان عمال خراسان قبله يغزون، فإذا دخل الشتاء
رجعوا إلى مرو الشاهجان، فإذا انصرف المسلمون اجتمع ملوك خراسان بمدينة مما يلي
خوارزم، فيتعاقدون ألا يغزو بعضهم بعضاً ويتشاورون في أمورهم، وكان المسلمون يطلبون
إلى أمرائهم غزو تلك المدينة، فيأبون عليهم، فلما قدم سلم غزا فشتى في بعض مغازيه،
فسأله المهلب أن يوجهه إلى تلك المدينة، فوجهه في ستة آلاف، وقيل: في أربعة آلاف
فحاصرهم، فطلبوا الصلح على نيفٍ وعشرين ألف ألف، فصالحهم، وكان من صلحهم أن
يأخذ منهم عروضاً، فكان يأخذ العروض من الرقيق والدواب والمتاع بنصف قيمتها، فبلغ
ما أخذ منهم خمسين ألف ألف، فحظي بها المهلب عند سلم، وأخذ سلم من ذلك ما
أعجبه وبعث به إلى يزيد.
وغزا سلم سمرقند، وعبر معه النهر امرأته أم محمد بنت عبد الله ابن عثمان بن أبي
العاص الثقفي، وهي أول امرأة من العرب قطع بها النهر، فولدت له ابناً سماه " صغدي "
واستعارت امرأته من امرأة صاحب الصغد حليها فلم تعده إليها وذهبت به.
ووجه جيش إلى خجندة فيهم أعشى همدان، فهزموا، فقال الأعشى في ذلك:

ليت خيلي يوم الخجندة لم ته زم وغودرت في المكر سليبا
تحضر الطير مصرعي وتروح ت إلى الله في الدماء خضيبا

وفيها عزل يزيد عمرو بن سعيد، واستعمل الوليد بن عتبة ابن أبي سفيان، وسبب ذلك
أن الوليد وناساً من بني أمية قالوا ليزيد: لو شاء عمرو لأخذ ابن الزبير وسرح به إليك،
فعزله، ولم يكن كذلك، بل كان ابن الزبير كاده. وحج الوليد في هذه السنة بالناس.

سنة اثنين وستين

ذكر وفد أهل المدينة إلى يزيد بن معاوية وخلعهم له عند عودهم

وفي هذه السنة وفد جماعة من أهل المدينة إلى يزيد بن معاوية بالشام، فيهم عبد الله بن
حنظلة غسيل الملائكة وعبد الله بن أبي عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي، والمنذر بن
الزبير، ورجال كثير من أشراف أهل المدينة.
وكان ابن الزبير قد كتب إلى يزيد لما استعمل الوليد ابن عتبة على الحجاز يقول: " إنك
بعثت إلينا رجلاً أخرق، لا بتجه لرشد، ولايرعوى لعظة الحكيم، فلو بعثت رجلاً سهل
الخلق رجوت أن يسهل الأمور ما استوعر منها، وأن يجتمع ما تفرق ".
فعزل يزيد الوليد، واستعمل عثمان ابن محمد بن أبي سفيان، وهو فتىً غر حدث لم تحنكه
التجارب، ولا يكاد ينظر في شيء من سلطانه ولا عمله.
فوفد هذا الوفد إلى يزيد، فقدموا عليه، فأكرمهم وأحسن إليهم وأعظم جوائزهم، فأعطى
عبد الله بن حنظلة مائة ألف درهم، وكان معه ثمانية بنين فأعطى كل واحد منهم عشرة
آلاف، وأجاز المنذر ابن الزبير بمائة ألف كتب له بها على عبيد الله بن زياد فتوجه إلى
العراق فقبضها.
ورجع الوفد إلى المدينة إلا المنذر، فلما قدموا المدينة قاموا في الناس فأظهروا شتم يزيد
وعيبه، وقالوا: "قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، ويعزف بالطنابير، وتعزف
عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويسمر عنده الحزاب "وهم اللصوص" وإنا نشهدكم أنا قد
خلعناه".
وقام عبد الله بن حنظلة فقال: " جئتكم من عند رجل لو لم أجد إلا بني هؤلاء لجاهدته،
وقد أعطاني وأكرمني، وما قبلت منه عطاءه إلا لأتقوى به".
فخلعه الناس، وبايعوا عبد الله بن حنظلة على خلعه، وولوه عليهم.
ثم قدم المنذر من العراق إلى المدينة، فحرض الناس على يزيد، وقال:" إنه أجازني بمائة
ألف، ولا يمنعني ما صنع بي أن أخبركم خبره، والله إنه ليشرب الخمر، وإنه ليسكر حتى
يدع الصلاة!" وعابه بمثل ما عابه به أصحابه وأشد.
فبعث يزيد النعمان بن بشير الأنصاري وقال له:" إن عدد الناس بالمدينة قومك، فأتهم
فالفتهم عما يريدون، فإنهم إن لم ينهضوا في هذا الأمر لم يجترئ الناس على خلافي". فأتى

النعمان قومه، وأمرهم بلزوم الطاعة، وخوفهم الفتنة، فعصوه ولم يرجعوا إلى قوله، فرجع.
وبسبب هذه الواقعة كانت وقعة الحرة.
وفي هذه السنة كان من الحوادث في بلاد المغرب ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار
أفريقية. وحج بالناس في هذه السنة الوليد بن عتبة. وفيها ولد محمد بن عبد الله بن
عباس والد السفاح والمنصور.
سنة ثلاث وستين
وقعة الحرة
كان سبب هذه الوقعة ما قدمناه من خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية، فلما كان في هذه
السنة أخرج أهل المدينة عثمان بن محمد ابن أبي سفيان عامل يزيد، وحصروا بني أمية،
فاجتمع بني أمية ومواليهم ومن يرى رأيهم في ألف رجل، ونزلوا دار مروان بن الحكم، وكتبوا
إلى يزيد يستغيثون به، فلما قرأ الكتاب بعث إلى عمرو بن الأشدق، فأقرأه الكتاب وأمره
بالمسير في الناس، فقال قد كنت ضبطت لك الأمور والبلاد، فأما الآن إذ صارت دماء
قريش تهراق بالصعيد فلا أحب أن أتولى ذلك.
فبعث إلى عبيد الله بن زياد، فأمره بالمسير إلى المدينة ومحاصرة عبد الله بن الزبير بمكة،
فقال:" والله لا أجمعهما للفاسق، قتل ابن بنت رسول الله وغزو الكعبة !" ثم أرسل إليه
يعتذر.
فبعث إلى مسلم بن عقبة المري وهو شيخ كبير مريض فأخبره الخبر، فقال: أما يكون بني
أمية "ومواليهم وأنصارهم بالمدينة" ألف رجل؟ قال بلى، قال: أما استطاعوا أن يقاتلوا
ساعة من نهار؟ ليس هؤلاء بأهل أن ينصروا فإنهم أذلاء! دعهم يا أمير المؤمنين حتى
يجهدوا أنفسهم في جهاد عدوهم، ويتبين لك من يقاتل على طاعتك ومن يستسلم، قال:
ويحك ! إنه لا خير بعدهم فاخرج بالناس.
وقيل: إن معاوية قال ليزيد: إن لك من أهل المدينة يوما، فإن فعلوا فارمهم بمسلم بن عقبة،
فإنه رجل قد عرفت نصيحته، فأمره بالمسير إليهم.
منادى في الناس بالتجهيز إلى الحجاز وأن يأخذوا عطاءهم ومعونة مائة دينار لكل رجل،
فانتدب لذلك اثنا عشر ألفاً، وساروا مع مسلم، فقال له يزيد: إن حدث بك حدثٌ

فاستخلف الحصين بن نمير السكوني، وقال له: " ادع القوم ثلاثا فإن أجابوا وإلا فقاتلهم،
فإذا ظهرت عليهم فأبحها ثلاثا بما فيها من مال أو رقة أو سلاح أو طعام، فهو للجند، فإن
انقضت الثلاث فاكفف عن الناس، واكفف عن علي بن حسين، واستوصي به خيراً فإنه لم
يدخل مع الناس، وقد أتاني كتابه " .
قال: ولمل بلغ أهل المدينة خبر الجيش اشتد حصارهم لبني أمية بدار مروان، وقالوا:"
والله لانكف عنكم حتى نضرب أعناقكم أو تعطونا عهد الله وميثاقه أنكم لاتبغونا غائلة،
ولا تدلوا لنا على عورة، ولا تظاهروا علينا عدونا، فنكف عنكم ونخرجكم"، فعاهدوهم
على ذلك، وأخرجوهم من المدينة، فساروا بأثقالهم حتى لقوا مسلم بن عقبة بوادي
القرى، فدعا عمرو بن عثمان بن عفان أول الناس، فقال: أخبرني ما وراءك وأشر علي،
قال: لا أستطيع، قد أخذ علينا العهود والمواثيق ألا ندل على عورة ولا نظاهر عدوا،
فانتهره وقال: " والله لولا أنك ابن عثمان لضربت عنقك، وايم الله لا أقيلها قرشياً
بعدك!".
فخرج إلى أصحابه، فأخبرهم خبره، فقال مروان بن الحكم لابنه عبد الملك: ادخل عليه
قبلي لعله يجتزئ بك عني، فدخل عبد الملك على مسلم، فقال"نعم: " هات ما عندك،
فقال" نعم، أرى أن تسير بمن معك، فإذا انتهيت إلى أدنى نخلها نزلت، فاستظل الناس في
ظله وأكلوا من صقره، فإذا أصبحت من الغد مضيت، وتركت المدينة ذات اليسار، ثم
دري بها حتى تأتيهم من قبل الحرة مشرقا ثم تستقبل القوم، فإذا استقبلتهم وقد أشرقت
عليهم الشمس طلعت من أكناف أصحابك فلا تؤذيهم، ويصيبهم أذاها ويرون من ائتلاق
بيضكم وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم مالا ترونه أنتم منهم، ثم قاتلهم، واستعن
عليهم بالله تعالى". فقال له مسلم: " لله أبوك.! أي أموي!" ثم دخل عليه مروان فقال له
إيه. قال أليس قد دخل عليك عبد الملك؟ قال: " بلى، وأي رجل عبد الملك! قلما
كلمت من رجال قريش رجلاً به شبيه!" فقال له مروان: إذا لقيت عبد الملك فقد لقيتني.

ثم ارتحل مسلم عن مكانه، وفعل ما أمره به عبد الملك، ثم دعاهم فقال:" إن أمير المؤمنين
يزعم أنكم الأصل، وإني أكره إراقة دمائكم، وإني أؤجلكم ثلاثا، فمن ارعوى وراجع الحق
قبلنا به وانصرفت عنكم إلى هذا الملحد الذي بمكة، وإن أبيتم كنا قد أعذرنا إليكم" .
فلما مضت الثلاث قال مسلم: يا أهل المدينة ما تصنعون؟ أتسالمون أم تحاربون؟ فقالوا:
بل نحارب، فقال لهم:" لا تفعلوا، بل ادخلوا في الطاعة، ونجعل حدنا وشوكتنا على هذا
الملحد الذي قد جمع إليه المراق والفساق من كل أواب" يعني عبد الله بن الزبير، فقالوا له:
يا عدو الله، لو أردتم أن تجوزوا إليه ما تركناكم: أنحن ندعكم أن تأتوا بيت الله الحرام
فتخيفوا أهل مكة وتلحدوا فيه وتستحلوا حرمته؟ لا والله لا نفعل!".
قال: وكان أهل المدينة قد اتخذوا خندقا، وعليه جمع منهم، عليهم عبد الرحمن بن أزهر
بن عوف وهو ابن عم عبد الرحمن بن عوف وكان عبد الله بن مطيع مع ربع قريش في
جانب المدينة، وكان معقل سنان الأشجعي، أحد الصحابة على ربع المهاجرين، وكان أمير
جماعتهم عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري في أعظم تلك الأرباع، وهم الأنصار.
وصمد مسلم بن عقبة فيمن معه، فأقبل من ناحية الحرة، حتى ضرب فسطاطه على
طريق الكوفة، وكان مريضاً، فأمر فوضع له كرسي بين الصفين، فجلس، ثم حرض أهل
الشام على القتال، فجعلوا لا يقصدون ربعا من تلك الأرباع إلا هزموه، ثم وجه الخيل نحو
ابن الغسيل، فكشفهم، حتى انتهوا إلى مسلم، فنهض في وجوههم بالرجال، وصاح بهم،
فقاتلوا قتالاً شديداً.
ثم إن الفضل بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب جاء إلى ابن الغسيل، فقاتل
معه في نحو عشرين فارساً قتالاً حسناً، ثم قال ابن بن الغسيل :" مر من معك فارساً
فليأتني، فليقف معي، فإذا حملت فليحملوا، فوالله لا أنتهي حتى أبلغ مسلما فأقتله أو أقتل
دونه!" ففعل، وجمع الجند، فحمل بهم الفضل على أهل الشام، فانكشفوا، ثم حمل وحمل

أصحابه حملةً أخرى، فانفرجت خيل الشام عن مسلم ومعه خمسمائة راجل جثاة على
الركب مشرعي الأسنة نحو القوم، ومضى الفضل نحو راية مسلم فضرب رأس صاحبها
فقط المغفر وفلق هامته، فخر ميتا، وقال: خذها وأنا ابن عبد المطلب وظن أنه قتل
مسلما، فقال: قتلت طاغية القوم ورب الكعبة فأخذ مسلم رايته، وكان المقتول غلاما روميا
شجاعا، وحرض مسلم أهل الشام، وقال: شدوا مع هذه الراية، فمشى برايته، وشدت
الرجال أمام الراية، فصرع الفضل وما بينه وبين "أطناب" فسطاط مسلم إلا نحو عشرة
أذرع، وقتل معه زيد بن عبد الرحمن بن عوف، وأقبلت خيل مسلم ورجالته نحو ابن
الغسيل، فحرض ابن الغسيل أصحابه، فنهضوا واقتتلوا أشد قتال، وأخذ ابن الغسيل يقدم
بنيه واحداً واحداً، حتى قتلوا بين يديه، ثم قتل وقتل معه أخوه لأمه محمد ابن ثابت بن
قيس بن شماس، وعبد الله بن زيد بن عاصم، ومحمد بن عمرو بن حزم الأنصاري، وانهزم
الناس.
وأباح مسلم بن عقبة المدينة ثلاثا، يقتلون الناس، ويأخذون المتاع والأموال، فسمي مسلم
بعد وقعة الحرة مسرفاً".
وقيل إن مسلماً لما نزل بأهل المدينة خرج إليه أهلها بجموع كثيرة وهيئة حسنة، فهابهم
أهل الشام، وكرهوا قتالهم، فلما رآهم مسلم سبهم وذمهم وحرضهم، وكان شديد الوجع،
فقاتلوا، فبينما أهل المدينة في قتالهم إذ سمعوا التكبير من خلفهم من جوف المدينة، وكان
سببه أن بني حارثة أدخلوا أهل الشام المدينة، فانهزم الناس، فكان من أصيب في الخندق
أكثر ممن قتل.
ودعا مسلم الناس إلى البيعة ليزيد على أنهم خول له يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم ما
شاء، فمن امتنع من ذلك قتله.
وأتى يومئذ بعمرو بن عثمان بن عفان، وكان ممن لم يخرج مع بني أمية، فقال مسلم: يا أهل
الشام تعرفون هذا؟ قالوا : لا، قال: هذا الخبيث بن الطيب، هذا عمرو بن عثمان، هي يا
عمرو إذا ظهر أهل الشام قلت ابن أمير المؤمنين عثمان"، وأمر به فنتف لحيته، ثم خلى

سبيله.
وكانت وقعة الحرة لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ثلاث وستين، وقتل مسلم جماعة من
أهل المدينة صبراً، فكان منهم على ما ذكر ابن إسحاق والواقدي وويثمة وغيرهم: الفضل
بن العباس بن ربيعة بن الحارث بت عبد المطلب، وأبو بكر بن عبيد الله بن عمر بن
الخطاب، ويعقوب ابن طلحة بن عبيد الله، وعبد الله بن زيد بن عاصم، ومعقل ابن سنان
الأشجعي، ومحمد بن أبي الجهم بن حذيفة العدوي، وقتل أيضاً صبرا ابنا زينب بنت أم
سلمة ربيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهما ابنا عبد الله بن زمعة بن الأسود بن
المطلب بن أسد ابن عبد العزي بن قصي، ولما قتلا حملا إلى أمهما فوضعا بين يديها،
فاسترجعت وقالت: والله إن المصيبة علي فيهما لكبيرة، وهي علي في هذا أكبر علي في
هذا، أما هذا فجلس في بيته وكف يده فدخل عليه فقتل مظلوماً، فأنا أرجو له الجنة، وأما
هذا فبسط يده فقاتل حتى قتل، فلا أدري علام هو في ذلك؟ فالمصيبة به أعظم منها علي
في هذا! وقتل أيضاً يزيد بن عبد الله بن زمعة.
وانتهى القتل يومئذ فيما ذكروا إلى ثلاثمائة، كلهم من أبناء المهاجرين والأنصار، ومنهم
جماعة ممن صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبلغت قتلى قريش يومئذ نحو مائة،
وقتلى الأنصار والحلفاء والموالي نحو مائتين.
وقيل إن يزيد بن معاوية لما بلغه ما كان من خبر هذه الوقعة قال:

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلوا واستهلوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تشل
لست من عتبة إن لم أثئر من بني أحمد ما كان فعل

هكذا حكي عن بعض المؤرخين، والذي أعتقده أن هذه الأبيات مفتعلة عنه ومنسوبة
إليه، فإنها لا تصدر إلا ممن نزع ربقة الإسلام من عنقة، والله أعلم.
وحج بالناس في هذه السنة عبد الله بن الزبير، وكان يسمى يومئذ " العائد بالبيت ".

سنة أربع وستين

ذكر مسير مسلم بن عقبة إلى مكة
لحصار عبد الله بن الزبير، ووفاة مسلم
إحراق الكعبة

قال ولما فرغ مسلم من قتال أهل المدينة ونهبها شخص نحو مكة بمن معه لقتال ابن الزبير،
واستخلف على المدينة روح ابن زنباع الجذامي. وقيل: عمرو بن محرز الأشجعي. وكان
خبر وقعة الحرة قد أتى عبد الله بن الزبير مع المسور بن مخزمة هلال المحرم، فاستعد هو
وأصحابه للحرب.
وسار مسلم حتى انتهى إلى المشلل فمات هناك، ولما حضرته الوفاة أحضر الحصين بن
نمير السكوني وقال له يا برذعة الحمار، لو كان الأمر لي ما وليتك هذا الجند، ولكن أمير
المؤمنين ولاك، ثم مات.
وسار الحصين فقدم مكة لأربع بقين من المحرم، وقد بايع أهلها وأهل الحجاز عبد الله بن
الزبير ولحق به من انهزم من أهل المدينة وقدم عليه نجدة بن عامر الحنفي من اليمامة في
أناس من الخوارج يمنعون البيت.
فخرج ابن الزبير للقاء أهل الشام ومعه أخوه المنذر، فبارز المنذر رجل من أهل الشام،
فضرب كل واحد منهما صاحبه ضربة فماتا جميعا. وقاتل المسور بن مخزمة، ومصعب بن
عبد الرحمن بن عوف قتالا شديدا حتى قتلا، وصابرهم ابن الزبير إلى الليل، ثم انصرفوا
عنه، ثم أقاموا عليه فقاتلوه بقية محرم وصفر كله، حتى إذا مضت ثلاثة أسابيع من ربيع
الأول سنة أربع وستين قذفوا البيت بالمجانيق، وحرقوه بالنار، وهم يرتجزون:

خطارة مثل الفنيق المزبد نرمي بها أعواد هذا المسجد

واستمروا على القتال والحصار إلى آخر الشهر، فأتاهم نعي يزيد بن معاوية لهلال شهر ربيع
الآخر.

وفاة يزيد بن معاوية
وشيء من أخباره

كانت وفاته بحوارين من قرى حمص لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من سنة
أربع وستين، وقيل: في هذا الشهر من سنة ثلاث وستين، وهو ابن ثمان وثلاثين سنة، وقيل:
في هذا الشهر من سنة ثلاث وستين، وهو ابن ثمانٍ وثلاثين سنة، وقيل: تسع وثلاثين؛
وقيل: أقل من ذلك إلى خمس وثلاثين.
وكانت ولايته ثلاث سنين وتسعة أشهر وأياما، على القول الأول في وفاته.

وحمل إلى دمشق ودفن بها في مقبرة باب الصغير، وصلى عليه ابنه معاوية.
وكان له من الأولاد معاوية وخالد وأبو سفيان عبد الله الأكبر أمهم أم هاشم بنت أبي
هاشم بن عتبة بن ربيعة، وله أيضاً عبد الله الأصغر، وأمه أم كلثوم بنت عبد الله بن
عامر، وهو الإسوار وله أيضاً عبد الله أصغر الأصاغر، وعمير وأبو بكر وعتبة وحرب
ومحمد لأمهات شتى؛ قيل: وله يزيد والربيع.
وكاتبه عتبة بن أوس ثم زمل بن عمرو العذري.
وكان نقش خاتمه: "ربنا الله".
حاجبه خالد مولاه، وقيل: صفوان.
قاضيه أبو إدريس الخولاني.
عماله على الأمصار من تقدم ذكرهم، الأمير بمصر مسلمة بن مخلد، ثم توفي، فولاها يزيد
سعيد بن يزيد الأزدي من أهل فلسطين.. القاضي بها من قبل مسلمة ويزيد عابس بن
سعيد، وجمع له بين القضاء والشرطة، وكان أمياً لا يكتب ولا يقرأ.

بيعة معاوية بن يزيد بن معاوية

وكنيته "أبو عبد الرحمن" و"أبو ليلى"، وأمه أم هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة،
وهو الثالث من ملوك بني أمية، بويع له بالشام في النصف من ربيع الأول سنة أربع وستين.
قال: ولما كان في آخر إمارته أمر فنودي: "الصلاة جامعة" فاجتمع الناس، فحمد الله وأثنى
عليه، ثم قال: "أما بعد، فإني ضعفت عن أمركم، فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين
استخلفه أبو بكر رضي الله عنهما فلم أجده، فابتغيت ستة من أهل الشورى فلم أجد،
فأنتم أولى بأمركم، فاختاروا له من أحببتم" .
ثم دخل منزله وتغيب حتى مات، فقيل: مات مسموماً، وصلى عليه الوليد بن عتبة بن
أبي سفيان، ثم طعن الوليد فمات من يومه.
وقيل إنه لما كبر تكبيرتين مات قبل انقضاء الصلاة، فتقدم مروان بن الحكم فصلى عليه.
وقيل إنه أوصى أن يصلي بالناس الضحاك بن قيس حتى يقوم لهم خليفة.
وقيل له عند الموت: ! اعهد إلى خالد بن يزيد، فقال: والله ما ذقت حلاوة خلافتكم،
فكيف أتقلد وزرها من بعدي! ولم يكن لمعاوية هذا ولد.

وكان نقش خاتمه: "الدنيا غرور".
وكانت وفاته لخمسٍ بقين من شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين.
وكانت مدة ولايته إلى حين وفاته أربعين يوماً، وقال المدائني: ثلاثة أشهر، وقال ابن اسحاق:
عشرين يوماً.
ومات وله ثلاث وعشرون سنة، وقال العتبي: سبع عشرة سنة.
والله تعالى أعلم.
فلنذكر أخبار من بويع بالعراق وخراسان في زمن هذه الفتن، بعد وفاة يزيد ابن معاوية
وابنه معاوية بن يزيد إلى أن خلص الأمر بالحجاز والعراق وخراسان لعبد الله بن الزبير.
أخبار من بويع بالعراق
أو لم يتم أمره إلى أن بويع
لعبد الله بن الزبير وما كان بالعراق من الوقائع في خلال ذلك
كان أول من بويع بالعراق بعد وفاة يزيد بن معاوية عبيد الله بن زياد بن أبيه، وذلك أنه لما
أتاه الخبر بوفاة يزيد، وبلغه ما الناس فيه بالشام من الاختلاف، أمر فنودي: "الصلاة
جامعة"، فاجتمع الناس، فصعد المنبر، فنعى يزيد وعرض بثلبه، لأن يزيد كان قد كرهه قبل
موته، وصرح بلعنه بسبب قتل الحسين بن علي، حتى خافه عبيد الله على نفسه، ثم قال
عبيد الله: "يا أهل البصرة إن مهاجرنا إليكم، ودارنا فيكم، ومولدي فيكم، ولقد وليتكم
وما أحصي ديوان مقاتلتكم إلا سبعين ألف مقاتل، ولقد أحصى اليوم ثمانين ألف مقاتل، وما
أحصى ديوان عمالكم إلا تسعين ألفاً، ولقد أحصى اليوم مائة ألف وأربعين ألفاً، وما تركت
لكم ذا ظنة أخافه عليكم إلا وهو في سجنكم، وإن يزيد قد توفي، وقد اختلف الناس
بالشام، وأنتم اليوم أكثر الناس عدداً، وأعرضه فناء، وأغناه عن الناس، وأوسعهم بلاداً،
فاختاروا لأنفسكم رجلاً ترضونه لدينكم وجماعتكم، فأنا أول راضٍ بما رضيتموه لدينكم
وجماعتكم، فإن اجتمع أهل الشام على رجل ترضونه دخلتم فيما دخل فيه المسلمون، وإن
كرهتم ذلك كنتم على جديلتكم حتى تعطوا حاجتكم، فما بكم إلى أحد من أهل البلدان
حاجة، وما يستغني الناس عنكم".
فقام خطباؤكم، وقالوا: قد سمعنا مقالتك، وما نعلم أحداً أقوى عليها منك، فهلم نبايعك،

فقال: لا حاجة لي في ذلك. فكرروا عليه وهو يأبى عليهم ثلاثاً، ثم بسط يده فبايعوه ثم
انصرفوا ومسحوا أيديهم بالحيطان، وقالوا: أيظن ابن مرجانه إنا ننقاد له في الجماعة والفرقة.
قال: ولما بايعوه أرسل إلى أهل الكوفة مع عمرو بن مسمع وسعد بن قرحا التيمي يدعوهم
إلى البيعة له، ويعلمهم ما صنع أهل البصرة، فلما وصلا إلى الكوفة وكان خليفة عبيد الله
عليها عمرو بن حريث، فجمع الناس، وقام الرسولان فخطبا وذكرا ذلك للناس، فقام يزيد بن
الحارث بن يزيد الشيباني وهو ابن رويم، فقال الحمد لله الذي أراحنا من ابن سمية، أنحن
نبايعه؟ لا ولا كرامة.
وحصبهما الناس بعده، فشرفت هذه المقالة يزيد بن رويم بالكوفة ورفعته، ورجع الرسولان
إلى عبيد الله، فقال أهل البصرة: أيخلعه أهل الكوفة ونوليه نحن؟! فضعف سلطانه
عندهم، فكان يأمر بالأمر فلا يقضى ويرى الرأي فيرد عليه، ويأمر بحبس المخطئ فيحال
بين أعوانه وبينه.
ثم جاء البصرة سلمة بن ذؤيب الحنظلي التميمي، فوقف في السوق وبيده لواء، وقال: أيها
الناس، هلموا إلي، إني أدعوكم إلى ما لم يدعكم إليه أحد، أدعوكم إلى العائذ بالحرم، يعني
عبد الله بن الزبير.
فاجتمع إليه ناس، وجعلوا يبايعونه، فبلغ الخبر ابن زياد، فجمع الناس فخطبهم وذكرهم بما
كان من بيعته وقال: إني بلغني أنكم مسحتم أكفكم بالحيطان وباب المسجد، وقلتم ما
قلتم، وإني آمر بالأمر فلا ينفذ، ويرد على رأيي، ويحال بين أعواني وبين طلبتي، ثم هذا
سلمة بن ذؤيب يدعوكم إلى الخلاف عليكم، ليفرق جماعتكم، ويضرب بعضكم رقاب
بعض! ".
فقال الأحنف والناس: نحن نأتيك بسلمة، فأتوه، فإذا جمعه قد كثف والفتق قد اتسع،
فقعدوا عن ابن زياد فلم يأتوه، فلما رأى ذلك أرسل إلى الحارث بن قيس بن صهبان
الجهضمي الأزدي، فأحضره وسأله الهرب به، فقال: يا حارث إن أبي أوصاني إن احتجت
إلى الحرب يوماً ما أن أختاركم، فقال الحارث قد اختبرنا أباك فلم نجد عنده ولا عندك

مكافأة، وما أدري كيف أتأتى لك إن أخرجتك نهاراً أخاف أن تقتل أو أقتل، ولكني أقيم
معك إلى الليل، ثم أردفك خلفي لئلا نعرف، فقال عبيد الله، نعم ما رأيت، فأقام عنده،
فلما كان الليل حمله خلفه، وكان في بيت المال تسعة عشر ألف ففرق ابن زياد بعضها في
مواليه، وادخر الباقي لآل زياد.
قال: وسار الحارث بعبيد الله، فكان يمر به على الناس وهم يتحارسون مخافة الحرورية،
حتى انتهوا إلى بني ناجية، فقال بنو ناجية: من أنت؟ قال: الحارث بن قيس.
وعرف رجل منهم عبيد الله، فقال: ابن مرجانة! وأرسل سهماً فوقع في عمامته ومضى به
الحارث حتى أنزله في داره بالجهاضم، فقال له ابن زياد: "يا حارث، إنك قد أحسنت،
فاصنع ما أشير به عليك، قد علمت منزلة مسعود بن عمرو، وشرفه وسنه، وطاعة قومه
له، فهل لك أن تذهب بي إليه فأكون في داره، فهي وسط الأزد؟ فإنك إن لم تفعل فرق
عليك أمر قومك، فأخذه الحارث فدخلا على مسعود فلم يشعر حتى رآهما، فقال
للحارث: أعوذ بالله من شر ما طرقتني به، قال: ما طرقتك إلا بخير، ولم يزل الحارث يلطف
بمسعود في أمره حتى قال له: أتخرجه من بيتك بعد ما دخله عليك؟ فأمره مسعود فدخل
بيت أخيه عبد الغافر بن عمرو، ثم ركب مسعود من ليلته ومعه الحارث وجماعة من
قومه، فطافوا بالأزد فقالوا: إن ابن زياد قد فقد، وإنا لا نأمن أن تلطخوا به، فأصبحوا في
السلاح، وفقد الناس ابن زياد فقالوا: ما هو إلا في الأزد.
وقيل: إن الحارث لم يكلم مسعودا، بل أمر عبيد الله فحمل معه مائة ألف درهم وأتى بها
أم بسطام امرأة مسعود وهي بنت عم الحارث ومعه عبيد الله، فاستأذن عليها، فأذنت له.
فقال: قد اتيتك بأمر تسودين به نساء العرب، وتتعجلين به الغنى، فأخبرها الخبر وأمرها
أن تدخل ابن زياد البيت، وتلبسه ثوباً من ثياب مسعود، ففعلت، فلما جاء مسعود أخذ
برأسها يضربها، فخرج عبيد الله والحارث عليه، وقال، لقد أجارتني وهذا ثوبك علي،
وطعامك في بطني، وشهد الحارث، وتلطفوا به حتى رضي.

فلم يزل ابن زياد في بيته حتى قتل مسعود، فسار إلى الشام على ما نذكره إن شاء الله.
قال: ولما فقد ابن زياد بقي أهل البصرة بغير أمير، فاختلفوا فيمن يؤمرونه عليهم، ثم
تراضوا بقيس بن الهيثم السلمي، وبنعمان بن سفيان ليختارا من يرتضيان لهم، وكان رأي
قيس في بني أمية، ورأي النعمان في بني هاشم، فقال النعمان: ما أرى أحداً أحق بهذا
الأمر من فلان، لرجل من بني أمية.
وقيل بل ذكر عبد الله بن الأسود الزهري، وكان هوى قيس فيه، وإنما قال النعمان ذلك
خديعة ومكراً بقيس، فقال قيس: قد قلدتك أمري ورضيت من رضيت، ثم جاء إلى
الناس فقال قيس بن الهيثم: قد رضيت من رضى النعمان.
ولاية عبد الله بن الحارث البصرة
قال: ولما اتفق قيس والنعمان، ورضي قيس بمن يؤمره النعمان، أشهد عليه النعمان بذلك،
وأخذ على قيس وعلى الناس العهود بالرضا.
ثم أتى عبد الله بن الأسود، وأخذ بيده واشترط عليه، حتى ظن الناس أنه يبايعه، ثم
تركه.
وأخذ بيد عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وهو الملقب " ببه "
واشترط عليه مثل ذلك، ثم حمد الله وذكر النبي صلى الله عليه وسلم وحق أهل بيته
وقرابته، ثم قال: " أيها الناس، ما تنقمون من رجل من بني عم نبيكم وأمه هند بنت أبي
سفيان، فإن كان الأمر فيهم فهو ابن أختهم " ، ثم أخذ بيده وقال، قد رضيت لكم هذا،
فنادوا: قد رضينا، وبايعوه، وأقبلوا به إلى دار الإمارة حتى نزلها، وذلك أول جمادى
الآخرة سنة أربع وستين.
مقتل مسعود الأزدي
وهرب عبيد الله بن زياد إلى الشام
قال: ثم إن الأزد وربيعة جددوا الحلف الذي كان بينهم، وأنفق ابن زياد مالاً كثيراً فيهم
حتى تم الحلف، وكتبوا بينهم بذلك كتابين، فلما تحالفوا اتفقوا على أن يردوا ابن زياد إلى
دار الإمارة، فساروا ورئيسهم مسعود بن عمرو، فقال لابن زياد: سر معنا، فلم يفعل،
وأرسل معه مواليه على الخيل، وقال لهم لا يحدثن خير ولا شر إلا أنبأتموني به.

فجعل مسعود لا يأتي سمة ولا يتجاوز قبيلة إلا أتى بعض أولئك الموالي إلى ابن زياد
بالخبر، وسارت ربيعة وعليهم مالك بن مسمع فأخذوا سكة المربد، وجاء مسعود فدخل
المسجد وصعد المنبر، وعبد الله بن الحارث في دار الإمارة، فقيل له، إن مسعود وأهل
اليمن وربيعة قد ساروا وسيهيج بين الناس شر، فلو أصلحت بينهم وركبت في بني تميم،
فقال: أبعدهم الله، والله لا أفسدت نفسي في صلاحهم، وسار مالك بن مسمع نحو دور بني
تميم حتى دخل سكة بني العدوية، فحرق دورهم لما في نفسه منهم.
وجاء بنو تميم إلى الأحنف بن قيس فقالوا: يا أبا بحر، إن ربيعة والأزد قد تحالفوا وقد
ساروا إلى الرحبة فدخلوها، فقال، لستم بأحق بالمسجد منهم، فقالوا: قد دخلوا الدار،
فقال: لستم بأحق بالدار منهم، فأتته امرأة بمجمر وقالت له: مالك وللرياسة؟! إنما أنت
امرأة تتجمر.
ثم أتوه فقالوا: إن امرأة منا قد نزعت خلاخيلها، وقد قتلوا الصباغ الذي على طريقك،
وقتلوا المقعد الذي كان على باب المسجد، وقد دخل مالك بن مسمع سكة بني العدوية
فحرق،فقال الأحنف: أقيموا البينة على هذا، ففي بعض هذا ما يحل به قتالهم! فشهدوا
عنده على ذلك، فقال الأحنف: أجاء عباد بن حصين؟ قالوا لا، ثم قال: أجاء عباد؟
قالوا لا، قال: أها هنا عبس بن طلق قالوا: نعم؛ فدعاه فانتزع معجزاً من رأسه فعقده في
رمح ثم دفعه إليه، فقال: سر، فسار وصاح الناس: هاجت زبراء وزبراء أمة للأحنف "
كنوا بها عنه " .
فسار عبس إلى المسجد، فقاتل الأزد على أبوابه، ومسعود يخطب على المنبر، ثم أتوه
فاستنزلوه وقتلوه، وذلك أول شوال سنة أربع وستين، وانهزم أصحابه.
وكان ابن زياد قد تهيأ لما صعد مسعود المنبر ليجئ دار الإمارة، فقيل له إن مسعود قد
قتل، فركب ولحق بالشام.
وأما مالك بن مسمع فأتاه ناس من مصر فحصروه في داره وحرقوه، ولما هرب ابن زياد

تبعوه فأعجزهم، فنهبوا ما وجدوا له، ففي ذلك يقول واقد بن خليفة التميمي:

يا رب جبار شديد كلبه قد صار فينا تاجه وسلبه
منهم عبيد الله حين تسلبه جياده وبزه وننهبه
يوم التقى مقنبنا ومقنبه لو لم ينج ابن زياد هربه

وقد قيل في قتل مسعود ومسير ابن زياد غير ما قدمناه، وهو أنه لما استجار ابن زياد
بمسعود بن عمرو وأجاره، ثم سار ابن زياد إلى الشام وأرسل معه مسعود مائة من الأزد
حتى قدموا به إلى الشام، ولما سار من البصرة استخلف مسعوداً عليها، فقال بنو تميم
وقيس: لا نرضى إلا رجلاً ترضاه جماعتنا، فقال مسعود: قد استخلفني ولا أدع ذلك أبداً،
وخرج حتى انتهى إلى القصر فدخله، واجتمعت تميم إلى الأحنف، فاقالوا له: إن الأزد قد
دخلوا المسجد قال: وخرج حتى انتهى إلى القصر فدخله، واجتمعت تميم إلى الأحنف،
فاقالوا له: إن الأزد قد دخلوا المسجد قال: إنما هو لهم ولكم، قالوا: قد دخلوا القصر
وصعد مسعود المنبر.

وكانت خوارج قد خرجوا فنزلوا بنهر الأساورة حين خرج عبيد الله إلى الشام، فزعم
الناس أن الأحنف بعث إليهم: إن هذا الرجل الذي قد دخل القصر هو لنا ولكم عدو،
فما يمنعكم منه! فجاءت عصابة منهم حتى دخلوا المسجد ومسعود على المنبر يبايع من
أتاه، فرماه علج يقال له مسلم من أهل فارس، كان قد دخل البصرة وأسلم ثم صار من
الخوارج، فأصاب قلبه فقتله، فقال الناس: قتله الخوارج، فخرج الأزد إلى تلك الخوارج،
فقتلوا منهم وجرحوا، وطردوهم عن البصرة، ثم قيل للأزد: إن تميماً قتلوا منهم مسعوداً،
فأرسلوا يسألون، فإذا ناس من تميم تقوله، فاجتمعت الأزد عند ذلك، فرأسوا عليهم زياد
بن عمرو أخا مسعود، ومعهم مالك بن مسمع في ربيعة، فأتته امرأة بمجمر فقالت: اجلس
على هذا، " أي إنما أنت امرأة " ، فخرج الأحنف في بني تميم ومعهم من بالبصرة من
قيس، فالتقوا، فقتل منهم قتلى كثيرة، فقال لهم بنو تميم: " يا معشر الأزد، الله الله في دمائنا
ودمائكم، بيننا وبينكم القرآن، ومن شئتم من أهل الإسلام، فإن كانت لكم علينا بينة

فاختاروا أفضل رجل فينا فاقتلوه، وإن لم تكن لكم بينة فإنا نحلف بالله ما قتلنا ولا أمرنا
ولا نعلم له قاتل، وإن لم تريدوا ذلك فنحن ندي صاحبكم بمائة ألف درهم " . وسفر بينهم
عبيد الله بن معمر وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فطلبوا عشر ديات، فطلبوا عشر
ديات، فأجابهم الأحنف إلى ذلك، واصطلحوا عليه.
قال: وأما عبد الله بن الحارث " ببه " فإنه أقام يصلي بالناس حتى قدم عليهم عمر بن
عبيد الله أميراً من قبل ابن الزبير.
وقيل: كتب ابن الزبير إلى عمر بعهده على البصرة، فأتاه الكتاب وهو متوجه إلى العمرة،
فكتب عمر إلى أخيه عبيد الله يأمره أن يصلي بالناس، فصلى بهم حتى قدم عمر، فبقي
عمر أميراً شهراً، ثم قدم الحارث بن عبيد الله بن أبي ربيعة المخزومي فعزله ووليها
الحارث.
وقيل: بل اعتزل عبد الله بن الحارث " ببه " أهل البصرة بعد قتل مسعود، فكتب أهل
البصرة بعد قتل مسعود إلى ابن الزبير، وكتب ابن الزبير إلى أنس بن مالك يأمره أن يصلي
بالناس، فصلى بهم أربعين يوماً.
هذا ما كان من أمر البصرة، فلنذكر خبر أهل الكوفة.
خبر أهل الكوفة
وما كان من أمرهم بعد ابن زياد إلى أن بويع ابن الزبير
كان من خبرهم أنهم لما حصبوا رسل ابن زياد على ما ذكرناه عزلوا خليفته عليهم وهو
عمرو بن حريث، واجتمع الناس وقالوا: نؤمر علينا رجلاً إلى أن يجتمع الناس على خليفة،
فاجتمعوا عمر بن سعد بن أبي وقاص، فجاءت نساء همذان يبكين الحسين بن علي رضي
الله عنهما ورجالهم متقلدو السيوف، فأطافوا بالمنبر، فقال محمد بن الأشعث: جاء أمر
غير ماكنا فيه، وكانت كندة تقوم بأمر عمر بن سعد، لأنهم أخواله، فأجمعوا على عامر بن
مسعود ابن أمية بن خلف بن وهب الجمحي، فخطب أهل الكوفة فقال: إن لكل قوم
أشربة ولذات فاطلبوها في مظانها، وعليكم بما يحل ويحمد، واكسروا شرابكم بالماء،
وتواروا عني بهذه الجدران.
فقال ابن همام:

اشرب شرابك وانعم غير محسود واكسره بالماء لا تعص ابن مسعود
إن الأمير له في الخمر مأربة فاشرب هنيئاً مريئاً غير تصريد
من ذا يحرم ماء المزن خالطه من قعر خابية ماء العناقيد
إني لأكره تشديد الرواة لنا فيها ويعجبني قول ابن مسعود
وكثير من الناس يظن أن ابن مسعود المذكور في هذا الشعر هو عبد الله بن أم عبد،
صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس كذلك.
قال: ولما بايعه أهل الكوفة كتبوا بذلك إلى ابن الزبير فأقره عليها، فمكث ثلاثة أشهر من
مهلك يزيد بن معاوية، ثم استعمل عبد الله بن الزبير عبد الله بن يزيد الخطمي الأنصاري
على الصلاة، وإبراهيم بن محمد بن طلحة على الخراج، واستعمل محمد بن الأشعث بن
قيس على الموصل.
خبر خراسان
وما كان من أمر سلم بن زياد وبيعته وخبر عبد الله بن خازم
كان من خبر خراسان أنه لما بلغ سلم بن زياد وهو العامل عليها موت يزيد بن معاوية كتم
ذلك، فقال له ابن عرادة:
يا أيها الملك المغلق بابه حدثت أمور شأنهن عظيم
قتلى بحرة والذين بكابل وزيد أعلن شأنه المكتوم
أبني أمية إن آخر ملككم جسد بجوازين ثم مقيم
طرقت منيته وعند وساده كوب وزق راعف مرثوم
ومرنة تبكي على نشواته بالصنج تقعد مرة وتقوم
فلما ظهر شعره أظهر سلم موت يزيد بن معاوية ومعاوية بن يزيد، ودعا الناس إلى البيعة
على الرضا حتى تستقيم أمور الناس على خليفة، فبايعوه، ثم نكثوا به بعد شهرين، فلما
خلعوه خرج عنهم واستخلف المهلب بن أبي صفرة، فلما كان بسرخس لقيه سليمان بن
مرثد أحد بني قيس بن ثعلبة بن ربيعة، فقال له: أضاقت عليك نزار حتى خلفت على
خراسان رجلاً من اليمن، يعني المهلب، فولاه مرو الروز، والفارياب والطالقان، والجزجان،
وولى أوس بن ثعلبة ابن زفرر " وهو صاحب قصر أوس بالبصرة " هراة، فلما وصل سلم
إلى نيسابور لقيه عبد الله بن حازم، فقال له: من وليت خراسان؟ فأخبره فقال: أما
وجدت من مضر من تستعمله، حتى فرقت خراسان بين بكر بن وائل واليمن! اكتب لي
عهداً على خراسان؛ فكتب له وأعطاه مائة ألف درهم.

وسار ابن خازم إلى مرو، وبلغ خبره المهلب، فأقبل فاستخلف رجلاً من بني جشم بن
سعد بن زيد مناه بن تميم، فلما وصلها ابن خازم منعه الجشمي، وجرت بينهما مناوشة،
فأصابت الجشمي رمية في جبهته، وتحاجزا، ودخلهما ابن خازم، ومات الجشمي بعد ذلك
بيومين.
ثم سار ابن خازم إلى مرو فقاتله سليمان بن مرثد أياماً، فقتل سليمان، ثم سار بن خازم
إلى عمرو بن مرثد وهو بالطالقان فاقتتلوا فقتل عمرو بن مرثد، وانهزم أصحابه، فلحقوا
بهراة بأوس بن ثعلبة، ورجع ابن خازم إلى مرو.
وهرب من كان بمرو الروذ من بكر بن وائل إلى هراة، وانضم إليها من كان بكور خراسان
من بكر، فكثر جمعهم، وقالوا لأوس ابن ثعلبة: نبايعك على أن تسير إلى ابن خازم وتخرج
مضر من خراسان، فأبى عليهم، فهموا بمبايعة غيره، فأجابهم، فبايعوه، فسار إليهم ابن
خازم فنزل على واد بينه وبين هراة، فأشار البكريون بالخروج من هراة وعمل خندق، فقال
أوس: بل نلزم المدينة فإنها حصينة، وأطاول ابم خازم ليضجر ويعطينا ما نريد، فأبوا عليه،
وخرجوا فخندقوا خندقاً، وقاتلهم ابن خازم نحو سنة.
فنادى هلال الضبي وهو من أصحابه فقال: إنما تقاتل إخوتك وبني أبيك، فإن نلت منهم
الذي تريد فما في العيش خير، فلو أعطيتهم شيئاً يرضون به، وأصلحت هذا الأمر! فقال:
والله لو خرجنا إليهم عن خراسان ما رضوا، فقال هلال: لا والله لا أقاتل معك أنا ولا
رجل يطيعني حتى تعذر إليهم! قال: فأنت رسولي إليهم فأرضهم.
فأتى هلال إلى أوس بن ثعلبة، فناشده الله والقرابة في نزار، وأن يحفظ دماءها، فقال: هل
لقيت بني صهيب، قال: لا، قال: فالقهم، وبنو صهيب هم موالي بني جحدر، وهم الذين
ألزموا أوس بن ثعلبة بالقتال، فخرج هلال من عند أوس فلقي جماعة من رؤساء أصحابه،
فأخبرهم ما أتى له، فقالوا له: هل لقيت بني صهيب؟ فقال: لقد عظم أمر بني صهيب
عندكم! فأتاهم يكلمهم، فقالوا: والله لولا أنك رسول لقتلناك، قال: فما يرضيكم شئ؟

قالوا: واحد من اثنين؛ إما أن تخرجوا من خراسان، وإما أن تقيموا وتخرجوا لنا كل سلاح
وكراع وذهب وفضة، فرجع هلال إلى ابن خازم، فقال: ما عندك؟ فأخبره الخبر فقال: إن
ربيعة لم تزل غضاباً على ربها منذ بعث نبيه في مضر!.
وأقام ابن خازم يقاتلهم، فلما طال مقامه ناداهم يوماً؛ يا معشر ربيعة، أرضيتم بنى من
خراسان بخندقكم؟! فأحفظهم ذلك، فتنادوا للقتال، فنهاهم أوس عن الخروج بجماعتهم،
فعصوه، وخرجوا، فقاتلوا ساعة، ثم انهزموا، حتى انتهوا إلى خندقهم، وتفرقوا يميناً
وشمالاً، وسقطوا في الخندق، وقتلوا قتلاً ذريعاً، وهرب أوس بن ثعلبة وبه جراحات،
وحلف ابن خازم لا يؤتى بأسير يومه ذلك إلا قتله وسار أوس بن ثعلبة إلى سجستان فمات
بها أو قريباً منها، وقتل من بكر يومئذ ثمانية آلاف، وغلب ابن حازم على هراة واستعمل
عليها ابنه محمداً وضم إليه شماس بن دثار العطاردي، وجعل بكير بن وشاح الثقفي على
شرطته، ورجع ابن خازم إلى مرو.
وفي هذه السنة بعد موت يزيد خالف أهل الري، وكان عليهم الفرخان الرازي، فوجه إليهم
عامر بن مسعود وهو أمير الكوفة محمد بن عمير بن عطارد بن حاجب بن زرارة بن
عدس التميمي الدارمي فهزمه أهل الري، فبعث إليهم عامر عتاب بن ورقاء التميمي،
فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً، فقتل الفرخان وانهزم المشركون.
هذا ما كان من أخبار العراق وخراسان بعد وفاة يزيد، فلنذكر أخبار عبد الله بن الزبير،
وما تخلل أيامه من أخبار غيره التي حدثت في أعماله.
بيعة عبد الله بن الزبير
وما حدث في أيامه من الوقائع والحوادث المتعلقة به والكائن في أعمال ولايته
هو أبو خبيب، وقيل: أبو بكر عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد
العزى بن قصي، يجتمع نسبه ونسب رسول الله صلى الله عليه وسلم في قصي، وأمه
أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهي ذات النطاقين، وهو أول مولود ولد
بالمدينة من المسلمين بعد الهجرة.

وكان ابتداء أمره في البيعة له ما قدمناه؛ من خروجه من المدينة لما توفي معاوية بن أبي
سفيان، ووصوله إلى مكة، وأنه أقام بالبيت وقال: أنا العائذ بهذا البيت.
فلما قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما في سنة إحدى وستين كما ذكرنا، قامعبد الله
في الناس فعظم قتله، وعاب أهل العراق عامة، وأهل الكوفة خاصة، فحمد الله تعالى
وأثنى عليه، وصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: إن أهل العراق غدر
فجر إلا قليلا، وإن أهل الكوفة شرار أهل العراق، وإنهم دعوا حسيناً لينصروه ويولوه
عليهم، فلما قدم عليهم ثاروا عليه،فقالوا له: إما أن تضع يدك في أيدينا فنبعث بك إلى ابن
زياد بن سمية فيمضي فيك حكمه، وإما أن تحارب، فرأى والله أنه هو وأصحابه قليل في
كثير، وإن كان الله لم يطلع على الغيب أحداً أنه مقتول، ولكنه اختار الميتة الكريمة على
الحياة الذميمة، فرحم الله حسيناً، وأخزى قاتله. لعمري لقد كان من خلافهم إياه،
وعصيانهم، ما كان في مثله واعظ وناه عنهم، ولكنه قدر نازل، وإذا أراد الله أمراً لم يدفع،
أفبعد الحسين يطمأن إلى هؤلاء القوم، ويصدق قولهم، ويقبل لهم عهد؟ لا والله لا نراهم
لذلك أهلاً، أم والله لقد قتلوه طويلاً بالليل قيامه، كثيراً في النهار صيامه، أحق بما هم فيه
منهم وأولى به في الدين والفضل! أم الله ما كان يبدل بالقرآن الغناء، ولا بالبكاء من خشية
الله الحداء، ولا بالصيام شرب الحرام، ولا بالمجالس في حلق الذكر الركض في تطلاب الصيد
- يعرض بيزيد - " فسوف يلقون غياً " .
فثار إليه أصحابه، وقالوا: أظهر بيعتك، فإنه لم يبق أحد إذ هلك الحسين ينازعك هذا
الأمر، وقد كان عبد الله قبل ذلك يبايع سراً، فقال لهم: لا تعجلوا، هذا وعمرو بن سعيد
عامل مكة، وهو أشد شئ على عبد الله بن الزبير، وهو مع ذلك يداري ويرفق.
فلما استقر عند يزيد ما قد جمع ابن الزبير من الجموع بمكة أعطى الله عهداً ليوثقنه في
سلسلة، فبعث إليه سلسلة من فضة مع ابن عضادة الأشعري ومسعدة وأصحابهما ليأتوه
به فيها، وبعث معهم برنس خز ليلبسه عليها لئلا تظهر للناس.

فاجتاز أبو عضادة بالمدينة وبها مروان بن الحكم، فأخبره بما قدم له، فأرسل مروان معه
ولدين له، أحدهما عبد العزيز، وقال: إذا بلغته رسل يزيد الرسالة فتعرضا له، وليتمثل
أحدكما بهذا الشعر:

فخذها فليست للعزيز بخطة وفيها مقال لامرئ متذلل
أعامر إن القوم ساموك خطة وذلك في الجيران عزلاً بمعزل
أراك إذا ما كنت للقوم ناصحاً يقال له بالدلو أدبر وأقبل

فلما بلغه الرسل الرسالة أنشد عبد العزيز الأبيات، فقال ابن الزبير: يا بني مروان قد سمعت
ما قلتما فأخبرا أباكما:

إني لمن نبعة صم مكاسرها إذا تناوحت القصباء والعشر
فلا ألين لغير الحق أسأله حتى يلين لضرس الماضغ الحجر

وامتنع من رسل يزيد.
فقال الوليد بن عتبة وناس من بني أمية ليزيد: لو شاء عمرو بن سعيد لأخذ ابن الزبير
وبعث إليك به، فعزل يزيد عمراً واستعمل الوليد بن عتبة على الحجاز، فأقام الوليد يريد غرة
عبد الله فلم يجده إلا متحذراً ممتنعاً.
وثار نجدة بن عامر الحنفي باليمامة حين قتل الحسين، وكان الوليد يفيض بالناس من
المعرف، ويقف ابن الزبير وأصحابه ونجدة وأصحابه، ثم يفيض ابن الزبير وأصحابه، ونجدة
بأصحابه، لا يفيض واحد منهم بلإفاضة أحد. وكان نجدة يلقى عبد الله بن الزبير ويكثر
حتى ظن الناس أنه سيبايعه.
ثم كتب عبد الله بن الزبير إلى يزيد في شأن الوليد فعزله يزيد كما تقدم، واستعمل عثمان
بن محمد بن أبي سفيان.
وكان من خبر أهل المدينة في خلافهم يزيد، ووقعة الحرة، والحصار الأول ما قدمناه.
فلما مات يزيد بن معاوية بلغ الخبر عبد الله بن الزبير والحصين بن نمير ومن معه من عسكر
الشام يحاصرونه، وقد اشتد حصارهم، فقال لهم عبد الله وأهل مكة: علام تقاتلون وقد
هلك طاغيتكم؟ فلم يصدقوهم، فلما بلغ الحصين خبر موت يزيد بعث إلى ابن الزبير فقال:
موعد ما بيننا الليلة الأبطح، فالتقيا وتحادثا فراث فرس الحصين، فجاء حمام الحرم يلتقط
روث فرس الحصين، فكف الحصين فرسه عن الحمام، وقال: أخاف أن يقتل فرسي حمام

الحرم، فقال الزبير : تتحرجون من هذا وأنتم تقاتلون
المسلمين في الحرم، فكان فيما قال له
الحصين: أنت أحق بهذا الأمر، هلم فلنبايعك، ثم اخرج معي إلى
الشام، فإن هذا الجند
الذين معي هم وجوه أهل الشام وفرسانهم، فوالله لا يختلف
عليك اثنان، وتؤمن الناس،
وتهدر الدماء التي كانت بيننا وبينك، وبين أهل الحرة، فقال له
أنه لا أهدر الدماء، والله لا
أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة. وأخذ الحصين يكلمه سراً
وهو يجهر ويقول: والله
لا أفعل، فقال الحصين: قبح الله من يعدك بعد هذا داهياً أو
أريباً، قد كنت أظن لك رأياً،
وأنا أكلمك سراً، وتكلمني جهراً، وأدعوك إلى الخلافة، وتعدني
القتل والهلكة، ثم فارقه
ورحل هو وأصحابه نحو المدينة.
وندم ابن الزبير على ما صنع، فأرسل إلى الحصين يقول: أما
المسير إلى الشام فلا أفعله،
ولكن بايعوا لي هناك، فإني مؤمنكم وعادل فيكم، فقال
الحصين: إن لم تقدم بنفسك لا
يمشي الأمر، فإن هنالك ناساً من بني أمية يطلبون هذا الأمر،
وسار الحصين إلى المدينة
فخرج معه بنو أمية إلى الشام.
وبويع عبد الله بن الزبير بمكة لسبع بقين من رجب سنة أربع
وستين، واجتمع لعبد الله بن
الزبير الحجاز والكوفة والبصرة والجزيرة وأهل الشام، إلا أهل
أردن ومصر.
ثم بويع مروان بن الحكم بالشام، فكان من أمره في وقعة مرج
راهط، ومسيره إلى مصر
واستيلائه عليها ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخباره.
فراق الخوارج عبد الله
وما كان من أمرهم
وفي سنة أربع وستين فارق الخوارج الذين كانوا قدموا مكة عبد
الله بن الزبير، وكانوا قد
قاتلوا معه أهل الشام.
وكان سبب قدومهم عليه أنه لما اشتد عليهم عبيد الله بن زياد
بعد قتل أبي بلال،
اجتمعوا وتذاكروا فأشار عليهم نافع بن الأزرق أن يلحقوا بابن
الزبير، وقال: إن كان على
رأينا جاهدنا معه، وإن كان على غير رأينا دافعنا عن البيت، فلما
قدموا عليه سر
بمقدمهم وأخبرهم أنه على مثل رأيهم من غير استفسار،
فقاتلوا معه أهل الشام، ثم

اجتمعوا بعد وفاة يزيد وقالوا: إن الذي صنعتم بالأمس لغير رأي، تقاتلون مع رجل لا
تدرون، لعله ليس على مثل رأيكم، وقد كان أمس يقاتلكم هو وأبوه، وينادي: يا ثارات
عثمان فاجتمعوا إليه فسألوه عن عثمان، فنظر فإذا أصحابه حوله قليل فقال: إنكم
أتيتموني حين أردت القيام، ولكن ائتوني عشية النهار حتى أعلمكم، فانصرفوا.
وبعث ابن الزبير إلى أصحابه، فاجتمعوا عنده بأيديهم العهد.
فقال ابن الأزرق: إن الرجل قد أزمع خلافكم، فتقدم إليه نافع بن الأزرق وعبيدة بن هلال،
فقال عبيدة: بعد أن حمد الله وأثنى عليه، وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه
عمل بكتاب الله حتى قبضه الله، واستخلف الناس أبا بكر، واستخلف أبو بكر عمر،
فكلاهما عمل بكتاب الله وسنة رسوله، ثم إن الناس استخلفوا عثمان، ونقصه، وقبح
أفعاله، وتبرأ منه، ووالى قتله، ثم قال: فما تقول أنت يا ابن الزبير؟! فحمد ابن الزبير الله
وأثنى عليه، ثم قال: قد فهمت الذي ذكرت به النبي صلى الله عليه وسلم فهو فوق ما
ذكرت، وفوق ما وصفت، وفهمت الذي ذكرت به أبا بكر وعمر وقد وفقت وأصبت،
وفهمت الذي ذكرت به عثمان، وإني لا أعلم مكان أحد من خلق الله اليوم أعلم بابن
عفان وأمره مني، كنت معه حيث نقم القوم عليه واستعتبوه فلم يدع شيئاً إلا أعتبهم منه،
ثم رجعوا إليه بكتاب له يزعمون أنه كتبه يأمر فيه بقتلهم، فقال لهم: ما كتبته، فإن شئتم
فهاتوا بينتكم، فإن لم تكن حلفت لكم. فوالله ما جاءوه ببينة، ولا استحلفوه، ووثبوا عليه
فقتلوه، وقد سمعت ما عبته فيه، فليس كذلك، بل هو لكل خير أهل، وأنا أشهدكم ومن
حضرني أني ولي لابن عفان، وعدو أعدائه، قالوا: فبرئ الله منك، قال: بل برئ الله
منكم.
وتفرق القوم، فأقبل نافع بن الأزرق الحنظلي، وعبد الله بن صفار السعدي، وعبد الله بن
إباض، وحنظلة بن بيهس، وبنو الماحوز، عبد الله وعبيد الله والزبير من بني سليط بن
يربوع، وكلهم من تميم، حتى أتوا البصرة، وانطلق أبو طالوت من بني بكر بن وائل، وأبو

فديك عبد الله بن ثور من قيس بن ثعلبة، وعطية بن الأسود اليشكري، إلى يمامة، فوثبوا
بها مع أبي طالوت، ثم اجتمعوا بعد ذلك على نجدة بن عامر الحنفي وتركوا أبا طالوت.
فأما نافع بن الأزرق ومن معه فإنهم قدموا البصرة فتذاكروا الجهاد وفضيلته، وخرج في
ثلثمائة، وذلك عند وثوب الناس بابن زياد، وكسر الخوارج باب السجن وخرجوا، واشتغ
الناس عنهم بحرب الأزد وربيعة وتميم، فلما استقر أمر عبد الله بن الحارث بالبصرة تجرد
الناس للخوارج وأخافوهم، فلحق نافع بالأهواز في شوال سنة أربع وستين واشتدت شوكته،
وكثرت جموعه، وأقام بالأهواز.
وحيث ذكرنا الخوارج، فلنذكر ما كان من أمرهم في أيام عبد الله بن الزبير إلى نهايته، ثم
نذكر ما سوى ذلك.
مقتل نافع بن الأزرق
أمير الخوارج وغيره منهم
وفي سنة خمس وستين اشتدت شوكة نافع بن الأزرق، وهو الذي تنسب إليه الأزارقة من
الخوارج، وكثرت جموعه، وأقبل بهم نحو الجسر، فبعث إليه عبد الله بن الحارث أمير
البصرة مسلم بن عبيس بن كريز بن ربيعة، فخرج إليه فدفعه عن أرض البصرة حتى بلغ
دولاب من أرض الأهواز، فاقتتلوا هناك فقتل مسلم أمير أهل البصرة ونافع بن الأزرق
رئيس الخوارج، وكان مقتلهما في جمادى الآخرة.
فأمر أهل البصرة عليهم الحجاج بن باب الحميري، وأمرت الخوارج عبد الله بن الماحوز
التميمي، فاقتتلوا فقتل الحجاج وعبد الله ، فأمر أهل البصرة ربيعة بن الأجذم التميمي،
وأمرت الخوارج عبيد الله بن الماحوز، واقتتلوا حتى أمسوا وقد ملوا القتال، وكره بعضهم
بعضاً، فبينما هم كذلك إذ جاءت سرية للخوارج لم تشهد القتال فهزمت جيش البصرة،
وقتل أميرهم ربيعة، فأخذ الراية حارث بن بدر فقاتل ساعة بعد أن أذهب الناس عنه، ثم
سار ونزل الأهواز، وبعث ابن الزبير الحارث بن أبي ربيعة على البصرة كما ذكرناه، فأقبلت
الخوارج نحو البصرة حتى قربوا منها، فأتى أهلها الأحنف بن قيس وسألوه أن يتولى
حربهم، فأشار عليهم بالمهلب بن أبي صفرة.

محاربة المهلب الخوارج
وقتل أميرهم عبيد الله بن الماحوز
كان المهلب قد قدم من قبل عبد الله بن الزبير لولاية خراسان فخرج إليه أشراف أهل
البصرة وكلموه في حرب الخوارج، فأبى عليهم، فكلمه الحارث بن ربيعة، فاعتذر بولاية
خراسان، فوضع الحارث وأهل البصرة كتاباً عن ابن الزبير إلى المهلب يأمره بقتال الخوارج،
وأتوه به، فلما قرأه، قال: والله ما أسير إليهم إلا أن يجعلوا إلي ما غلبت عليه، ويعطوني من
بيت المال ما أقوى به من معي، فأجابوه إلى ذلك.
واختار المهلب من أهل البصرة اثني عشر ألفاً، منهم محمد بن واسع، وعبد الله بن رباح
الأنصاري، ومعاوية بن قرة المزني، وأبو عمران الجوني وغيرهم. وخرج إلى الخوارج وهم
عند الجسر الأصغر فحاربهم ودفعهم عنه، وتبعهم حتى بلغوا الأهواز، واقتتلوا هناك.
ودامت الحرب، وقتل المعارك بن أبي صفرة أخو المهلب، ثم هزم جيش المهلب وثبت هو،
فاجتمع عليه جماعة ممن انهزم، ثم عادوا للقتال، وأبلى بلاء حسناً فهزموه، فبلغ بعض من
معه البصرة وجاءت أهلها وأسرع المهلب حتى سبق المنهزمين إلى تل عال، ثم نادى: إلى
عباد الله؛ فاجتمع إليه ثلاثة آلاف أكثرهم من قومه فعاد إلى الخوارج وقد أمنوا، وسار
بعضهم خلف الجيش الذي انهزم، فأوقع بهم المهلب وقتل رئيسهم عبيد الله بن الماحوز،
فاستخلفوا الزبير بن الماحوز، وعاد الذين تبعوا المنهزمين، فوجدوا المهلب قد وضع لهم
خيلاً فرجعوا منهزمين، وأقام المهلب موضعه حتى قدم مصعب بن الزبير أميراً على البصرة
من قبل أخيه عبد الله.
وقيل: كانت هذه الواقعة في سنة ست وستين، وذلك أن المهلب لما دفع الخوارج عن
البصرة إلى ناحية الأهواز أقام بقية سنته يجبي كور دجلة ورزق أصحابه، وأتاه المدد من
البصرة حتى بلغ ثلاثين ألفاً.
قال: ثم استعمل مصعب بن الزبير لما ولى العراق نائبه عمر بن عبيد الله بن معمر على
فارس، وولاه حرب الأزارقة بعد أن توجه المهلب إلى الموصل والجزيرة وأرمينية على ما
تذكره إن شاء الله.

فلما بلغ الخوارج ولايته تقدموا إلى إصطخر، وأميرهم يوم ذاك الزبير بن الماحوز، فندب
إليهم عمر ابنه عبيد الله في خيل، فاقتتلوا فقتل عبيد الله بن عمر، وقاتل عمر بن عبيد
الله الخوارج فقتل من فرسانهم سبعون رجلاً، وانهزم الخوارج وقصدوا نحوأصبهان، فأقاموا
حتى قووا واستعدوا وأقبلوا حتى مروا بفارس وبها عمر، فقطعوها من غير الموضع الذي
هو به حتى أتوا الأهواز.
فكتب إليه مصعب يلومه في تمكينهم من قطع جهته، فسار عمر من فارس في أثرهم،
وخرج مصعب فعسكر عند الجسر الكبير.
وبلغ الخوارج وهم بالأهواز إقبال عمر عليهم، فقطعوا أرض جوخى والنهر وأنات وأتوا
المدائن، وبها كردم بن مرثد الفزاري، فشنوا الغارة على أهل المدائن، يقتلون الرجال والنساء
والولدان، ويشقون أجواف الحوامل، فهرب كردم، وأقبلوا إلى ساباط، ووضعوا السيف،
وأفسدوا إفساداً عظيماً.
وأتوا أرض الكوفة فخرج إليهم الحارث بن أبي ربيعة أميرها، فتوجهوا حتى أتوا المدائن
فأتبعهم الحارث عبد الرحمن بن مخنف في ستة آلاف ليخرجهم من أرض الكوفة، فتبعهم
حتى وقعوا فيأرض أصبهان، فرجع ولم يقاتلهم.
وقصدوا الري وعليها يزيد بن الحارث بن رويم الشيباني فقاتلهم، فأعان أهل الري
الخوارج، فقتل يزيد وهرب ابنه حوشب.
ولما فرغ الخوارج من الري شخصوا إلى أصبهان فحاصروها وبها عتاب بن ورقاء، فصبر
لهم وقاتلهم، فكمن له رجل من الخوارج وضربه بالسيف على حبل عاتقه فصرعه،
فاحتمله أصحابه وداووه حتى برئ، وداوم الخوارج حصارهم حتى نفذت أطعمتهم
وأصابهم الجهد، فقام عتاب في أصحابه، وحرضهم على أن يصدقوهم القتال، فأجابوه إلى
ذلك، وخرج بهم إلى الخوارج وهم آمنون، فقاتلوهم حتى أخرجوهم من معسكرهم،
وقتلوا أميرهم الزبير بن الماحوز.
ففرغت الخوارج إلى أبي نعامة قطري بن الفجاءة المازني فبايعوه، وأصاب عتاب ومن معه
من عسكره ما شاءوا، وسارت الخوارج عن أصبهان إلى كرمان، فأقاموا بها حتى اجتمع

إلى أميرهم قطرى جموع كثيرة، وجبى الأموال وقوي، ثم أقبل إلى أصبهان، ثم أتى أرض
الأهواز فأقام بها، فبعث مصعب إلى المهلب فأمره بقتال الخوارج، وبعث إلى عامله بالموصل
والجزيرة إبراهيم بن الأشتر، فقدم المهلب البصرة، وانتخب الناس وسار نحو الخوارج،
وأقبلوا إليه حتى التقوا بسولاف، فاقتتلوا ثمانية أشهر أشد قتال رآه الناس، وذلك في سنة
ثمان وستين.
هذا ما أمكن إيراده من أخبار الخوارج في أيام ابن الزبير فلنذكر خلاف ذلك.
خبر التوابين
وما كان من أمرهم وأخبارها إلى أن قتلوا
وإنما ذكرنا خبر التوابين في هذا الموضع في أخبار عبد الله بن الزبير، لأن ظهورهم ومقتلهم
كان في أيامه، ومن بلد داخل تحت حكمه، ونحن نذكر مبدأ أمرهم، وقد ذكرهم ابن الأثير
الجزري رحمه الله في تاريخه الكامل في حوادث سنة أربع وستين، وسنة خمس وستين.
قال: ولما قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما كما ذكرنا تلاقت الشيعة بالتلاوم والندم
على ما صدر منهم، من استدعائهم الحسين وخذلانه حتى قتل، ورأوا أنهم لا يغسل عنهم
العار والإثم الذي ارتكبوه إلا قتل من قتله أو القتل فيه.
فاجتمعوا بالكوفة إلى خمس نفر من رءوس الشيعة، وهم: سليمان بن صرد الخزاعي،
وكانت له صحبة، والمسيب بن نجبة الفزاري وكان من أصحاب علي وخيارهم، وعبد
الله بن مسعود بن نفيل الأزدي، وعبد الله بن وال التيمي، تيم بكر بن وائل، ورفاعة بن
شداد البجلي، فاجتمعوا في منزل سليمان بن صرد فبدأهم المسيب بن نجبة فقال بعد
حمد الله : أما بعد، فإنا ابتلينا بطول العمر، والتعرض لأنواع الفتن، فنرغب إلى ربنا أن لا
يجعلنا ممن يقول له غداً: " أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر " وإن أمير المؤمنين قال: العمر
الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة، وليس فينا رجل إلا وقد بلغه، وقد كنا
مغرمين بتزكية أنفسنا، فوجدنا الله كاذبين في كل موطن من مواطن ابن ابنة نبيه محمد صلى
الله عليه وسلم، وقد بلغنا قبل ذلك كتبه ورسله، وأعذر إلينا فسألنا نصره عوداً وبدءاً،

وعلانية وسراً، فبخلنا عنه بأنفسنا حتى قتل إلى جانبنا، لا نحن نصرناه بأيدينا ولا جدلنا
عنه بألستنا، ولا قويناه بأموالنا، ولا طلبنا له النصرة إلى عشائرنا، فما عذرنا عند ربنا
وعند لقاء نبينا، وقد قتل فينا ولده وحبيبه، وذريته ونسله! لا والله لا عذر دون أن تقتلوا
قاتله والموالين عليه أو تقتلوا في طلب ذلك، فعسى ربنا أن يرضى عنا عند ذلك، وما أنا
بعد لقائه لعقوبته بآمن، أيها القوم، ولوا عليكم رجلاً منكم، فإنه لا بد لكم من أمير تفزعون
إليه، وراية تحفون بها.
فقام رفاعة بن شداد فقال: أما بعد فإن الله قد هداك لأصوب القول، وبدأت بأرشد
الأمور بدعائك إلى جهاد الفاسقين وإلى التوبة من الذنب العظيم، فمسموع منك مستجاب
إلى قولك، وقلت: ولوا أمركم رجلاً تفزعون إليه وتحفون برايته، وقد رأينا مثل الذي رأيت،
فإن تكن أنت ذلك الرجل تكن عندنا مرضياً وفينا مستنصحاً وفي جماعتنا محباً، وإن
رأيت ورأى ذلك أصحابنا ولينا هذا الأمر شيخ الشيعة صاحب رسول الله صلى الله
عليه وسلم وذا السابقة والقدم سليمان بن صرد المحمود في بأسه ودينه الموثوق بحزمه.
وتكلم عبد الله بن وأل وعبد الله بن سعد بنحو ذلك، وأثنيا على سليمان والمسيب،
فقال المسيب: قد أصبتم فولوا أمركم سليمان بن صرد.
فتكلم سليمان بن صرد بكلام كثير حضهم فيه على القيام وطلب ثأر الحسين وقتل قتلته
أو القتل دون ذلك.
وكتب إلى سعد بن حذيفة بن اليمان يعلمه بما عزموا عليه ويدعوه إلى مساعدتهم هو
ومن معه من الشيعة بالمدائن، فقرأ سعد الكتاب على من بالمدائن من الشيعة فأجابوا إلى
ذلك.
وكتب سليمان أيضاً إلى المثنى فأجابه: إننا معشر الشيعة حمدنا الله على ما عزمتم
عليه، ونحن موافوك إن شاء الله للأجل الذي ضربت.
قال وكان أول ما ابتدءوا به أمرهم بعد قتل الحسين في سنة إحدى وستين، فما زالوا في
جمع آلة الحرب ودعاء الناس، في السر إلى أن هلك يزيد بن معاوية في سنة أربع وستين،

فجاء إلى سليمان أصحابه فقالوا: قد مات هذا الطاغية، والأمر ضعيف، فإن شئت وثبنا
على عمرو بن حريث - وكان خليفة ابن زياد على الكوفة - ثم أظهرنا الطلب بدم الحسين
وتتبعنا قتلته ثم ندعو الناس إلى أهل هذا البيت. فقال لهم سليمان: لا تعجلوا، إني قد
نظرت فيما ذكرتم، فرأيت قتلة الحسين هم أشراف الكوفة وفرسان العرب، ومتى علموا
ذلك كانوا أشد عليكم، ونظرت فيمن تبعني منكم فعلمت أنهم لو خرجوا لم يدركوا ثأرهم
ولم يشفوا نفوسهم وكانوا جزراً لعدوهم ولكن بثوا دعاتكم وادعوا إلى أمركم. ففعلوا
فاستجاب لهم ناس كثير.
ثم إن أهل الكوفة أخرجوا عمرو بن حريث وبايعوا لابن الزبير، فلما مضت ستة أشهر من
وفاة يزيد قدم المختار بن أبي عبيد إلى الكوفة في النصف من شهر رمضان، وقدم عبد الله
بن زيد الخطمي الأنصاري أميراً على الكوفة من قبل عبد الله بن الزبير لثمان خلون من
شهر رمضان، وقدم إبراهيم بن محمد بن طلحة معه على الخراج.
فأخذ المختار بن أبي عبيد يدعو الناس إلى قتال قتلة حسين ويقول: جئتكم من عند
المهدي محمد بن الحنفية وزيراً أميناً، فرجع إليه طائفة من الشيعة، وكان يقول: إنما يريد
سليمان أن يخرج فيقتل نفسه ومن معه، وليس له خبرة بالحرب.
وبلغ الخبر عبد الله بن يزيد أن سليمان يريد الخروج بالكوفة عليه، وأشير عليه بحبسه،
وخوف عاقبة أمره إن تركه، فقال عبد الله إن هم قاتلونا قاتلناهم، وإن تركونا لا نطلبهم،
إن هؤلاء القوم يطلبون قتلة الحسين، ولست ممن قتله، لعن الله قاتله، ثم صعد إلى المنبر فقال
بلغني أن طائفة منكم أرادوا أن يخرجوا علينا، فسألت عنهم فقيل إنهم يطلبون بدم
الحسين، فرحم الله هؤلاء القوم، فقد والله دللت على مكانهم، وأمرت بأخذهم، فأبيت،
وقلت إن قاتلوني قاتلتهم، وعلام يقاتلوني؟ فوالله ما أنا قتلت حسيناً، ولقد والله أصبت
بمقتله رحمة الله عليه، وإن هؤلاء القوم آمنون، فليخرجوا ظاهرين، وليسيروا إلى من قاتل

الحسين، فقد أقبل إليهم - يعني عبيد الله بن زياد - فأنا لهم ظهير، هذا ابن زياد قاتل
الحسين، وقاتل خياركم وأمثالكم، فقد توجه إليكم وقد فارقوه على ليلة من جسر منبج،
فقتاله والاستعداد له أولى من أن تجعلوا بأسكم بينكم، فيقتل بعضكم بعضاً، فيلقاكم
عدوكم وقد رققتم فنهلك، وتلك أمنيته، وقد قدم عليكم أعدى خلق الله لكم، من ولى
عليكم هم وأبوه سبع سنين لا يقلعان عن قتل أهل العفاف والدين، هو الذي قتلكم ومن
قبله أتيتم، والذي قتل من تنادون بدمه، قد جاءكم فاستقبلوه بحدكم وشوكتكم واجعلوها
به ولا تجعلوها بأنفسكم إني لكم ناصح.
وكان مروان بن الحكم قد بويع بالشام على ما نذكره، وبعث عبيد الله بن زياد إلى الجزيرة،
وأمره إذا فرغ منها أن يسير إلى العراق.
قال: فلما فرغ عبد الله بن يزيد من كلامه قال إبراهيم بن محمد بن طلحة: أيها الناس، لا
يغرنكم من السيف والغشم مقالة هذا المداهن، والله لئن خرج علينا خارج لنقتلنه، ولئن
استقينا أن قوماً يريدون الخروج علينا لنأخذن الوالد بولده والمولود بوالده والحميم بالحميم
والعريف بما في عرافته، حتى يدينوا للحق والطاعة.
فوثب إليه المسيب بن نجبة فقطع عليه منطقه، ثم قال: يا ابن الناكثين، أنت تهددنا
بسيفك وحشمك! أنت والله أذل من ذلك، إنا لا نلومك على بغضنا وقد قتلنا أباك
وجدك، وأما أنت أيها الأمير فقد قلت قولاً سديداً، فقال له إبراهيم والله لتقتلن، وقد داهن
هذا، يعني عبد الله بن يزيد، فقال عبد الله بن وأل: ما اعتراضك فيما بينا وبين أميرنا؟ ما
أنت علينا بأمير إنما أنت أمير هذه الجزية، فأقبل على خراجك، ولئن أفسدت أمر هذه
الأمة فقد أفسده والداك، وكانت عليهما دائرة السوء. فشتمهم جماعة ممن مع إبراهيم،
ونزل الأمير عن المنبر، وتهدده إبراهيم بأنه يكتب إلى ابن الزبير يشكوه، فجاءه عبد الله في
منزله فاعتذر إليه، فقبل عذره.
ثم خرج أصحاب سليمان بن صرد ينشرون السلاح ظاهرين إلى سنة خمس وستين، فعزم
سليمان على الشخوص، وبعث إلى رءوس أصحابه وتواعدوا للخروج في مستهل شهر ربيع

الآخر، وخرجوا في ليلة الوعد إلى النخيلة، فدار سليمان في الناس، فلم يعجبه عددهم،
فأرسل سليمان إلى حكيم بن منقذ الكندي والوليد بن عضين الكناني فناديا في الكوفة
يالثارات الحسين! فكانا أول من دعا يا لثارات الحسين.
فأصبح من الغد وقد أتاه نحو مما في عسكره، ثم نظر في ديوانه فوجدهم ستة عشر ألفاً
بايعه، فقال: سبحان الله! ما وافانا من ستة عشر ألفاً إلا أربعة آلاف! فقيل له إن المختار
يثبط الناس عنك وقد تبعه ألفان، فقال: بقي عشرة آلاف! ما هؤلاء بمؤمنين!.
فأقام بالنخيلة ثلاثاً، يبعث إلى من تخلف عنه، فخرج إليه نحو من ألف رجل، فقام المسيب
بن نجبة، فقال: رحمك الله، إنه لا ينفعك الكلام، ولا يقاتل معك إلا من أخرجته النية، فلا
تنتظرن أحداً، وخذ في أمرك، قال: نعم ما رأيت.
ثم قام سليمان في أصحابه فقال: أيها الناس، من كان إنما خرج إرادة وجه الله وثواب
الآخرة فذلك منا ونحن منه، فرحمة الله عليه حياً وميتاً، ومن كان يريد الدنيا فوالله ما يأتي
فيء نأخذه ولا غنيمة نغنمها، ما خلا رضوان الله، وما معنا من ذهب ولا فضة ولا متاع،
ما هو إلا سيوفنا على عواتقنا، وزاد قدر البلغة، فمن كان ينوي غير هذا فلا يصحبنا.
فتنادى أصحابه من كل جانب: إنا لا نطلب الدنيا، وليس لها خرجنا، إنما خرجنا لنطلب
التوبة والطلب بدم ابن بنت نبينا صلى الله عليه وسلم.
فلما عزم على المسير قال له عبد الله بن سعد بن نفيل: إني قد رأيت رأياً، إن يكن صواباً
فالله الموفق، وإن يكن ليس بصواب فالرأي ما تراه، إنا خرجنا نطلب بدم الحسين، وقتلته
كلهم بالكوفة، منهم عمرو بن سعد ورءوس الأرباع والقبائل، فأين تذهب من ههنا وتدع
الأوتار. فقال أصحابه: هذا هو الرأي.
فقال سليمان: أنا لا أرى ذلك، إن الذي قتله وعبأ الجنود إليه وقال: لا أمان له عندي
دون أن يستسلم فأمضي فيه حكمي، هذا هو الفاسق ابن الفاسق، عبيد الله بن زياد،
فسيروا على بركة الله إليه، فإن يظهركم الله عليه رجونا أن يكون من بعده أهون منه،
ورجونا أن يدين لكم أهل مصركم في عافيته، فينظرون إلى كل من شرك في دم الحسين

فيقتلونه ولا يغشون، وإن تستشهدوا فإنما قاتلتم المحلين، وما عند الله خير للأبرار،
فاستخيروا الله وسيروا.
وبلغ عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة خروج ابن صرد، فأتياه في أشراف
أهل الكوفة، ولم يصحبهم من له شرك في دم الحسين خوفاً منهم، فلما أتياه قال له عبد الله
بن يزيد: إن المسلم أخو المسلم، لا يخونه ولا يغشه، وأنتم إخواننا وأهل بلدنا وأحب أهل
مصر خلقه الله إلينا، فلا تفجعونا في أنفسكم، ولا تنقصوا عددنا بخروجكم من جماعتنا،
أقيموا معنا حتى نتهيأ فإذا سار عدونا إلينا خرجنا إليه بجماعتنا فقاتلناه. وجعل
لسليمان وأصحابه خراج جوخى إن أقاموا، وقال إبراهيم مثل ذلك، فقال سليمان قد
محضتما النصيحة واجتهدتما في المشورة فنحن بالله وله، ونسأله العزيمة على الرشد، ولا
نرانا إلا سائرين، فقال عبد الله: فأقيموا حتى نعبئ معكم جيشاً كثيراً، فتلقوا عدوكم بجمع
كثيف، وكان قد بلغهم إقبال عبيد الله بن زياد من الشام في الجنود.
فلم يقم سليمان، وسار عشية الجمعة لخمس مضين من شهر ربيع الآخر سنة خمس
وستين، فتخلف عنه ناس كثير، فقال ما أحب من تخلف منكم معكم ولو خرجوا فيكم
ما زادوكم إلا خبالاً إن الله كره انبعاثهم فثبطهم وخصكم بفضل ذلك.
ثم ساروا فانتهوا إلى قبر الحسين، فصاحوا صيحة واحدة، وبكوا بكاء شديداً، وترحموا
عليه، وتابوا عنده من خذلانه وترك القتال معه، وأقاموا عنده يوماً وليلة يبكون
ويتضرعون.
ثم ساروا وقد ازدادوا حنقاً، وأخذوا صوب الأنبار، وساروا حتى أتوا قرقسيا على
تعبئة، وبها زفر بن الحارث الكلابي قد تحصن بها عند فراره من وقعة مرج راهط، على
ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار مروان بن الحكم.
فبعث إليه سليمان، وعرفه ما هو وأصحابه عليه من قصد ابن زياد، فبعث إليهم بجزور
ودقيق وعلف، وخرج إليهم وشيعهم وعرض عليهم أن يقيموا عنده بقرقيسيا، وقال: ابن

زياد في عدد كثير، فأبوا المقام، وساروا مجدين، وقال لهم زفران إن ابن زياد قد بعث خمسة
أمراء من الرقة فيهم الحصين بن نمير وشرحبيل بن ذي الكلاع وأدهم بن محرز وجبلة بن
عبيد الله الخثعمي، فأبوا إلا المسير.
فانتهوا إلى عين الوردة، فنزلوا غربيها، وأقاموا خمساً، واستراحوا وأراحوا.
وأقبل أهل الشام في عساكرهم، حتى كانوا من عين الوردة على مسيرة يوم وليلة، فقام
سليمان في أصحابه فخطبهم وحرضهم على القتال وذكرهم الآخرة ثم قال: إن أنا قتلت
فأمير الناس المسيب ابن نجبة، فإن قتل فالأمير عبد الله بن سعد بن نفيل، فإن قتل فالأمير
عبد الله بن وأل، فإن قتل فالأمير رفاعة بن شداد، رحم الله امرأ صدق ما عاهد الله
عليه.
وبعث المسيب بن نجبة في أربعمائة فارس، وقال: سر حتى تلقى أول عساكرهم، فشن
عليهم الغارة، فإن رأيت ما تحب وإلا فارجع. فسار يومه وليلته، ثم نزل، فأتى بأعرابي،
فسأله عن أدنى العسكر منه، فقال: أدناها منك عسكر شرحبيل بن ذي الكلاع، وهو
على ميل، وقد اختلف هو والحصين، ادعى كل واحد منهما أنه على الجماعة، وهما
ينتظران أمر عبيد الله.
فسار المسيب ومن معه مسرعين، حتى أشرفوا على القوم، وهم على غير أهبة، فحملوا
في جانب عسكرهم، فانهزم العسكر، فأصاب المسيب منهم رجالاً وأكثروا فيهم الجراح،
وأخذوا دواب، وترك الشاميون معسكرهم وانهزموا، فغنم أصحاب المسيب ما أرادوا،
ثم انصرفوا إلى سليمان.
وبلغ الخبر ابن زياد، فسرح الحصين في اثني عشر ألفاً، فخرج أصحاب سليمان إليه، لأربع
بقين من جمادى الأولى، وعلى ميمنتهم عبد الله بن سعد، وعلى ميسرتهم المسيب،
وسليمان في القلب. وجعل الحصين على ميمنته جبلة بن عبد الله، وعلى ميسرته ربيعة
بن المخارق الغنوي.
فلما دنا بعضهم من بعض دعاهم أهل الشام إلى الجماعة على مروان بن الحكم، ودعاهم

أصحاب سليمان إلى خلع مروان وتسليم عبيد الله بن زياد إليهم وأنهم يخرجون من
بالعراق من أصحاب عبد الله بن الزبير ثم يرد الأمر إلى أهل بيت النبي صلى الله عليه
وسلم، فأبى كل منهم، وحمل بعضهم على بعض، فانهزم أهل الشام وكان الظفر لأصحاب
سليمان إلى الليل.
فلما كان الغد صبح الحصين ثمانية آلاف أمده بهم عبيد الله، فقاتلهم أصحاب سليمان
عامة النهار قتالاً شديداً لم يحجز بينهم إلا الصلاة حتى حجز بينهم الليل، وقد كثر الجراح
في الفريقين.
فلما أصبح أهل الشام أتاهم أدهم بن محرز الباهلي في نحو من عشرة آلاف من قبل ابن
زياد، فاقتتلوا يوم الجمعة إلى ارتفاع الضحى، ثم كثر أهل الشام عليهم، وعطفوا من كل
جانب، فنزل سليمان ونادى: عباد الله، من أراد البكور إلى ربه والتوبة من ذنبه فإلي. ثم
كسر جفن سيفه، فنزل معه ناس كثير وفعلوا كفعله، وقاتلوا قتالاً شديداً، فقتلوا من أهل
الشام مقتلة عظيمة وأكثروا فيهم الجراح، فبعث الحصين الرجالة ترميهم بالنبل، واكتنفتهم
الخيل، فقتل سليمان بن صرد، رماه يزيد بن الحصين بسهم فوقع ثم وثب ثم وقع، ومات وهو
ابن ثلاث وتسعين سنة، وكانوا قد سموه " أمير التوابين " .
فأخذ الراية المسيب بن نجبة، وترحم على سليمان، فتقدم فقاتل حتى قتل بعد أن قتل
رجالاً كثيراً.
فأخذ الراية عبد الله بن سعد بن نفيل، وترحم عليهما، وقرأ " فمنهم من قضى نحبه
ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا " وحف به من كان منهم معه من الأزد، فبيناهم في القتال
إذ أتاهم فرسان ثلاثة من سعد بن حذيفة، يخبرون بمسيره في سبعين ومائة من أهل المدائن،
ويخبرون بمسير أهل البصرة مع المثنى بن مخرمة العبدي في ثلاثمائة، فقال عبد الله بن سعد:
لو جاءونا ونحن أحياء! وقاتل حتى قتل، قتله ابن أخي ربيعة بن مخارق، وحمل خالد بن
سعد بن نفيل على قاتل أخيه يطعنه بالسيف، فخلصه أصحابه، وقتل خالد بن سعد.
فجيء بالراية إلى عبد الله بن وأل، وقد اصطلى الحرب في عصابة معه، فأخذها، وقاتل

ملياً، وذلك وقت العصر، ومازال يقاتل حتى قتل هو وأصحابه رجالاً، ثم إن أهل الشام
تعطفوا عليهم من كل جانب، فلما كان عند المساء تولى قتالهم أدهم بن محرز الباهلي،
فحمل في خيله ورجله حتى وصل إلى ابن وأل وهو يتلو " ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل
الله أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يرزقون " الآيات، فغاظ ذلك أدهم، فحمل عليه وضربه
فأبان يده ثم تنحى عنه، وقال: إني أظنك وددت أنك عند أهلك، قال ابن وأل بئس ما
ظننت، والله ما أحب أن يدك مكانها إلا أن يكون لي من الأجر مثل ما في يدي، ليعظم
وزرك وأجري، فغاظه ذلك فحمل عليه فطعنه فقتله وهو مقبل ما زال عن مكانه، وكان
ابن وأل من الفقهاء العباد.
فلما قتل أتوا رفاعة بن شداد البجلي وقالوا خذ الراية، فقال: ارجعوا بنا لعل الله يجمعنا
ليوم شر لهم، فقال عبد الله بن عوف ابن الأحمر: هلكنا والله لئن انصرفت ليركبن أكتافنا
فلا نبلغ فرسخاً حتى نهلك عن آخرنا، وإن نجا منا ناج أخذته الأعراب فتقربوا به إليهم
فيقتل صبراً! هذه الشمس قد قاربت الغروب فنقاتلهم على خيلنا، فإذا غسق الليل ركبنا
خيولنا أول الليل، وسرنا حتى نصبح ونسير على مهل، يحمل الرجل صاحبه وحريمه
ونعرف الوجه الذي نأخذه.
فقال رفاعة نعم ما رأيت وأخذ الراية، وقاتلهم قتالاً شديداً وتقدم عبد الله بن عزيز
الكناني فقاتل أهل الشام قتالاً شديداً، ومعه ولده محمد وهو صغير، فسلمه لبني كنانة من
أهل الشام ليوصلوه إلى الكوفة، فعرضوا عليه الأمان، فأبى، ثم قاتلهم حتى قتل.
وتقدم كريب بن زيد الحمير عند المساء في مائة من أصحابه فقاتل قتالاً شديداً، فعرض ابن
ذي الكلاع عليه وعلى أصحابه الأمان، فقال قد كنا آمنين في الدنيا وإنما خرجنا نطلب
أمان الآخرة.
وتقدم صخير بن هلال المزني في ثلاثين من مزينة، فقاتلوا حتى قتلوا.
فلما أمسوا رجع أهل الشام إلى معسكرهم، وسار رفاعة بالناس ليلته، وأصبح الحصين

فلم يرهم، فما بعث في أثرهم، وساروا حتى أتوا قرقيسيا فأقاموا عند زفر بن الحارث
ثلاثاً، ثم زودهم وساروا إلى الكوفة.
وأما سعد بن حذيفة بن اليمان فإنه سار من المدائن بمن معه حتى بلغ هبت، فأتاه الخبر،
فرجع فلقي المثنى بن مخرمة العبدي في أهل البصرة، فأخبره، فأقاموا بصندوداء حتى
أتاهم رفاعة، فاستقبلوه، وبكى بعضهم إلى بعض، وأقاموا يوماً وليلة، ثم تفرقوا، فسارت
كل طائفة منهم إلى جهتهم.
قال: ولما بلغ رفاعة الكوفة كان المختار بن أبي عبيد محبوساً، فأرسل إليه المختار: "أما
بعد فإنكم خرجتم بالعصبة الذين عظم الله لهم الأجر حين انصرفوا ورضي فعلهم حتى
قتلوا، أما ورب البيت ما خطا خاط منكم خطوة ولا ربا ربوة إلا كان ثواب الله له أعظم
من الدنيا، إن سليمان قد قضى ما عليه، وتوفاه الله فجعل روحخ مع النبيين والصديقين
والشهداء والصالحين، ولم يكن بصاحبكم الذي به تنتصرون إني أنا الأمير المأمور والأمين
المأمون، وقاتل الجبارين، والمنتقم من أعداء الدين، والمقيد من الأوتار، فأعدوا واستعدوا
وأبشروا، وأدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، والطلب بدم أهل البيت، والدفع عن
الضعفاء، وجهاد المحلين، والسلام".
وكان من أمر المختار ما نذكره إن شاء الله تعالى.
أخبار المختار
ابن أبي عبيد بن مسعود الثقفي
كان المختار بن أبي عبيد ممن بايع مسلم بن عقيل لما بعثه الحسين علي رضي الله عنهما
إلى الكوفة وأنزله في داره، ودعا إليه. فلما ظهر ابن عقيل كان المختار في قرية تدعى لقفا،
فأتاه الخبر بظهوره، فأقبل في مواليه إلى باب الفيل بعد المغرب، وقد أجلس عبيد الله بن
زياد عمرو بن حريث بالمسجد ومعه راية، فبعث إلى المختار وأمنه، فجاء إليه.
فلما كان من الغد ذكر عمارة بن عقبة أمره لعبيد الله، فأحضره، وقال له: أنت المقبل في
الجموع لتنصر ابن عقيل! قال: لم أفعل، واكني أقبلت ونزلت تحت راية عمرو، فشهد له
عمرو بذلك، فضرب ابن زياد وجه المختار بقضيب فشتر عينه وقال: لولا شهادته قتلتك.

وحسبه إلى أن قتل الحسين.
فبعث المختار إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب يسأله أن يشفع له فيه، وكان زوج أخته
صفية بنت أبي عبيد، فكتب ابن عمر إلى يزيد بن معاوية يشفع فيه، فأمر يزيد ابن زياد
بإطلاقه، فأطلقه وأمره ألا يقيم غير ثلاث.
فخرج المختار إلى الحجاز، واجتمع بعبد الله بن الزبير وأخبره خبر العراق، وقال له: ابسط
يدك أبايعك، وأعطنا ما يرضينا، وثب على الحجاز، فإن أهله معك، وكان ابن الزبير يدعو
لنفسه سراً، فكتم أمره عن المختار ففارقه إلى الطائف، وغاب عنه سنة ثم سأل عنه ابن
الزبير، فقيل له: إنه بالطائف، وإنه يزعم أنه صاحب الغضب ومبيد الجبارين، إن يهلك الله
الجبارين يكن المختار أولهم.
فبينا هو في حديثه إذ دخل المختار، فطاف وصلى ركعتين، وجلس وأتاه معارفه يحدثونه،
وما يأت ابن الزبير، فوضع ابن الزبير عليه عباس بن سهل بن سعد، فأتاه، وسأله عن حاله،
ثم قال له: مثلك يغيب من الذي قد اجتمع عليه الأشراف من قريش والأنصار وثقيف؟
ولم تبق قبيلة إلا وقد أتاه زعيمها، فبايع هذا الرجل.
فقال: إني أتيه في العام الماضي فكتم عني خبره، فلما استغنى عني أحببت أن أريه أني
مستغنٍ عنه، فقال له العباس: ألقه الليلة وأنا معك، فأجابه إلى ذلك، وحضر عند ابن
الزبير بعد العتمة، فقال له المختار: أبايعك على ألا تقضي الأمور دوني، وعلى أن أكون أول
داخلٍ عليك، وإذا ظهرت استعنت بي على أفضل عملك.
فقال ابن الزبير:أبايعك على كتاب الله وسنة رسوله. فقال: وشر غلماني تبايعه على ذلك،
والله لا أبايعك أبداً إلا على ذلك، فبايعه وأقام عنده، وشهد معه قتال الحصين، وكان أشد
الناس على أهل الشام، فلما مات يزيد وأطاع أهل العراق عبد الله ابن الزبير، أقام المختار
عنده خمسة أشهر، فلما رآه لا يستعمله جعل يسأل من يقدم من الكوفة عن حال الناس،
فأخبره هانئ بن أبي حية الوداعي باتفاق أهل الكوفة على طاعة ابن الزبير إلا طائفة من
الناس، لو كان لهم من يجمعهم على رأيهم أكل بهم الأرض إلى يوم ما.

فقال المختار، أنا أبو إسحاق أنا والله لهم، أنا أجمعهم على الحق، وأتقي بهم ركبان
الباطل، وأقتل بهم كل جبار عنيد.
ثم ركب دابته وسار نحو الكوفة فوصل إليها.
واختلفت الشيعة إليه، وبلغت خبر سليمان بن صرد وأنه على عزم المسير، فقام في
الشيعة فحمد الله، ثم قال: إن المهدي وابن الرضا، يعني محمد ابن الحنيفة، بعثني إليكم
أميناً ووزيراً ومنتخباً وأميرا، وأمرني بقتال الملحدين، والطلب بدم أهل بيته.
فبايعه إسماعيل بن كثير وأخوه، وعبيدة بن عمرو، وكانوا أول من أجابه، وبعث إلى
الشيعة وقد اجتمعوا عند ابن صرد، وقال لهم نحو ذلك، وقال: إن سليمان ليس له تجربة
بالحرب ولا بالأمور، إنما يريد أن يخرجكم وفيقتلكم ويقتل نفسه، وأنا أعمل على مثالٍ مثل
لي، وأمر بين لي، فيه عز وليكم، وقتل عدوكم، وشفاء صدوركم، فاسمعوا قولي، وأطيعوا
أمري، ثم ابشروا.
فمازال بهذا ونحوه حتى استمال طائفة من الشيعة، فكانوا يختلفون إليه ويعظمونه، وأكثر
الشيعة مع ابن صرد، وهو أثقل خلق الله على المختار.
فلما خرج سليمان بن صرد على ما قدمناه قال عمر بن سعد، وشبث بن ربعي، ويزيد
بن الحارث بن رويم لعبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة: إن المختار أشد عليكم
من سليمان، إن سليمان إنما خرج يريد قتال عدوكم، والمختار يريد أن يثب عليكم في
مصركم، فأتوه، وأخذوه بغتة، وحملوه إلى السجن، فكان يقول في السجن: أما ورب البحار،
والنخيل والأشجار، والمهامة، والقفار، والملائكة الأبرار، والمصطفين الأخيار، لأقتلن كل
جبار، بكل لدنٍ خطار، ومهند بتار، وجموع الأنصار، وليسوا بميل أغمار، ولا بعزلٍ أشرار،
حتى إذا أقمت عمود الدين ، ورأبت شعب صدع المسلمين، وشفيت غليل المؤمنين،
وأدركت بثأر النبيين، لم يكبر على زوال الدنيا، ولم أحفل بالموت إذا أتى.
وقيل في خروج المختار إلى الكوفة غير ما تقدم، وهو أنه قال لعبد الله بن الزبير وهو عنده:
إني لأعلم قوما لو أن لهم رجلاً له علم بما يأتي ويذر لاستخرج لك منهم جنداً يقاتل بهم

أهل الشام. قال: من هؤلاء؟ قال: شيعة علي" رضي الله عنه"
بالكوفة، قال: فكن أنت
ذلك الرجل؛ فبعثه إلى الكوفة، فنزل ناحيةً منها يبكي على
الحسين ويذكر مصابه حتى ألفه
الناس وأحبوه، فنقلوه إلى وسط الكوفة، وأتاه منهم بشر كثير"
والله أعلم"

ذكر وثوب المختار بالكوفة
كان وثوب المختار بالكوفة في رابع عشر شهر ربيع الأول سنة"
66 ه" ست وستين، وكان
سبب ذلك أنه لما قتل سليمان بن صرد قدم من بقي من أصحابه
إلى الكوفة، وكان المختار
محبوساً كما ذكرنا، فكتب إليهم من السجن يثني عليهم،
ويمنيهم الظفر، ويعرفهم أن محمد
بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية أمره بطلب الثأر،
فقرأ كتابه رفاعة بن شداد
والمثنى بن مخربة العبدي، وسعد بن حذيفة بن اليمان، ويزيد
بن أنس، وأحمر بن شميط،
وعبد الله بن شداد البجلي، وعبد الله بن كامل.
فلما قرؤوا كتابه بعثوا إليه ابن كامل يقولون: إننا بحيث يسرك،
فأن شئت أن نأتيك
ونخرجك من الحبس فعلنا، فقال: إني أخرج في أيامي هذه.
وكان المختار قد أرسل إلى
عبد الله ابن عمر يقول: إني حبست مظلوماً، وطلب " منه" أن
يشفع فيه إلى عبد الله بن
يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة.
فكتب ابن عمر إليهما في أمره، فشفعاه فيه، وأخرجاه من
السجن، وحلفاه أن لا يبغيهما
غائلة، ولا يخرج عليهما مادام لهما سلطان، فإن فعل فعليه ألف
بدنة ينحرها عند الكعبة،
ومماليكه أحرار.
فلما خرج نزل بداره، وقال لمن يثق به: قاتلهم الله، ما أحمقهم
حين يرون أني أفي لهم، أما

حلفي بالله فإنني إذا حلفت على يمين فرأيت خيراً منها أكفر عن يميني، وخروجي عليهم
خير من كفي عنهم، وأما هدي البدن، وعتق المماليك، فهو أهون علي من بصقة، وددت
أني تم لي أمي، ولا أملك بعده مملوكاً أبداً.
ثم اختلفت إليه الشيعة، واتفقوا على الرضا به، ولم يزل أصحابه يكثرون وأمره يقوى،
حتى عزل عبد الله بن الزبير عبد الله ابن يزيد وإبراهيم بن محمد ، واستعمل عبد الله بن
مطيع عل عملهما بالكوفة.
وقدم ابن مطيع الكوفة لخمسٍ بقين من شهر رمضان سنة"65 ه" خمس وستين، ولما قدم
صعد النبر،فخطب الناس وقال: أما بعد، فإن أمير المؤمنين بعثني على مصركم وثغوركم،
وأمرني بجباية فيئكم وألا أحمل فضلة عنكم إلا برضا منكم، وأن أتبع فيكم وصية عمر
بن الخطاب التي أوصى بها عند وفاته، وسيرة عثمان بن عفان رضي الله عنهما، فاتقوا
الله واستقيموا، ولا تختلفوا علي، وخذوا على أيدي سفهائكم، فإن لم تفعلوا فلوموا
أنفسكم. فقام إليه السائب بن مالك الأشعري، فقال: أما حمل فينا برضانا فإنا نشهد ألا
نرضى أن تحمل عنا فضلة وألا تقسم إلا فينا، وألا يسار فينا إلا بسيرة علي بن أبي طالب
التي سار بها في بلادنا حتى هلك، ولا حاجة لنا في سيرة عثمان بن عفان في فيئنا ولا في
أنفسنا، ولا في أنفسنا ، ولا في سيرة في فيئنا، وإن كانت أهون السيرتين علينا، وقد كان
يفعل بالناس خيراً.
فقال يزيد بن أنس: صدق السائب وبر، فقال ابن مطيع: نسير فيكم بكل سيرة أحببتم ،
ثم نزل.
وجاء إياس بن مضارب إلى مطيع فقال له: إن السائب بن مالك من رءوس أصحاب
المختار، فأبعث إلى المختار، فإذا جاءك فاحبسه حتى يستقيم أمر الناس، فإن أمره قد
استجمع له، وكأنه قد وثب بالمصر.
فبعث ابن مطيع إلى المختار زائدة بن وحسين بن علي البرسمي، فقالا له، أجب الأمير،
فعزم على الذهاب فقرأ زائدة:" وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك

.." الآية. فألقى المختار ثيابه وقال: ألقوا علي قطيفة فإني وعكت، إني لأجد برداً
شديداً، ارجعا إلى الأمير فأعلماه حالي، فعادا إليه فأعلماه فتركه.
ووجه المختار إلى أصحابه، فجمعهم حوله في الدور، وأراد أن يثب في الحرم، فجاء رجل
من أصحابه من شبام، وشبام: حي من همدان، وكان شريفاً،و اسمه عبد الرحمن بن
شريح، فلقي سعيد بن منقذ الثوري، وسعر بن أبي سعر الحنفي، والأسود بن جراد
الكندي، وقدامة بن مالك الجشمي، فقال لهم: إن المختار يريد أن يخرج بنا، ولا ندري
أرسله بن حنيفة أم لا؟ فانهضوا بنا إلى محمد ابن الحنيفة نخبره بما قدم به علينا المختار،
فإن رخص لنا في اتباعه أتبعناه، وإن نهانا عنه اجتنبناه، فو الله ما ينبغي أن يكون شيء
من الدنيا آثر عندنا من سلامة ديننا، فأستصوبوا راية، وخرجوا إلى ابن الحنفية، فلما
قدموا عليه سألهم عن حال الناس، فأخبروه وأعلموه حال المختار، فقال: والله لوددت أن
الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه،فعادوا.
وكان مسيرهم قد شق على المختار، وخاف أن يعودوا بما يخذل الشيعة عنه، فلما قدموا
الكوفة دخلوا عليه، فقال: ما وراءكم؟ فقد فتنتم وأربتم، فقالوا: قد أمرنا بنصرك، فقال:
الله أكبر، الله أكبر، أجمعوا الشيعة، فجمع من كان قريباً منه، فقال لهم: إن نفراً أحبوا أن
يعلموا مصداق ما جئت به، فرحلوا إلى إمام الهدى، فسألوه عما قدمت به عليكم، فنبأهم
أني وزيره وظهيره ورسوله، وآمركم بطاعتي واتباعي فيما دعوتكم إليه من قتال المحلين،
والطلب بدماء أهل بيت نبيكم.
فقامعبد الحمن بن شريح وأخبرهم بحالهم ومسيرهم، وأن ابن النفية أمرهم بمظاهرته
ومؤازرته، وقال لهم: ليبلغ الشاهد منكم الغائب، واستعدوا وتأهبوا، وقام جماعة من
أصحابه فقالوا نحواً من كلامه.
فاجتمعت له الشيعة، وكان من جملتهم" الشعبي" وأبوه شراحيل، فلما تهيأ أبوه للخروج
قال له بعض أصحابه: إن أشراف الكوفة مجمعون على قتالك مع ابن مطيع، فإن أجابنا

إبراهيم بن الأشتر رجونا القوة على عدونا، فإنه فتى رئيس وابن رجل شريف، وله عشيرة
ذات عز وعدد. فقال المختار: فالقوه وادعوه، فخرجوا إليه ومعهم الشعبي، فاعلموه
حالهم، وسألوه مساعدتهم، فقال: على أن تولوني الأمر، فقالوا: أنت لذلك أهل، ولكن ليس
إلى ذلك سبيل، هذا المختار قد جاءنا من قبل المهدي، وهو المأمور بالقتال، وقد أمرنا
بطاعته، فلم يجبهم إبراهيم، فانصرفوا عنه.
وأتوا المختار، فسكت ثلاثاً، ثم صار إلى إبراهيم في بضعة عشر من أصحابه، والشعبي
وأبوه فيهم ، فدخلوا عليه، فألقى إليهم الوسائد، فجلسوا عليها، وجلس المختار معه على
فراشه، فقال: المختار له: هذا كتاب المهدي إليك، يسألك أن تنصرنا وتآزرنا،فقرأه، فإذا
هو:" من محمد المهدي إلى إبراهيم بن مالك الأشتر، سلام عليك، فإني أحمد الله إليك
الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإني" قد" بعثت إليكم وزيري وأميني الذي ارتضيته لنفسي،
وأمرته بقتال عدوي، والطلب بدماء أهل بيتي، فأنهض بنفيك وعشيرتك ومن أطاعك،
فإنك إن نصرتني وأجبت دعوتي كانت لك بذلك عندي فضيلة، ولك أعنة الخيل، وكل
جيش غاز، وكل مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه فيما بين الكوفة وأقصى بلاد الشام".
فلما فرغ من قراءته تأخر عن صدر الفراش، وأجلس المختار عليه، وبايعه. وصار
يختلف إلى المختار كل عشية يدبرون أمورهم.
واجتمع رأيهم على الخروج ليلة الخميس لأربعة عشر ليلةً من شهر ربيع الأول، فلما كان
تلك الليلة، صلى إبراهيم بن الأشتر بأصحابه المغرب، ثم خرج يريد المختار، وعليه وعلى
أصحابه السلاح، وكأن إياس بن مضارب قد جاء إلى عبد الله بن مطيع وهو على
شرطته، فقال: إن المختار خارج عليك إحدى هاتين الليلتين، وقد بعثت بابني إلى
الكناسة، فلو بعثت في كل جبانة عظيمة بالكوفة رجلاً من أصحابك في جماعة من أهل
الطاعة لهاب المختار وأصحابه الخروج عليك، فبعث ابن مطيع إلى كل جبانة من يحفظها
من أهل الطاعة، وأمر على كل طائفة أميراً، وأوصى كلاً منهم ألا يؤتى من قبله، وقال: إذا

سمعت صوت القوم فوجه نحوهم، وكان خروجهم إلى الجبابين يوم الاثنين.
وخرج إبراهيم بن الأشتر ليلة الثلاثاء يريد المختار، وقد بلغه أن الجبابين قد ملئت رجالاً،
وأن إياس بن مضارب في الشرطة قد أحاط بالسوق والقصر، فأخذ معه من أصحابه نحو
مائة دارع، وقد لبسوا عليهم الأقبية، فقال له" أصحابه": تجنب الطريق، فقال: والله لأمرن
وسط السوق بجنب القصر، ولأرعبن عدونا، ولأرينهم هوانهم علينا، فسار على باب
الفيل، فلقيهم إياس في الشرط مظهرين السلاح، فقال: من أنتم؟ فقال: أنا إبراهيم بن
الأشتر. فقال إياس: ما هذا الجمع الذي معك؟ وإلى أين تريد؟ ولست بتاركك حتى آتي
بك الأمير، فقال إبراهيم: خل سبيلنا؛ قال لا أفعل؛ وكان مع إياس رجل من همدان يقال له
أبو قطن، وكان يكرمه، وكان صديقاً لأبن الأشتر، فقال له ابن الأشتر: أدن مني يا أبا قطن،
فدنا منه وهو يظن أن إبراهيم يستشفع به عند إياس، فلما دنا منه أخذ رمحاً كان معه
فطعن به إياس في ثغره، فصرعه، وأمر رجلاً من أصحابه فقطع رأسه، وتفرق أصحاب
إياس، ورجعوا إلى ابن مطيع، فبعث مكانه ابنه راشد بن إياس على الشرط، وأقبل
إبراهيم إلى المختار وقال له: إنا تعدنا للخروج القابلة، وقد وقع أمر لا بد من الخروج الليلة،
وأخبره الخبر، ففرح المختار بقتل إياس وقال: هذا أول الفتح إن شاء الله.
ثم قال لسعيد بن منقذ:قم فأشعل النيران وارفعها، وسر أنت يا عبد الله بن شداد فناد:
يا منصور، أمت، وأنت يا سفيان بن ليلى، وأنت يا قدامة بن مالك: ناد يا لثارات الحسين،
ثم لبس سلاحه.
وكانت الحرب بين أصحابه وبين الذين ندبهم ابن مطيع لحفظ الجبابين في تلك الليلة، فكان
الظفر لأصحاب المختار، وخرج المختار في جماعة من أصحابه حتى نزل في ظهر دير هند
في السبخة، وانضم إليه ممن تابعه ثلاثة آلاف وثمانمائة من اثني عشر ألفا، واجتمعوا له قبل
الفجر، فأصبح وقد فرغ من تعبئته، وصلى بأصحابه بغلس.
وقد جمع ابن مطيع أهل الطاعة إليه، فبعث شبث بن ربعى في ثلاثة آلاف، وراشد بن

إياس في أربعة آلاف من الشرط، لقتال المختار ومن معه، وأردفهم بالعساكر، واقتتلوا؛ فكان
الظفر لأصحاب المختار ومن معه، وكان الذي صلي الحرب ودبر الأمر إبراهيم بن الأشتر.
فلما رأى بن مطيع أمر المختار وأصحابه قد قوي خرج بنفسه إليهم، فوقف بالكنائس
واستخلف شبث بن ربعى على القصر، فبرز إبراهيم بن الأشتر لابن مطيع في أصحابه
وحمل عليه، فلم يلبث ابن مطيع أن أنهزم أصحابه، يركب بعضهم بعضاً على أفواه
السكك، وابن الأشتر في آثارهم، حتى بلغ المسجد، وحصر ابن مطيع ومن معه في
أشراف الكوفة في القصر ثلاثاً، فقال شبث لأبن مطيع: انظر لنفسك ولمن معك؛ فقال:
أشيروا علي؛ فقال شبث: الرأي أن تأخذ لنفسك ولنا أماناً، وتخرج ولا تهلك نفسك ومن
معك؛ فقال ابن مطيع: إني لأكره أن أخذ منه أماناً، والأمور لأمير المؤمنين مستقيمة بالحجاز
والبصرة؛ فتخرج ولا تشعر بك أحداً، فتنزل بالكوفة عند من تثق إليه حتى تلحق
بصاحبك. فأقام حتى أمسى، وخرج وأتى دار أبي موسى، وترك القصر، ففتح أصحابه
الباب، وقالوا: يا ابن الأشتر، آمنون نحن؟ فقال: أنتم آمنون؛ فخرجوا؛ فبايعوا المختار.
ودخل"المختار" القصر فبات به، وأصبح أشراف الناس في المسجد وعلى باب القصر،
وخرج المختار فصعد المنبر وخطب الناس، ثم نزل.
ودخل أشراف الكوفة فبايعوه على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم،
والطلب، بدماء أهل البيت وجهاد المحلين والدفع عن الضعفاء، وقتال من قاتلنا، وسلم من
سالمنا.
وكان ممن بايعه المنذر بن حسان الضبى وابنه حسان، فلما خرجا من عنده استقبلهما
سعيد بن منقذ الثوري في جماعة من الشيعة، فقالوا: هذان والله رءوس الجبارين،
فقتلوهما، ونهاهم سعيد عن قتلهما إلا بأمر المختار، فلم ينتهوا.
فلما سمع المختار ذلك كرهه، وأقبل يمني الناس ويود الأشراف، ويحسن السيرة، فبلغه أن
ابن مطيع في دار أبي موسى، فسكت، فلما أمسى بعث إليه بمائة ألف درهم، وقال: تجهز

بهذه، فقد علمت مكانك، وأنك لم يمنعك الخروج إلا عدم النفقة.
ووجد المختار في بيت المال" بالكوفة" تسعة آلاف وخمسة مائة ألف، فأعطى لكل رجل
خمسمائة درهم، وأعطى لستة آلاف من أصحابه أتوه بعد ما أحاط بالقصر، لكل منهم
مائتي درهم، واستقبل الناس بخير. واستعمل على شرطته عبد الله بن كامل الشاكري،
وعلى حرسه كيسان.
" والله أعلم بالصواب".
ذكر عمال المختار بن أبي عبيد
كانت أول راية عقدها المختار لعبد الله بن الحارث أخي الأشتر على أرمينية، وبعث
محمد بن عمير بن عطارد على أذربيجان، وبعث عبد الرحمن بن سعيد بن قيس على
الموصل، وبعث إسحاق ابن مسعود على المدائن، وأرض جوخى، وبعث قدامة بن أبي
عيسى ابن أبي ربيعة النصري حليف ثقيف على بهقاذ الأعلى، وبعث محمد بن كعب بن
قرظة على بهقاذ الأوسط، وبعث سعد ابن حذيفة بن اليمان على حلوان، وأمره بقتال
الأكراد، وإقامة الطرق. وكان ابن الزبير قد استعمل على الموصل محمد بن الأشعث بن
قيس، فلما بعث المختار عبد الرحمن إليها، سار محمد عنها إلى تكريت، ينتظر ما يكون
من الناس، ثم سار إلى المختار فبايعه، فلما فرغ من ذلك أقبل يجلس للناس ويقضي بينهم،
ثم قال: إن لي فيما أحاول شغلاً عن القضاء، ثم أقام شريحاً يقضي بين الناس، فتمارض،
فجعل المختار مكانه عبد الله بن عتبة بن مسعود، ثم مرض، فجعل مكانه عبد الله بن
مالك الطائي.
قتل المختار
قتلة الحسين وخروج أهل الكوفة على المختار وقتالهم إياه ووقعة السبيع
كان سبب ذلك أن مروان بن الحكم لما أستتب له الأمر بعث عبيد الله بن زياد إلى
العراق، وذكرنا ما كان من أمره مع التوابين. ثم توفي مروان بن الحكم وولى ابن عبد الملك،
فأقر ابن زياد على ولايته،و أمر بالجد، فأقبل إلى الموصل، فكتب عبد الرحمن بن سعيد
عامل المختار إليه يخبره بدخول ابن زياد أرض الموصل، وأنه قد تنحى له عنها إلى تكريت،

فندب المختار يزيد بن أنس الأسدي، فانتخب ثلاثة آلاف، وسار بهم نحو الموصل، وكتب
المختار إلى عبد الرحمن: أن خل بين يزيد وبين البلاد، فسار يزيد حتى بلغ أرض الموصل،
فنزل بنات تلى، وبلغ خبره ابن زياد، فقال: لأبعثن إلى كل ألف ألفين، فأرسل ربيعة بن
المخارق الغنوى في ثلاثة آلاف، وعبد الله بن جملة الخثعمي في ثلاثة آلاف، فسار ربيعة
قبل عبد الله بيوم، فنزل بيزيد بن أنس بنات تلى فخرج، وقد اشتد به المرض، وعبأ
أصحابه، وقال: إن هلكت فأميركم ورقاء بن عازب الأسدي، فأن هلك فأميركم عبد الله
بن ضمرة العذري، فإن هلك فأميركم سعر الحنفي ثم نزل فوضع على سرير، وقال: قاتلوا
عن أميركم إن شئتم أو فروا عنه.
واقتتل القوم، فأنهزم أصحاب بن زياد، وقتل ربيعة بن المخارق، قتله عبد الله بن ورقاء،
فيا المنهزمون ساعة، ولقيهم عبد الله ابن جملة فردهم معه، فباتوا ليلتهم ببنات تلى
يتحارسون، فلما أصبحوا خرجوا إلى القتال فاقتتلوا قتالاً شديداً، وذلك في اليوم الأضحى
سنة ست وستين، فانهزم أهل الشام، ونزل ابن جملة في جماعة، فقاتل حتى قتل، وحوى
أهل الكوفة عسكرهم، وقتلوا فيهم قتلاً ذريعاً، وأسروا ثلاثمائة، فأمر يزيد بقتلهم، وهو
بآخر رمق، فقتلوا، ثم مات آخر النهار، فقال ورقاء بن عازب لأصحابه: إن بلغني أن عبيد
الله بن زياد قد أقبل إليكم في ثمانين ألفاً، وأشار إليهم بالرجوع إلى المختار، فصوبوا رأيه،
ورجعوا، فبلغ ذلك أهل الكوفة، فأرجفوا بالمختار، وقالوا: إن يزيد قتل ولم يمت، فندب
إبراهيم بن الأشتر في سبعة آلاف، وقال له: سر فإذا لقيت جيش يزيد فأنت الأمير عليهم،
فأردهم معك حتى تلقى ابن زياد فناجزه.
فسار إبراهيم لذلك، فأجتمع أشراف الكوفة على شبث بن ربعى وقالوا: والله، إن
المختار تأمر بغير رضاً منا، وقد أدنى موالينا، فحملهم على الدواب، وأعطاهم فيئنا.
فقال: دعوني حتى ألقاه، فذهب إليه فكلمه، فلم يدع شيئاً أنكره إلا ذكره له، والمختار
يقول في كل خصلة: أنا أرضيهم في هذا وآتي كل ما أحبوه، فلما ذكر المالي ومشاركتهم في

الفيء قال: إن أنا تركت لكم مواليكم وجعلت فيئكم لكم، أتقاتلون معي بني أمية وابن
الزبير وتعطوني على هذا الوفاء عهد الله وميثاقه وما أطمئن إليه من الأيمان. فقال شبث:
حتى أخرج إلى أصحابي فأذكر ذلك لهم.
فخرج إليهم ولم يعد إلى المختار، وأجتمع رأيهم على قتله، فأجتمع شبث، ومحمد بن
الأشعث، وعبد الرحمن بن سعيد بن قيس، وشمر بن ذي الجوشن، ودخلوا على كعب بن
أبي كعب الخثعمي، فكلموه في ذلك، فأجابهم إليه، فخرجوا من عنده، ودخلوا على عبد
الرحمن بن مخنف الأزدي، فدعوه إلى ذلك، فقال: إن أطعتموني لم تخرجوا، فقالوا: لم؟ إني
أخاف أن تتفرقوا وتختلفوا ومع الرجل شجعانكم وفرسانكم مثل فلان وفلان، ثم معه
عبيدكم ومواليكم، وكلمة هؤلاء واحدة، ومواليكم أشد حنقاً عليكم من عدوكم، فهم
يقاتلوكم بشجاعة العرب وعداوة العجم، وإن انتظرتموه قليلاً كفيتموه بغيركم، ولا تجعلوا
بأسكم بينكم؛ فقالوا: ننشدك الله ألا تخالفنا وتفسد علينا رأينا، وما أجمعنا عليه. فقال:
إنما أنا رجل منكم، فإذا شئتم فأخرجوه، فوثبوا بالمختار بعد مسير ابن الأشتر، وخرج كل
رئس بجبانة، فأرسل المختار إلى ابن الأشتر يأمره بسرعة العودة إليه، وبعث إليهم وهو
يلاطفهم ويقول: إني صانع ما أحببتم، وهو يريد بذلك مداهنتهم حتى يقدم إبراهيم ابن
الأشتر، فوصل الرسول إليه وهو بساباط، فرجع لوقته، وسار حتى أتى الكوفة ومعه أهل
القوة من أصحابه، وأجتمع أهل اليمن بجبانة السبيع، فلما حضرة الصلاة كره كل رأس من
أهل اليمن أن يتقدمه صاحبه، فقال ابن مخنف: هذا أول الاختلاف، قدموا الرضى منكم
سيد القراء رفاعة بن شداد البجلى، فلم يزل يصلي بهم حتى كانت الواقعة.
ثم نزل المختار فعبأ أصحابه وأمر ابن الأشتر فسار إلى مضر وعليهم شعب بن ربعى،
ومحمد بن عمير، وهم بالكناسة، وسار المختار نحو أهل اليمن بجبانة السبيع، فاقتتلوا أشد
قتال، ثم كانت الغلبة للمختار وأصحابه، وأنهزم أهل اليمن وأخذ من دور الوادعيين

خمسمائة أسير، فأتى بهم إلى المختار، فعرضهم، فقتل منهم من شهد مقتل الحسين، فكانوا
مائتين وثمانية وأربعين.
ونادى منادي المختار: من أغلق بابه فهو آمن إلا من شرك في دماء آل محمد صلى الله
عليه وسلم، وكان عمر بن الحجاج الزبيدي ممن شهد قتل الحسين، فركب راحلته وأخذ
طريق الواقصة، فعدم فقيل: أدركه أصحاب المختار، وقد سقط من شدة العطش، فذبحوه.
وبعث المختار غلاماً له يدعى زريباً في طلب شمر ابن ذي الجوشن، فأدركه فقتله شمر،
وسار حتى نزل قرية يقال لها الكلتانية، فأخذ منها علجاً، فضربه، وقال: امض بكتابي هذا
إلى مصعب بن الزبير؛ فمضى العلج حتى دخل قريةً فيها أبو عمرة صاحب المختار، فلقي
ذلك العلج علجاً أخر من تلك القرية، فشكا إليه ما لقي من شمر، فبينما هو يكلمه إذ مر
رجل من أصحاب أبي عمرة اسمه عبد الرحمن بن أبي الكنود، فرأى الكتاب، عنوانه
لمصعب بن شمر، فسألوا العلج عنه، فأخبرهم بمكانه، فإذا هو منهم على مسيرة ثلاثة
فراسخ، فساروا إليه وأدركوه، فهرب أصحابه، وأعجله القوم عن لبس سلاحه، فقام وقد
أتزر ببرد، وكان أبرص، فظهر بياض برصه، فطاعنهم بالرمح ثم ألقاه، وأخذ السيف فقاتل
به حتى قتل، والذي قتله عبد الرحمن ابن أبي الكنود، وألقى جيفته للكلاب.
قال: وأقبل المختار إلى القصر من جبانة السبيع ومعه سراقة ابن مرادس البارقي أسيراً،
فناداه سراقة:

أمنن على اليوم يا خير معاً وخير من حل بشحرٍ والجند
وخير من لبى وحيى وسجد

فأمر به إلى السجن، ثم أحضره من الغد، فأقبل وهو يقول:

ألا أبلغ أبا إسحاق أنا نزونا نزوة كانت علينا
خرجنا نرى الضعفاء شيئا وكان خروجنا بطراً وحيناً
لقينا منهم ضرباً طلحفاً وطعناً صائباً حتى أنثنينا
نصرت على عدوك كل يوم نكل كتيبة تنعى حسيناً
كنصر محمد في يوم بدر ويوم الشعب إذ وافى حيناً
فأسجح إذ ملكت فلو ملكنا لجرنا في الحكومة واعتدينا
تقبل توبة مني فإني سأشكر إذ جعلت النقد دينا

فلما انتهى إلى المختار قال: أصلح الله الأمير، أحلف بالله الذي لا إله إلا هو لقد رأيت

الملائكة تقاتل معك على الخيول البلق بين السماء والأرض؛
فقال له المختار: اصعد على
المنبر فأعلم الناس، فصعد، فأخبرهم بذلك، ثم نزل فخل به
فقال له: إني قد علمت أنك لم
تر شيئاً، وإنما أردت ما قد عرفت، فأذهب" عني" حيث شئت، لا
تفسد علي أصحابي.
فخرج إلى البصرة، فنزل عند مصعب وقال:
ألا أبلغ أبا إسحاق أني رأيت الخيل بلقا مصمتات
كفرت بوحيكم وجعلت نذراً على قتالكم حتى الممات
أرى عيني ما لم تبصراه كلانا عالم بالترهات
وقتل يومئذ عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمذاني، وأدعى
قتلة سعر بن أبي سعر، وأبو
الزبير الشبامي، وشبام من همذان، وانجلت الوقعة عن
سبعمائة وثمانين قتيلاً من قومه،
وكانت الوقعة لست ليال بقين من ذي الحجة سنة ست وستين.
وخرج أشراف الناس فلحقوا بالبصرة، وتجرد المختار لقتل قتلة
الحسين، وقال: ما من ديننا
أن نترك قتلة الحسين أحياءً، بئس ناصر آل محمد أنا إذاً" في
الدنيا، أنا إذاً" الكذاب كما
سموني، وإني أستعين بالله تعالى عليهم، فسموهم لي ثم
تتبعوهم حتى تقتلوهم، فإني لا
يسوغ لي الطعام والشراب حتى أطهر الأرض منهم، فدل على
عبد الله بن أسيد الجهني،
ومالك بن النسير البدي وحمل بن مالك المحاربي، فبعث
المختار إليهم، فأحضرهم من
القادسية، فلما رآهم قال: يا أعداء الله ورسوله، أين الحسين
ابن علي؟ أدوا إلى الحسين.
قتلتم ابن من أمرتم بالصلاة عليهم. فقالوا رحمك الله، بعثنا
كارهين، فأمنن علينا
واستبقنا، فقال: هلا مننتم على ابن بنت نبيكم واستبقيتموه
وسقيتموه؟ فأمر بمالك ابن
النسير البدي فقطع يديه ورجليه وتركه يضطرب حتى مات،
وقتل الآخرين، وأحضر زياد
بن مالك الضبعي، وعمران بن مالك العنزي، وعبد الرحمن بن
أبي خشكارة البلجي،
وعبد الله بن قيس الخولاني، فلما رآهم قال: يا قتلة الصالحين،
وقتلة سيد شباب أهل
الجنة، قد أقاد الله منكم اليوم، لقد جاءكم الورس، بيوم نحس،
وكانوا نهبوا من الورس
الذي كان مع الحسين رضي الله عنه، ثم أمر بهم فقتلوا .
وقتل عبد الله وعبد الرحمن بن صلحت، وعبد الله بن وهيب
الهمداني، وأحضر عثمان

بن خالد بن أسيد الدهماني الجهني، وأبا أسماء بشر بن سوط القابضي، وكانا قد اشتركا
في قتل عبد الرحمن بن عقيل وفي سلبه، فضرب أعناقهما وأحرقا بالنار.
وأرسل إلى خولي بن يزيد الأصبحي وهو صاحب رأس الحسين فاختبأ في مخرجه، فدخل
أصحاب المختار يطلبونه، فخرجت امرأته، وهي العيوف بنت مالك، وكانت تعاديه منذ
جاءها برأس الحسين، فقالت : ما تريدون؟ فقالوا لها: أين زوجك؟ قالت: لا أدري،
وأشارت بيدها إلى المخرج، فدخلوا، فوجدوه وعلى رأسه قوصرة، فأخرجوه وقتلوه إلى
جانب أهله، وحرقوه بالنار.
وقتل عمر بن سعد بن أبي وقاص، وكان الذي تولى قتله أبو عمرة، وأحضر رأسه عند
المختار، وعنده ابنه حفص ابن عمر فقال له المختار: أتعرف هذا؟ قال: نعم، ولا خير في
العيش بعده، فأمر به فقتل، وقال: هذا بحسين، وهذا بعلي ابن حسين، ولا سواء، والله لو
قتلت به ثلاثة أرباع قريش ما وفوا أنملة من أنامله.
وأرسل المختار إلى حكيم بن طفيل الطائي- وكان أصاب صلب سلب العباس بن علي،
ورمى الحسين بسهم، وكان يقول: تعلق سهمي بسرباله وما ضره، فأتاه أصحاب المختار
فأخذوه، وذهب أهله فتشفعوا بعدي بن حاتم، فكلمهم عدي فيه، فقالوا: ذلك إلى المختار
يشفع فيه، وكان قد شفعه في نفر من قومه أصابهم يوم جبانة السبيع، فقالت الشيعة: إنا
نخاف أن يشفعه فيه، فقتلوه رميا بالسهام كما رمي الحسين حتى صار كالقنفذ، ودخل
عدي بن حاتم على المختار، فأجلسه معه، فشفع فيه، وقال: إنه مكذوب عليه، إذاً ندعه
لك، فدخل ابن كامل فأخبره المختار بقتله.
وبعث المختار إلى مرة بن منقذ، وهو قاتل علي بن الحسين، وكان شجاعاً، فأحاطوا
بداره، فخرج إليهم على فرسه وبيده رمحه، فطاعنهم، فضرب على يده، فهرب فنجا، ولحق
بمصعب بن الزبير، وشلت يده بعد ذلك.
وبعث المختار إلى زيد بن رقاد الجنبي، وهو قاتل عبد الله ابن مسلم بن عقيل، فخرج
إليهم بالسيف، فقال ابن كامل: لا تطعنوه" برمح"، ولا تضربوه بسيف، ولكن أرموه بالنبل

والحجارة، ففعلوا ذلك به، فسقط، فأحرقوه حياً.
وطلب المختار سنان بن أنس الذي كان يدعي قتل الحسين، فهرب إلى البصرة، فهدم داره.
وطلب عبد الله بن عقبة الغنوي فوجده قد هرب إلى الجزيرة، فهدم داره.
وطلب رجلاً من خثعم اسمه عبد الله بن عروة فهرب ولحق بمصعب، فهدم داره.
وطلب عمرو بن صبيح الصدائي، وكان يقول: لقد طعنت فيهم وجرحت وما قتلت،
فأحضره إلى المختار، فأمر به فطعن بالرماح حتى مات.
وأرسل إلى محمد بن الأشعث وهو في قرية إلى جنب القادسية، فهرب إلى مصعب فهدم
داره، وبني بلبنها وطينها دار حجر ابن عدي الكندي، وكان زياد قد هدمها.
وكان الذي هيج المختار على قتل قتلتة الحسين أن يزيد بن شراحيل الأنصاري أتى محمد
ابن الحنيفة فسلم عليه، وجرى الحديث إلى أن تذاكروا أمر المختار، فقال ابن الحنيفة: إنه
يزعم أن لنا شيعة، وقتلة الحسين عنده على الكراسي يحدثونه، فلما عاد يزيد أخبر المختار
بذلك، فقتل عمر بن سعد، وبعث برأسه ورأس ابنه إلى الحنيفة، وكتب إليه يعلمه أنه قتل
من قدر عليه، وأنه في طلب الباقين ممن حضر قتل الحسين،" رضي الله عنه".
بيعةالمثنى العبدي للمختار بالبصرة
وإخراجه منها ولحاقه بالمختار بالكوفة
وفي سنة ست وستين دعا المثنى بن مخربة العبدي بالبصرة لبيعة المختار، وكان قد بايع
المختار بعد مقتل سليمان بن صرد، فسيره المختار إلى البصرة يدعو بها إليه، ففعل، فأجابه
رجال من قومه وغيرهم.
ثم أتى مدينة الرزق فعسكر عندها، فوجه إليهم الحارث بن أبي ربيعة المعروف بالقباع،
وهو أمير البصرة، عباد بن حصين، وهو على شرطته، وقيس بن الهيثم في الشرط
والمقاتلة، فخرجوا إلى السبخة، ولزم الناس بيوتهم، فلم يخرج أحد، وأقبل عباد فيمن معه
فتواقف هو والمثنى وأنشبوا القتال، فأنهزم المثنى، وأتى قومه عبد القيس، وكف عنه
عباد، فأرسل القباع عسكراً إلى عبد القيس ليأتوه بالمثنى ومن معه، فلما رأى زياد بن

عمر العتكي ذلك أقبل إلى القباع فقال : لتردن خيلك عن إخواننا أو لنقاتلهم، فأرسل
القباع الأحنف بن قيس، وعبد الرحمن المخزومي ليصلحا بين الناس، فأصلح الأحنف
الأمر على أن يخرج المثنى وأصحابه عنهم، فأجابوه إلى ذلك وأخرجوهم عنهم، فسار
المثنى إلى الكوفة في نفر يسير من أصحابه.

ذكر مخادعة المختار ومكره بعبد الله بن الزبير وظهور ذلك له

قال: لما أخرج المختار ابن مطيع عامل ابن الزبير من الكوفة سار إلى البصرة وكره أن يأتي
ابن الزبير مهزوماً، فلما أستجمع للمختار أمر الكوفة، أخذ يخادع ابن الزبير، فكتب إليه:"
قد عرفت مناصحتي إياك، وجهدي على أهل عداوتك، وما كنت أعطيتني إن أنا فعلت
ذلك، فلما وفيت لك" وقضيت الذي كان لك على خسة بي ولم تف بما عاهدتني عليه"،
فإن ترد مراجعتي ومناصحتي، فعلت والسلام".

وإنما قصد المختار بذلك أن يكف ابن الزبير عنه ليتم أمره، ولم تعلم الشيعة بذلك، فأراد
ابن الزبير أن يعلم حقيقة ذلك، فدعا عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي
فولاه الكوفة، وقال: إن المختار سامع مطيع، فتجهز عمر وسار نحو الكوفة، وأتى الخبر
المختار، فدعا زائدة بن قدامة وأعطاه سبعين ألف درهم وقال له: هذه ضعف ما أنفق
عمر في طريقه إلينا، وأمره أن يأخذ معه خمسمائة فارس، ويسير حتى يلقاه بالطريق فيعطيه
النفقة ويأمره بالعودة ، فإن فعل وإلا فيريه الخيل، فأخذ زائدة المال والخيل وسار حتى لقي
عمر، فأعطاه المال، وأمره بالانصراف، فقال: إن أمير المؤمنين قد ولاني الكوفة، ولا بد من
إتيانها، فدعا زائدة الخيل، وكان قد أكمنها؛ فلما رآها عمر قد أقبلت أخذ المال وسار نحو
البصرة.

ثُم أن عبد الملك بن مروان بعث عبد الملك بن الحارث بن الحكم ابن أبي العاص إلى
وادي القرى، وكان المختار قد وادع ابن الزبير ليكف عنه ويتفرغ لأهل الشام، فكتب
المختار لأبن الزبير: بلغني أن ابن مروان قد بعث إليك جيشاً، فإن أحببت أمددتك بمدد.

فكتب إليه ابن الزبير:" إن كنت على طاعتي فبايع لي الناس قبلك، وعجل بإنفاذ الجيش
ومرهم فليسيروا إلي من بوادي القرى من جند ابن مروان فليقاتلوهم، والسلام".
فدعا المختار شرحبيل بن ورس الهمذاني، فسيره في ثلاثة آلاف أكثرهم من الموالي، وليس
فيهم إلا سبعمائة من العرب، وقال له: سر حتى تدخل المدينة، فإن دخلتها فاكتب إلي
بذلك حتى يأتيك أمري، وهو يريد إذا دخل الجيش المدينة أن يبعث عليهم أميراً لمحاصرة
ابن الزبير بمكة، وخشي ابن الزبير أن المختار إنما يكيده، فبعث من مكة" إلى
المدينة"عباس بن سهل بن سعد في ألفين، وأمره أن يستنفر العرب، وقال له: إن رأيت القوم في
طاعتي وإلا فكايدهم حتى تهلكهم، فأقبل عباس حتى لقي ابن ورس بالرقيم وقد عبأ
أصحابه، وأتى عباس وقد تقطع أصحابه، فرأى ابن ورس على الماء في تعبئته فدنا وسلم
عليهم، ثم قال لأبن ورس سراً: ألستم في طاعة ابن الزبير؟ قال: بلى. وقال: فسر بنا إلى
عدوه الذي بوادي القرى، فقال: إنما أمرت أن أتي المدينة وأكتب إلى صاحبي، فيأمره بأمره،
فقال عباس: رأيك أفضل، وفطن لما يريد، وقال أما أنا فسائر إلى وادي القرى، ونزل عباس
أيضاً، وبعث إلى ابن ورس بجزائر وغنم، وكانوا قد ماتوا جوعاً، فذبحوا واشتغلوا بها،
واختلطوا على الماء، وجمع عباس من شجعان أصحابه نحو ألف رجل، وأقبل إلى
فسطاط ابن ورس، فلما رآهم نادى في أصحابه، فلم يجتمع إليه مائة رجل، حتى انتهى
إليهم عباس، فاقتتلوا يسيراً، فقتل ابن ورس في سبعين من أهل الحفاظ.
ورفع عباس راية أمان، فأتوها إلا نحو ثلاثمائة مع سليمان بن حمير الهمداني، وعباس بن
جعدة الجدلي، فظفر عباس بن سهل منهم بنحو من مائتين فقتلهم، وأفلت الباقون فرجعوا
ومات أكثرهم في الطريق.
وكتب المختار إلى بن حنيفة:" إني أرسلت إليك جيشاً ليذلوا لك الأعداء، ويحرزوا لك
البلاد، فلما قاربوا طيبة فعل بهم كذا وكذا، فإن رأيت أن أبعث إلى المدينة جيشاً كثيفاً
وتبعث إليهم من قبلك رجلاً فافعل".

فكتب إليه ابن الحنفية:" أما بعد، فقد قرأت كتابك، وعرفت تعظيمك لحقي، وما تؤثره
من سروري؛ وإن أحب الأمور كلها إلي ما أطيع الله فيه، فأطع الله ما استطعت، وإني لو
أردت القتال لوجدت الناس إلي سراعاً، والأعوان لي كثيرة، ولكني أعتز لهم وأصبر حتى
يحكم الله" لي" وهو خير الحاكمين".
ذكر امتناع محمد ابن الحنفية من مبايعة عبد الله بن الزبير وما كان من أمره وإرسال المختار الجيش إلى مكة وخبر ابن الحنفية
قال: ثم أن عبد الله بن الزبير دعا محمد بن الحنفية ومن معه من أهل بيته، وسبعة عشر
رجلاً من وجوه أهل الكوفة منهم أبو الطفيل عامر بن وائلة له صحبة، ليبايعوه فامتنعوا
وقالوا: لا نبايع حتى تجتمع الأمة، فأكثر الوقيعة في ابن الحنفية وذمه، فأغلظ له عبد الله بن
هانئ الكندي، وقال: لئن لم يضرك إلا تركنا بيعتك لا يضرك شيء، فلم يراجعه ابن الزبير،
فلما استولى المختار على الكوفة وصارت الشيعة تدعي لأبن الحنفية، ألح ابن الزبير عليه
وعلى أصحابه في البيعة حتى حبسهم بزمزم، وتوعدهم بالقتل والإحراق إن لم يبايعوا،
وضرب لهم في ذلك أجلاً.
فكتب ابن الحنفية إلى المختار يعرفه الحال، ويطلب النجدة.
فقرأ المختار كتابه على أهل الكوفة، وقال: هذا مهديكم وصريح أهل بيت نبيكم قد تركوا
محظوراً عليهم كما يحظر على الغنم ينتظرون القتل والتحريق في الليل والنهار،لست أبا
إسحاق إن لم أنصرهم نصراً مؤزراً، وإن لم أسر بالخيل في أثر الخيل، كالسيل يتلوه السيل،
حتى يحل بابن الكاهلية الويل، يريد عبد الله بن الزبير.
فبكى الناس وقالوا: سرحنا إليه وعجل، فوجه أبا عبد الله الجدلي في سبعين من أهل
القوة، ووجه ظبيان بن عمارة أخا بني تميم في أربعمائة، وبعث معه أربعمائة ألف درهم
لأبن الحنفية، ووجه أبن المعتمر في مائة، وهانئ بن قيس في مائة، وعمير بن طارق في
أربعين،و يونس بن عمران في أربعين،فوصل أبو عبد الله الجدلي إلى ذات عرق، فأقام بها
حتى أتاه عمير ويونس في ثمانين، فبلغوا مائة وخمسين راكباً، فساروا حتى دخلوا المسجد

الحرام وهم ينادون: يالثارات الحسين، حتى انتهوا إلى زمزم، فكسروا الباب ودخلوا على
ابن الحنفية، فقالوا: خل بيننا وبين عدو الله ابن الزبير، فقال إني لا أستحل القتال في الحرم.
فقال ابن الزبير: واعجباه لهذه الخشبية ينعون حسيناً كأني أنا قتلته، والله لو قدرت على
قتلهم لقتلتهم، وإنما سماهم ابن الزبير الخشبية لأنهم دخلوا مكة وبأيديهم الخشب كراهة
إشهار السلاح في الحرم، وقال: أتحسبون أني أخلي سبيلهم، دون أن نبايع ويبايعوا.
فقال: الجدلي: ورب الركن والمقام لتخلين سبيلنا أو لنجالدنك بأسيافنا جلاداً يرتاب منه
المبطلون، فكفهم ابن الحنفية وحذرهم الفتنة.
ثم قدم باقي الجند ومعهم المال، فدخلوا المسجد الحرام فكبروا، وقالوا: يالثارات الحسين،
فخافهم ابن الزبير، وخرج ابن الحنفية ومعه أربعة آلاف رجل إلى شعب علي، فعزوا
وامتنعوا، فقسم فيهم المال، فلما قتل المختار ضعفوا واحتاجوا، ثم استوثق البلاد لأبن
الزبير بعد قتل المختار، فبعث إلى أبن الحنفية أن أدخل في بيعتي، وإلا نابذتك.
وبلغ الخبر عبد الملك بن مروان، فكتب إلى ابن الحنفية: أنه إن قدم عليه أحسن إليه، وإنه
ينزل أي الشام أحب حتى يستقيم أمر الناس.
فخرج ابن الحنفية ومن معه إلى الشام، فلما وصل إلى مدين بلغه غدر عبد الملك بعمرو
بن سعيد، فندم على إتيانه إلى الشام ونزل أيلة، وتحدث الناس بفضل ابن الحنفية، وكثرة
عبادته وزهده، فندم عبد الملك على إذنه في القدوم إلى بلده، فكتب إليه:" إنه لا يكون في
سلطاني من لا يبايعني".
فارتحل إلى مكة، ونزل شعب أبي طالب، فأرسل إليه ابن الزبير يأمره بالرحيل عنه، فسار
إلى الطائف وألتحق به عبد الله بن عباس، ومات بن عباس بالطائف، حتى قدم الحجاج
لحصار ابن الزبير، فعاد إلى الشعب، فطلبه الحجاج ليبايع عبد الملك، فامتنع حتى يجتمع
الناس، ثم بايع بعد قتل ابن الزبير. هذا ما كان من أمره، فلنعد إلى أخبار المختار،" والله
أعلم".

ذكر مسيرة إبراهيم بن الأشتر لحرب عبيد الله بن زياد

وقتل ابن زياد
وفي سنة ست وستين لثمان بقين من ذي الحجة، سار إبراهيم بن الأشتر لقتال عبيد الله
بن زياد، وذلك بعد فراغه من وقعة السبيع بيومين، وأخرج المختار معه فرسان أصحابه
ووجوههم وأهل البصائر منهم، وشيعه ووصاه، وخرج معه لتشيعه أصحاب الكرسي
بكرسيهم، وهم يدعون الله له بالنصر، وسنذكر خبر الكرسي إن شاء الله تعالى.
قال: ولما انتهى إبراهيم إلى أصحاب الكرسي وهم عكوف عليه،" وقد" رفعوا أيديهم إلى
السماء يدعون الله، فقال إبراهيم: اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا، هذه سنة بني
إسرائيل، وسار إبراهيم مجداً ليلقى ابن زياد قبل أن يدخل أرض العراق، وكان ابن زياد قد
سار في عسكر عظيم وملك الموصل كما ذكرنا، فلما انتهى إبراهيم إلى نهر الخازر من
أرض الموصل نزل بقرية باربيثا، وأقبل عبيد الله بن زياد حتى نزل قريباً منهم على شاطئ
خازر، وأرسل عمير بن الحباب السلمي إلى ابن الأشتر أن القني؛ وكانت قيس كلها
مضطغنة على بني مروان بسبب وقعة مرج راهط، وجند عبد الملك يومئذ كلب، واجتمع
عمير وابن الأشتر فأخبره عمير أنه على ميسرة بن زياد، وواعده أن ينهزم بالناس، وأشار
عليه بمناجزة القوم، وعاد عمير إلى أصحابه، وصلى بهم صلاة الفجر بغلس، ثم صفهم
وسار بهم رويداً حتى أشرف على تل عظيم مشرف على القوم، فإذا هم لم يتحرك منهم
أحد،فتقدم ابن الأشتر وهو يحرض أصحابه على القتال، يذكرهم بمقتل الحسين وسبي أهل
بيته، فلما تدانى الصفان حمل الحصين بن نمير بميمنة أهل الشام على ميسرة ابن الأشتر،
وعليها علي بن مالك الجشمي، فقتل بن مالك، فأخذ الراية ابنه قرة بن علي وقاتل بها فقتل
في رجالٍ من أهل البأس، وانهزمت ميسرة إبراهيم، فأخذ الراية عبدً الله بن ورقاء بن
جنادة السلولي، ورد المنهزمين، وقاتلوا، وحملت ميمنة إبراهيم وعليها سفيان بن يزيد
الأزدي على ميسرة بن زياد، وهم يظنون أن عمير بن الحباب ينهزم لهم كما زعم، فقاتلهم

أشد قتال، وأنفت نفسه الهزيمة، فلما رأى إبراهيم ذلك قال لأصحابه: اقصدوا أهل السواد
الأعظم، فوالله لئن هزمناه لنجعلن من ترون يمنة ويسرة، فتقدم أصحابه وقاتلوا أشد قتال،
وصدقهم إبراهيم القتال، فأنهزم أصحاب بن زياد، وبعد أن قتل من الفريقين قتلى كثيرةً.
وقيل:إن عمير بن الحباب أول من أنهزم، وإنما كان قتاله أولاً تعذيراً.
فلما انهزموا قال إبراهيم بن الأشتر: إني قتلت رجلاً تحت رايةٍ منفردةٍ على شط نهر
خازر، فالتمسوه فإني شممت منه رائحة المسك، شرقت يداه وغربت رجلاه، فالتمسوه،
فإذا هو عبيد الله بن زياد، فأخذ رأسه وحرقت جثته.
وأقام إبراهيم بالموصل، وأنفذ رأس عبيد الله إلى المختار، ورءوس القواد، وكانت هذه
الوقعة في سنة سبعٍ وستين.
وروى الترمذي رحمه الله قال: لما جاءت الرءوس إلى المختار ألقيت في القصر فجاءت
حية دقيقة فتخللت الرءوس حتى دخلت فم عبيد الله وخرجت من منخره ودخلت في
منخره وخرجت من فمه، فعلت ذلك مراراً.
ذكر ولاية مصعب بن الزبير البصرة
ومسيره إلى الكوفة وقتاله المختار وقتل المختار بن أبي عبيد
كانت ولايته البصرة وعزل الحارث بن أبي ربيعة الملقب بالقباع عنها في أول سنة سبع
وستين، قال: فقدمها مصعب، وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: بسم الله
الرحمن الرحيم."طسم. تلك آيات الكتاب المبين. نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون
بالحق لقوم يؤمنون. إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم
يذبح آبائها ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين."، وأشار بيده نحو الشام،" ونريد أن
نمنن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم في
الأرض"، وأشار نحو الحجاز،" ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون"،
وأشار نحو الشام، وقال: يا أهل البصرة، بلغني أنكم تلقبون أميركم، وقد لقبت نفسي
الجزار.
قال: ولما هرب أشراف الكوفة من المختار يوم وقعة السبيع، أتى منهم جماعة إلى مصعب،

فكان منهم شبث بن ربيعى، أتاه على بغلة قد قطع ذنبها وطرف أذنها، وشق قباءه وهو
ينادي: واغوثاه! وأتاه أشراف الكوفة فدخلوا عليه وسألوه المسير إلى المختار ونصرتهم،
وقدم محمد بن الأشعث، واستحثه على المسير فأدناه وأكرمه، وكتب إلى المهلب بن أبي
صفرة، وهو عامله على فارس يستدعيه ليشهد معهم قتال المختار، فقدم في جموع كثيرة
وأموال عظيمة، فبرز مصعب بالجيوش، وأرسل عبد الرحمن بن مخنف إلى الكوفة، وأمره
أن يخرج إليه من قدر عليه، ويثبط الناس عن المختار، ويدعوهم إلى بيعة بن الزبير سراً،
فسار ودخل الكوفة مستتراً، وفعل ما أمر به، وسار وقدم أمامه عباد بن الحصين الحبطي
التميمي، وجعل عبيد الله بن معمر على ميمنته، والمهلب على ميسرته، ومالك بن مسمع
على بكر، ومالك بن المنذر على عبد القيس، والأحنف بن قيس على تميم، وزياد بن
عمرو العتكي على الأزد، وقيس بن الهيثم على أهل العالية، وبلغ الخبر المختار فقام في
أصحابه فندبهم إلى الخروج مع الأحمر بن شميط، ودعا رءوس الأرباع الذين كانوا مع ابن
الأشتر فبعثهم مع ابن شميط، فسار وعلى مقدمته ابن كامل الشاكري، فوصلوا إلى المذار،
وأقبل مصعب فعسكر بالقرب منه، وعبأ كل واحد منهما جنده، فتقدم عباد بن الحصين
إلى أحمر وأصحابه، وقال: إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله، وإلى بيعة أمير المؤمنين
عبد الله بن الزبير، فقال الآخرون: إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله وإلى بيعة
المختار، وأن نجعل هذا الأمر شورى في آل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرجع عباد
وأخبر مصعباً، فقال: ارجع فأحمل عليهم، فرجع وحمل على ابن شميط وأصحابه، وحمل
المهلب على ابن كامل حملة بعد أخرى، فهزمهم، وثبت ابن كامل ساعةً في رجال من
همدان، ثم انصرف، وحمل الناس جميعاً على ابن شميط، فقاتل حتى قتل، وانهزم أصحابه،
وبعث مصعب عباداً على الخيل ، وقال له: أيما أسير أخذته فأضرب عنقه، وسرح محمد
بن الأشعث في خيل عظيمة من أهل الكوفة، وقال: دونكم ثأركم فكانوا" حيث انهزموا"

أشد على المنهزمين من أهل البصرة، فلم يدركوا منهزماً إلا قتلوه، فلم ينج من ذلك الجيش
إلا طائفة من أصحاب الخيل.
ثم أقبل مصعب حتى قطع من تلقاء واسط،" القصب"، ولم تكن" واسط" قد بنيت
بعد،فأخذ في كسكر، ثم حمل الرجال أثقالهم والضعفاء في السفن، فأخذوا في نهر خرشاذ،
ثم خرجوا إلى نهر قوسان، ثم خرجوا إلى نهر الفرات، وأتى المختار خبر الهزيمة والقتلى،
فقال: ما من الموت بد، وما من ميتة أموتها أحب إلي من أن أموت مثل ابن شميط.
ولما بلغه أن مصعب قد أقبل إليه في البر والبحر سار حتى نزل السيلحين، ونظر إلى مجتمع
الأنهار، نهر الخريدة، ونهر السيلحين، ونهر القاددسية، ونهر يوسف، فسكر الفرات، فذهب
ماؤها في هذه الأنهار، وبقيت سفن أهل البصرة في الطين، فخرجوا من السفن إلى ذلك
السكر فأصلحوه، وقصدوا الكوفة، وسار المختار فنزل حوراء، وحال بينهم وبين الكوفة
بعد أن حصن القصر والمسجد، وأقبل مصعب وجعل على ميمنه المهلب، وعلى ميسرته
عمر بن عبيد الله، وعلى الخيل عباد بن الحصين، وجعل المختار على ميمنته سليم بن
يزيد الكندي، وعلى ميسرته سعيد بن منقذ الهمداني، وعلى الخيل عمر بن عبد الله
النهدي، وعلى الرجال مالك بن عبد الله النهدي، وأقبل محمد بن الأشعث فيمن كان قد
هرب من أهل الكوفة، فنزل بين مصعب والمختار، فلما رأى المختار ذلك بعث إلى كل
خمس من أهل البصرة رجلاً من أصحابه، وتدانى الناس، فحمل سعيد بن المنقذ على بكر
وعبد القيس وهم في ميمنة مصعب، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وبعث المختار إلى عبد الله بن
جعدة بن هبير المخزومي، فحمل على من بازائه وهم أهل العالية، فكشفهم" فانتهوا إلى
مصعب فجثا مصعب على ركبتيه ونزل الناس عنده فقاتلوا ساعة وتحاجزوا ثم حمل
المهلب على من بازائه فكشفهم" واشتد القتال، فقتل ابن الأشعث وذلك عند المساء، قاتل
المختار على فم سكة شبث عامة ليلته، وقاتل معه رجالٌ من أهل البأس، وقاتلت معه

همدان أشد قتال، ثم تفرق الناس عن المختار، فقال له من معه: أيها الأمير، اذهب إلى
القصر، فجاء حتى دخله، فقال له بعض أصحابه: ألم تكن وعدتنا الظفر، وأنا سنهزمهم؛
فقال: أما قرأت في كتاب الله:" يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب".
قال: فلما أصبح مصعب أقبل يسير فيمن معه نحو السبخة، فمر بالمهلب، فقال المهلب، ياله
فتحاً ما أهناه لو لم يقتل محمد بن الأشعث، فقال: صدقت؛ ثم قال مصعب للمهلب: إن
عبيد الله بن علي بن أبي طالب قد قتل، فاسترجع المهلب، فقال مصعب: إنما قتله من
يزعم أنه شيعة لأبيه، ثم نزل مصعب السبخة فقطع عن المختار ومن معه الماء والميرة،
وقاتل المختار ومن معه قتالاً ضعيفاً، واجترأ الناس عليهم، فكانوا إذا خرجوا رماهم
الناس من فوق البيوت، وصبوا عليهم الماء القذر، وكان أكثر معاشهم من النساء تأتي
المرأة متخفية ومعها القليل من الطعام والشراب، ففطن مصعب لذلك، فمنع النساء، فاشتد
على المختار وأصحابه العطش، فكانوا يشربون ماء البئر بالعسل، ثم أمر مصعب أصحابه
فاقتربوا من القصر، واشتد الحصار، فقال المختار لأصحابه: ويلكم، إن الحصار لا يزيدكم
إلا ضعفا، فانزلوا بنا نقاتل حتى نقتل كراماً إن نحن قتلنا، واله ما أنا يائس إن صدقتموهم
أن ينصركم الله، فضعفوا ولم يفعلوا، فقال لهم: أما أنا فوالله لا أعطي بيدي ولا أحكمهم في
نفسي، ثم تطيب وتحنط وخرج من القصر في تسعة عشر رجلاً منهم السائب بن مالك
الأشعري، فتقدم المختار فقاتل حتى قتل، قتله رجلان أخوان من بني حنيفة، وهما طرفة
وطراف ابنا عبد الله بن دجاجة، فلما كان الغد من مقتله، دعا بجير بن عبد الله المسلي
من معه بالقصر إلى ما دعاهم المختار، فأبوا عليه، وأمكنوا أصحاب مصعب من أنفسهم،
ونزلوا على حكمه، فأخرجوا مكتفين، فاستعطفوه، فأراد أن يطلقهم، فقام عبد الرحمن ابن
محمد بن الأشعث فقال: أتخلي سبيلهم ؟ اخترنا أو اخترهم.
وقال محمد بن عبد الرحمن
بن سعيد الهمداني مثله، وقال أشراف الكوفة مثلهما، فأمر بقتلهم، فقالوا: يا ابني الزبير، لا

تقتلنا واجعلنا على مقدمتك إلى أهل الشام غداً، فما بكم عنا غداً غنى؛ فإن قتلنا لم نقتل
حتى نضعفهم لكم، وإن ظفرنا بهم كان ذلك لكم، فأبى عليهم وقتلهم برأي أهل الكوفة،
وأمر مصعب بكف المختار فقطعت وسمرت إلى جانب المسجد فبقيت حتى قدم الحجاج
فأمر بنزعها.
وكتب مصعب إلى إبراهيم بن الأشتر يدعوه إلى طاعته، ويقول: إن أطعتني فلك الشام
وأعنه الخيل وما غلبت عليه من أرض المغرب ما دام لآل الزبير سلطان.
وكتب عبد الملك بن مروان إلى ابن الأشتر أيضاً يدعوه إلى طاعته ويقول: إن أنت أجبتني
فلك العراق.
فاستشار إبراهيم أصاحبه في ذلك، فاختلفوا، فقال: لو لم أكن أصبت ابن زياد وغيره من
أشراف الشام لأجبت عبد الملك، مع أني لا أختار على أهل مصرى وعشيرتي غيرهم،
فدخل في طاعة مصعب، وبلغ مصعبا إقباله إليه، فبعث المهلب على عمله بالموصل
والجزيرة وإرمينية وأذربيجان.
قال: ثم دعا مصعب بن الزبير أم ثابت بنت سمرة بن جندب امرأة المختار، وعمرة بنت
النعمان بن بشير الأنصاري امرأته الأخرى، وسألهما عنه، فقالت أم ثابت: أقول فيه بقولك
أنت فيه، فأطلقها؛ وقالت عمرة: رحمة الله عليه، كان عبداً صالحا.
فكتب إلى أخيه عبد الله: إنها تزعم أنه نبي، فأمره بقتلها، فقتلت ليلا بين الحيرة والكوفة،
فقال عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

إن من أعجب العجائب عندي قتل بيضاء حرة عطبول
قتلت هكذا على غير جرم إن لله درها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا وعلى المحصنات جر الذيول

وقيل: إن المختار إنما أظهر الخلاف على ابن الزبير عند قدوم مصعب البصرة، وإن
مصعباً لما سار إليه فبلغه مسيره أرسل إليه أحمر بن شميط، وأمره أن يواقعه بالمذار،
وقال: إن الفتح بالمذار، لأنه بلغه أن رجلاً من ثقيف يفتح عليه بالمذار فتح عظيم، فظن أن
هو، وإنما كان الحجاج في فتال عبد الرحمن ابن الأشعث، وأمر مصعب عبادا الحبطي

بالمسير إلى جمع المختار، فتقدم وتقدم معه عبيد الله بن علي بن أبي طالب، وبقي مصعب
على نهر البصريين، على شط الفرات، وخرج المختار في عشرين ألفا، وزحف مصعب ومن
معه فوافوه مع الليل، فقال المختار لأصحابه: لا يبرحن أحد منكم حتى يسمع منادياً
ينادي: يا محمد، فإذا سمعتموه فاحملوا، فلما طلع القمر أمر منادياً فنادى: يا محمد؛ فحملوا
على أصحاب مصعب فهزموهم وأدخلوهم عسكرهم، فلم يزالوا يقاتلونهم حتى أصبحوا،
وأصبح المختار وليس عنده أحد، وقد أوغل أصحابه في أصحاب مصعب، فانصرف
المختار منهزماً حتى دخل قصر الكوفة، وجاء أصحابه حين أصبحوا، فوقفوا ملياً، فلم
يروا المختار، فقالوا: قد قتل، فهرب منهم من أطاق الهرب، فاختفوا بدور الكوفة، وتوجه
منهم نحو القصر ثمانية آلاف، فوجدوا المختار في القصر، فدخلوا معه وكانوا قد قتلوا تلك
الليلة من أصحاب مصعب خلقاً كثيراً، منهم محمد بن الأشعث.
وأقبل مصعب فأحاط بالقصر، وحاصرهم أربعة أشهر يخرج المختار كل يوم فيقاتلهم في
سوق الكوفة، فلما قتل المختار بعث من في القصر يطلبون الأمان، فأبى مصعب، فنزلوا على
حكمه، فقتل من العرب سبعمائة أو نحو ذلك، وسائرهم من العجم، فكان عدة القتلى ستة
آلاف رجل، وقيل: سبعة آلاف، وذلك في سنة سبع وستين، وكان عمر المختار يوم قتل
سبعا وستين سنة، وكان تارة يدعو لمحمد ابن الحنفية، وتارة لعبد الله بن الزبير.
وحكى عبد الملك بن عبدون في كتابه المترجم كمامة الزهر وصدفة الدرر، أن المختار
ادعى النبوة وقال: إنه يأتيه الوحي من السماء، وأظهر ذلك في آخر أمره، وكان له كرسي
يستنصر به.
خبر كرسي المختار الذي كان يستنصر به
ويزعم أنه في كتاب بني إسرائيل
قال الطفيل بن دعدة بن هبيرة: أضقت إضاقة شديدة، فخرجت يوماً فإذا جار لي زيات
وعنده كرسي قد ركبه الوسخ، فقلت في نفسي: لو قلت للمختار في هذا شيئاً، فأخذته من
الزيات وغسلته، فخرج عود نضار قد شرب الدهن وهو أبيض، فقلت للمختار: إني كنا

أكتمك شيئا، وقد بدا لي أن أذكره لك، إن أبى جعدة كان يجلس عندنا على كرسي، ويرى
أن فيه أثراً من علم. قال: سبحان الله، أخرته إلى هذا الوقت ! ابعث به إلي، فأحضرته
وقد غشيته، فأمر لي اثنى عشر ألفا، ثم أمر فنودي: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فقال:
إنه لم يكن في الأمم الخالية أمر إلا وهو كائن في هذه الأمة مثله، وإنه كان لبني إسرائيل
التابوت، وإن هذا فينا مثله، فكشفوا عنه وقامت السبائية فكبروا، ثم لم يلبث أن أرسل
المختار الجيش لقتال ابن زياد، وخرج بالكرسي على بغل وقد غشى، فكان من هزيمة أهل
الشام وقتل أشرافهم ما ذكرناه، فزادهم ذلك فتنة حتى تعاطوا الكفر.
قال الطفيل: فندمت على ما صنعت، فتكلم الناس في ذلك، فغيبه المختار.
وقيل: إن المختار قال لآل جعدة بن هبيرة - وكانت أم جعدة هي أم هاني بنت أبي طالب
أخت على رضي الله عنه لأبويه - ائتوني بكرسي علي، فقالوا: والله ما هو عندنا، فقال:
لا تكونوا حمقى، اذهبوا فائتوني به، فظنوا أنهم لا يأتونه بكرسي إلا قال: هذا هو، فأتوه
بكرسي، فأخذه وخرجت شبام وشاكر وفودا، يعني أصحاب المختار، وقد جعلوا عليه
الحرير، وكان أول من سدنه موسى ابن أبي موسى الأشعري، فعتب الناس عليه، فتركه
فسدنه حوشب البرسمي حتى هلك المختار.
وقال أعشى همدان فيه:

شهدت عليكم أنكم سبئية وإني بكم يا شرطة الشرك عارف
فأقسم ما كرسيكم بسكينة وإن كان قد لقت عليه اللفائف
وأن ليس كالتابوت فينا وإن سعت شبام حواليه ونهد وخارف
وإني أمرؤ أحببت آل محمد وتابعت وحيا ضمنته المصاحف
وبايعت عبد الله لما تتابعت عليه قريش شمطها والغطارف

وقال المتوكل الليثي:

أبلغ أبا إسحاق إن جئته أنى بكرسيكم كافر
تنزو شبام حول أعواده ويحمل الوحي له شاكر
محمرة أعينهم حوله كأنهن الحامض الحازر

انتهت أخبار المختار بن أبي عبيدة، فلنذكر أخبار نجدة الحنفي، والله ولي التوفيق.

أخبار نجدة

بن عامر الحنفي حين وثب باليمامة وما كان من أمره

كان نجدة بن عامر بن عبد الله بن سيار بن مفرج الحنفي مع نافع بن الأزرق، ففارقه
وسار إلى اليمامة، وكان أبو طالوت وهو من بني بكر بن وائل، وأبو فديك عبد الله بن ثور
بن قيس ابن ثعلبة، وعجية بن الأسود اليشكري، قد وثبوا بها مع أبي طالوت، فلما قدمها
نجدة دعا أبا طالوت إلى نفسه، فأجابه بعد امتناع، ومضى أبو طالوت إلى الخضارم،
فنهبها، وكانت لبني حنيفة، فأخذها منهم معاوية بن أبي سفيان، فجعل فيها من الرقيق ما
عدتهم وعدة أبنائهم ونسابهم أربعة آلاف، فغنم ذلك وقسمه بين أصحابه، وذلك في سنة
خمس وستين، ثم إن عيراً خرجت من البحرين - وقيل من البصرة - تحمل مالاً وغيره يراد
بها عبد الله بن الزبير، فاعترضها نجدة، فأخذها وساقها حتى أتى بها أبا طالوت
بالخضارم، فقسمها بين أصحابه، وقال: اقتسموا هذا المال - وردوا هذه العبيد،
واجعلوهم يعملون بالأرض لكم، فإن ذلك أنفع، فاقتسموا المال، وقالوا: نجدة خير لنا من
أبي طالوت، وذلك في سنة ست وستين.
ولما تمت بيعته بينهم سار في جمع إلى بني كعب بن ربيعة ابن عامر بن صعصعة، فلقيهم
بذى المجاز فهزمهم وقتل فيهم قتلاً ذريعاً، ثم كثرت جموعه حتى بلغت ثلاثة آلاف، فسار
إلى البحرين في سنة سبع وستين، فقالت الأزد: نجدة أحب إلينا من ولاتنا لأنه ينكر الجور،
وولاتنا تجور؛ فعزموا على مسالمته، واجتمعت عبد القيس، وقتل منهم جمع كثير، وسبى
نجدة من قدر عبيه من أهل القطيف، وأقام بالبحرين.
فلما قدم مصعب إلى البصرة في سنة تسع وستين بعث إليه عبد الله بن عمير الليثي
الأعور في أربعة عشر ألفاً، وقيل: في عشرين ألفاً، فجعل يقول: اثبت نجدة فإنا لا نفر، فقدم
ونجدة بالقطيف، فأتى نجدة إلى ابن عمير وهو غافل فقاتل طويلاً، ثم افترقوا، وأصبح ابن
عمير فهاله ما رأى في عسكره من القتلى والجرحى، فحمل عليهم نجدة، فلم يثبتوا،
وانهزموا، وغنم نجدة ما في عسكرهم.
وبعث نجدة بعد هزيمة ابن عمير جيشاً إلى عمان، واستعمل عليهم عطية بن الأسود

الحنفي، وقد غلب عليها عباد بن عبد الله وابناه سعيد وسليمان، فقاتلوه، فقتل عباد
واستولى عظية عليها، فأقام بها أشهراً، ثم خرج عنها، واستخلف رجلاً يكنى أبا القاسم،
فقتله سعيد وسليمان ابنا عباد، فعاد إلى عمان فلم يقدر عليها، فركب في البحر وأتى
كرمان، وضرب بها دراهم سماها العطوية، فأرسل إليه المهلب جيشاً، فهرب إلى
سجستان، ثم أتى السند، فقتلته خيل المهلب بقندابيل.
وبعث نجدة إلى البوادي من يأخذ صدقة أهلها، ثم سار نجدة إلى صنعاء في خف من
الجيش، فبايعه أهلها، وبعث أبا فديك إلى حضرموت فجبى صدقات أهلها، وحج نجدة
سنة ثمان وستين، وقيل في سنة تسع، وهو في ثمانمائة وستين رجلا، وقيل في ألفين وستمائة
رجل، فصالح ابن الزبير على أن يصلي كل واحد بأصحابه، ويقف بهم، ويكف بعضهم عن
بعض، فلما صدر نجدة عن الحج سار إلى المدينة، فتأهب أهلها لقتاله، وتقلد عبد الله ابن
عمر سيفاً، فلما أخبر نجدة أن ابن عمر لبس السلاح رجع إلى الطائف، فلما قرب منها أتاه
عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي، فبايعه على قومه، فرجع نجدة إلى البحرين، فقطع الميرة
عن أهل الحرمين، فكتب إليه ابن عباس: إن ثمامة بن أثال لما أسلم قطع الميرة عن أهل
مكة وهم كفار، فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أهل مكة أهل الله، فلا
تمنعهم الميرة، فخلاها لهم، وإنك قطعت الميرة عنا ونحن مسلمون، فخلاها لهم نجدة، لم تزل
عمال نجدة على النواحي حتى اختلف عليه أصحابه، على ما نذكره. والله أعلم.

ذكر الخلاف على نجدة وقتله وتولية أبي فديك

قال: ثم إن أصحاب نجدة اختلفوا عليه لأسباب نقموها منه، فخالف عليه عطية بن
الأسود، وسبب ذلك أن نجدة بعث سرية براً وبحرا، فأعطى سرية البر أكثر من سرية
البحر، فنازعه عطية حتى أغضبه، فشتمه نجدة، فغضب عطية وفارقه، وألب الناس
عليه، فخالفوه وانحازوا عنه، وولوا أمرهم أبا فديك عبد الله بن ثور، من بني قيس بن
ثعلبة، فاستخفى نجدة، وقيل لأبي فديك: إن لم تقتله تفرق الناس عنك، فألح في طلبه حتى

ظفر به أصحابه، فقتلوه، فلما قتل نجدة سخط قتله جماعة من أصحاب أبي فديك، ففارقوه
وثار به مسلم بن جبير فضربه اثنتي عشرة ضربة بسكين، فقتل مسلم، وحمل أبو فديك إلى
منزله.
هذا ما كان من أمر الخوارج الذين خرجوا على عبد الله بن الزبير في أيام خلافته، فلنذكر
خلاف ذلك مما وقع في أيامه بالأعمال الداخلة في ولايته.
الحوادث أيام عبد الله بن الزبير
خلاف ما ذكرناه في الأعمال الداخلة في ولايته على حكم السنين
سنة أربع وستين
قد ذكرنا بعض حوادث هذه السنة في أخبار يزيد، فلنذكر من حوادثها خلاف ذلك:
فيها حج عبد الله بن الزبير بالناس، وكان عامله على المدينة أخوه عبيدة بن الزبير، وعلى
الكوفة عبد الله بن يزيد الخطمي، وعلى قضائها سعيد بن نمران، وأبي شريح أن يقضي في
الفتنة، وعلى البصرة عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي، وعلى قضائها هشام بن هبيرة،
وعلى خراسان عبد الله بن خازم.
سنة خمس وستين
في هذه السنة عزل عبد الله بن الزبير أخاه عبيدة عن المدينة، واستعمل أخاه مصعباً؛
وسبب ذلك أن عبيدة خطب الناس فقال: قد ترون ما صنع الله بقوم في ناقة قيمتها
خمسمائة درهم، فسمى: مقوم الناقة، فبلغ ذلك أخاه فعزله، واستعمل مصعباً،
بناء ابن الزبير الكعبة
كان عبد الله بن الزبير لما احترقت الكعبة - حين غزاه أهل الشام في أيام يزيد بن معاوية،
قد تركها ليشنع بذلك على أهل الشام وقد اختلف في سبب حرق الكعبة، فقيل: إن ابن
الزبير لما حاصره أهل الشام قد وصلوا إليه، وكانت الليلة ظلماء ذات ريح صعبة ورعد
وبرق، فرفع ناراً على رأس رمح لينظر إلى الناس، فأطارتها الريح، فوقعت على أستار
الكعبة فأحرقتها، وجهد الناس في إطفائها فلم يقدروا، فأصبحت الكعبة تتهافت، وماتت
امرأة من قريش، فخرج الناس كلهم مع جنازتها خوفاً من أن ينزل عليهم العذاب؛ وأصبح

ابن الزبير ساجداً يدعو ويقول: اللهم إني لم أعتمد ما جرى، فلا تهلك عبادك بذنبي، وهذه
ناصيتي بين يديك. فلما تعالى النهار أمن وتراجع الناس. حكاه أبو الفرج الأصفهاني بسند
رفعه إلى أبي بكر الهذلي، وقيل في حرقها غير ذلك.
فلما مات يزيد واستقر الأمر لابن الزبير، شرع في بنائها، فأمر بهدمها حتى ألحقت بالأرض،
وكانت حيطانها قد مالت من حجارة المنجنيق، وجعل الحجر الأسود عنده، وكان الناس
يطوفون من وراء الأساس، وضرب عليها الستور، وأدخل فيها الحجر، واحتج بأن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضي الله عنها: لولا حدثان عهد قومك بالكفر
لرددت الكعبة على أساس إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وأزيد فيها من الحجر، فحفر ابن
الزبير رضي الله عنهما، فوجد أساساً أمثال الجمال فحركوا منها صخرة فبرقت بارقة،
فقال: أقروها على أساسها، وبناها، وجعل لها بابين يدخل من أحدهما ويخرج من الآخر.
وقيل: كانت عمارتها في سنة أربع وستين. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.
حرب عبد الله بن خازم
وبين بني تميم بخراسان
في هذه السنة كانت الحرب والفتنة بني عبد الله بن خازم السلمي وبين بني تميم بخراسان؛
وسبب ذلك أن من كان من بني تميم بخراسان أعانوا ابن خازم على من بها من ربيعة كما
تقدم، فلما صفت له خراسان جفا بني تميم، وكان قد جعل ابنه محمداً على هراة، وجعل
على شرطته بكير بن وساج، وضم إليه شماس بن دثار العطاردي وكانت أم محمد تميمية،
فلما جفاهم ابن خازم أتوا ابنه محمداً بهراة، فكتب إلى أبيه وإلى بكير وشماس، يأمرهم
بمنعهم عن هراة، فأما شماس فصار مع بني تميم، وأما بكير فإنه منعهم، فأقاموا ببلاد هراة،
فأرسل بكير إلى شماس: إني أعطيك ثلاثين ألفاً، وأعطي كل رجل من تميم ألفا، على أن
ينصرفوا، فأبوا وأقاموا يترصدون محمد بن عبد الله حتى خرج إلى الصيد، فأخذوه
وشدوه وثاقاً، ثم قتلوه، وولوا عليهم الحريش، فنادى ابن خازم، وقال: لقد طالت الحرب

بيننا، فعلام يقتل قومي وقومك، ابرز إلي فأينا قتل صاحبه صارت الأرض له، فقال ابن
خازم: لقد أنصفت، فبرز إليه، فالتقيا وتصاولا طويلاً، فغفل ابن خازم، فضربه الحريش على
رأسه فألقى فروة رأسه على وجهه، وانقطع ركاباً الحريش، ولزم ابن خازم عنق فرسه،
ورجع إلى أصحابه، ثم غاداهم القتال، فمكثوا أياماً بعد الضربة، ثم مل الفريقان، فتفرقوا،
فافترقت تميم ثلاث فرق: فرقة إلى نيسابور مع بحير ابن ورقاء، وفرقة إلى ناحية أخرى،
وفرقة فيها الحريش إلى مرو الروذ، فاتبعه ابن خازم إلى قرية تسمى الملحمة، والحريش في
اثنى عشر رجلاً، وقد تفرق عنه أصحابه وهم في خربة، فلما انتهى إليه قال له الحريش: ما
تريد مني وقد خليتك والبلاد، قال: إنك تعود إليها، قال: لا أعود؛ فصالحه على أن يخرج
عن خراسان ولا يعود إلى قتاله، فأعطاه ابن خازم وضمن له وفاء دينه.

وفي هذه السنة سنة 65 وقع طاعون الجارف بالبصرة، وعليها عبيد الله بن عبد اله بن
معمر، فهلك خلق كثير، وماتت أم عبيد الله فلم يجدوا لها من يحملها، حتى استأجروا من
تولى حملها.

وحج بالناس عبد الله بن الزبير، وكان على المدينة مصعب ابن الزبير، وعلى الكوفة عبد
الله بن مطيع، وعلى البصرة الحارث ابن أبي ربيعة المخزومي، وعلى خراسان عبد الله بن
خازم.

وفيها توفي عبد الله بن عمرو بن العاص بمصر، وكان قد عمي. وقيل: كانت وفاته في سنة
ثمان وستين، وقيل سنة تسع، والله أعلم.

سنة ست وستين

الفتنة بخراسان

في هذه السنة حاصر عبد الله بن خازم من كان بخراسان من بني تميم بسبب قتلهم ابنه
محمدا، وذلك أنه لما تفرقت بنو تميم بخراسان على ما تقدم، أتى قصر قرنبا عدة منهم ما
بين السبعين إلى الثمانين، فولوا أمرهم عثمان بن بشر بن المحتفز المازني، ومعه شعبة بن
ظهير النهشلي، وورد بن الفلق العنبري، وزهير بن ذؤيب العدوي، وجيهان بن مشجعة

الضبي، والحجاج بن ناشب العدوي، ورقبة ابن الحر في فرسان بني تميم وشجعانهم،
فحاصرهم ابن خازم، فكانوا يخرجون إليه فيقاتلونه، ثم يرجعون إلى القصر، فخرج ابن
خازم يوماً في ستة آلاف، وخرج أهل القصر إليه، فقال لهم بشر: ارجعوا فلن تطيقوه،
فحلف زهير بن ذويب بالطلاق إنه لا يرجع حتى ينقض صفوفهم، فاستبطن نهراً قد يبس،
فلم يشعر به أصحاب ابن خازم حتى حمل عليهم، فحطم أولهم على آخرهم، واستدار
وكر راجعاً، واتبعوه يصيحون به، ولم يجسر أحد ينزل إليه حتى رجع إلى موضعه، فحمل
عليهم، فأفرجوا له حتى رجع، فقال ابن خازم لأصحابه: إذا طاعنتم زهيراً فاجعلوا في
رماحكم كلاليب، ثم علقوها في سلاحه، فخرج إليهم يوماً فطاعنهم، فأعلقوا فيه أربعة
رماح بالكلاليب، فالتفت إليهم ليحمل عليهم، فاضطربت أيديهم، وخلوا رماحهم، فعاد يجر
أربعة أرماح حتى دخل القصر، فأرسل ابن خازم إلى زهير، فضمن له مائة ألف وميسان
طعمة ليناصحه، فلم يجبه، فلما طال الحصار عليهم أرسلوا إلى ابن خازم أن يمكنهم من
الخروج ليتفرقوا، فأبى إلا على حكمه، فأجابوه إلى ذلك، فقال زهير: ثكلتكم أمهاتكم،
والله ليقتلنكم عن آخركم، فإن طبتم بالموت نفساً فموتوا كراماً، اخرجوا بنا جميعا، فإما
أن تموتوا كراماً، وإما أن ينجو بعضكم ويهلك بعضكم، وأيم الله لئن شددتم عليهم شدة
صادقة ليفرجن لكم، فإن شئتم كنت أمامكم، وإن شئتم كنت خلفكم، فأبوا عليه، فقال
سأريكم؛ ثم خرج هو ورقبة بن الحر وغلام تركي وابن ظهير، فحملوا على القوم حملة
منكرة فأفرجوا لهم، فمضوا. فأما زهير فرجع إلى من بالقصر ونجا أصحابه، فقال زهير
لمن بالقصر: قد رأيتم، أطيعوني، فقالوا: إنا نضعف عن هذا ونطمع في الحياة، فقال: والله لا
أكون أعجزكم عند الموت، فنزلوا على حكم ابن خازم، فأرسل إليهم فقيدهم، وحملوا إليه
رجلا رجلا، فأراد أن يمن عليهم، فأبى عليه ابنه موسى، وقال له: إن عفوت عنهم قتلت
نفسي، فقتلهم إلا ثلاثة، أحدهم الحجاج ابن ناشب، شفع فيه بعض من معه فأطلقه،

والآخر جيهان بن مشجعة الضبي، وكان قد منع القوم من قتل محمد عبد الله، ورمى نفسه
عليه، فأبوا، فتركه لذلك، والآخر رجل من بني سعد من تميم، وهو الذي رد الناس عن ابن
خازم يوم لحقوه، وقال: انصرفوا عن فارس مضر.
قال: ولما أرادوا حمل زهير بن ذويب وهو مقيد أبى، واعتمد على رمحه، فوثب الخندق،
ثم أقبل إلى ابن خازم يحجل في قيوده؛ فقال له ابن خازم: كيف شكرك إن أطلقتك
وأطعمتك ميسان ؟ قال: لو لم تصنع بي إلا حقن دمى لشكرتك، فلم يمكنه ابنه موسى
من إطلاقه، فقال له أبوه: ويحك، تقتل مثل زهير، من لقتال عدو المسلمين، من لنساء العرب
؟ فقال: والله لو شركت في دم أخير لقتلتك، فأمر بقتله، فقال زهير: إن لي حاجة، لا تقتلني
وتخلط دمي بدماء هؤلاء اللئام، فقد نهيتهم عما صنعوا، وأمرتهم أن يموتوا كراماً ويخرجوا
عليكم مصلتين، وأيم الله لو فعلوا لذعروا بنيك هذا. وشغلوه بنفسه عن طلب ثأر أخيه،
فأمر به ابن خازم فقتل ناحية.

سنة سبع وستين

في هذه السنة استعمل عبد الله بن الزبير أخاه مصعباً على البصرة، فقتل المختار كما
تقدم، قم عزله عن العراق، واستعمل ابنه حمزة بن عبد الله. وكان حمزة جواداً مخلطاً،
يجود أحياناً حتى لا يدع شيئاً يملكه، ويمنع أحياناً ما لا يمنع مثله، وظهر منه بالبصرة خفة
وضعف، فكتب الأحنف إلى أبيه، وسأله أن يعزله عنهم، ويعيد مصعباً، فعزله، فاحتمل
مالاً كثيراً من مال البصرة، فعرض له مالك ابن مسمع، فقال: لا ندعك تخرج بأعطياتنا؛
فضمن له عبيد الله ابن عبد الله العطاء، فكف عنه، وشخص حمزة بالمال إلى المدينة،
فأودعه رجالا، فجحدوه، إلا رجلاً واحداً، فوفى له، فبلغ ذلك أباه، فقال: أبعده الله،
أردت أن أباهي به بني مروان فنكص.
وقيل: إن مصعباً أقام بالكوفة سنة بعد قتل المختار معزولاً عن البصرة، ثم وفد إلى أخيه
فرده إلى البصرة، وقيل: بل انصرف مصعب إلى البصرة بعد قتل المختار، واستعمل على
الكوفة الحارث بن أبي ربيعة، وكانتا في عمله، فعزله أخوه، واستعمل ابنه حمزة، ثم عزل

حمزة بكتاب الأحنف وأهل البصرة، ورد مصعباً، وذلك في سنة ثمان وستين.
وحج بالناس في هذه السنة عبد الله بن الزبير، وكان العمال من تقدم ذكرهم، وكان على
قضاء الكوفة عبد الله بن عتبة بن مسعود، وعلى قضاء البصرة هشام بن هبيرة.
سنة ثمان وستين
حصار الري وفتحها
وفي هذه السنة أمر مصعب بن الزبير عتاب بن ورقاء الرياحي عامله على أصفهان بالمسير
إلى الري وقتال أهلها، لمساعدتهم الخوارج على يزيد بن الحارث، كما تقدم، وامتناعهم في
مدينتهم، فسار إليهم عتاب، وقاتلهم، وعليهم الفرخان ففتحها عنوة، وغنم ما فيها وافتتح
سائر قلاعها ونواحيها. والله أعلم.
مقتل عبيد الله بن الحر
وفي هذه السنة قتل عبيد الله بن الحر الجعفي، وكان من خيار قومه صلاحاً وفضلاً
واجتهاداً، ولما قتل عثمان حضر إلى معاوية وشهد معه صفين وأقام عند معاوية، وكانت
زوجته بالكوفة، فلما طالت غيبته عنها زوجها أخوها رجلاً، يقال له عكرمة بن الخنبص،
فبلغ ذلك عبيد الله، فأقبل من الشام فخاصمه عكرمة إلى علي رضي الله عنه، فقال له
علي رضي الله عنه: ظاهرت علينا عدونا وفعلت وفعلت. فقال له: أيمنعني ذلك من
عدلك ؟ قال: لا، فقص عليه قصته فرد عليه امرأته وكانت حبلى، فوضعها عند من يثق
إليه حتى وضع فألحق الولد بعكرمة، ودفع المرأة إلى عبيد الله، وعاد إلى الشام فأقام به
حتى قتل علي رضي الله عنه، فرجع إلى الكوفة، فلما كان في وقت قتل الحسين تغيب
عبيد الله عمداً، فجعل ابن زياد يتفقد أشراف أهل الكوفة، فلم ير ابن الحر ثم جاء بعد
ذلك فقال: أين كنت يا ابن الحر ؟ قال: كنت مريضاً. قال: كذبت، ولكنك كنت مع
عدونا. قال: لو كنت معه لرئي مكاني. وغفل عنه ابن زياد، فخرج وركب فرسه، ثم طلبه
فقيل له: ركب الساعة، فبعث الشرط خلفه فأدركوه فقالوا: أجب الأمير، فقال: بلغوه عني
أني لا آتيه طائعاً أبداً، وركض فرسه، وأتى منزل أحمد بن زياد الطائي، فاجتمع إليه

أصحابه، ثم خرج حتى أتى كربلاء، فنظر إلى مصارع الحسين رضي الله عنه، ومن قتل
معه، فاستغفر لهم ثم مضى إلى المدائن. وقال في ذلك:
يقول أمير غادر حق غادر ألا كنت قاتلت الشهيد ابن فاطمه
ونفسي على خذلانه واعتزاله وبيعة هذا الناكث العهد لائمه
فياندمى ألا أكون نصرته ألا كل نفس لا تسدد نادمه
وإني لأني لم أكن من حماته لذو حسرة ما إن تفارق لازمه
سقى الله أرواح الذين تآزروا على نصره سقيا من الغيث دائمه
وقفت على أجداثهم ومجالهم فكاد الحشى ينقض والعين ساجمه
لعمري لقد كانوا مصاليت في الوغى سراعاً إلى الهيجا حماة خضارمه
تأسوا على نصر ابن بنت نبيهم بأسيافهم آساد غيل ضراغمه
فإن يقتلوا فكل نفس تقية على الأرض قد أضحت لذلك واجمه
وما إن رأى الراءون أفضل منهمو لدى الموت سادات وزهراً قماقمه
أتقتلهم ظلماً وترجو ودادنا فدع خطة ليست لنا بملائمه
لعمري لقد راغمتمونا بقتلهم فكم ناقم منا عليكم وناقمه
أهم مراراً أن أسير بجحفل إلى فئة زاغت عن الحق ظالمه
فكفوا وإلا زرتكم في كتائب أشد عليكم من زحوف الديالمه
قال: وأقام ابن الحر بمنزله على شاطىء الفرات إلى أن مات يزيد، ووقعت الفتنة، فقال: ما
أرى قرشياً ينصف، أين أبناء الحرائر ؟ فأتاه كل خليع، ثم خرج إلى المدائن فلم يدع مالاً
قدم به للسلطان إلا أخذ منه عطاءه وعطاء أصحابه، ويكتب لصاحب المال بما أخذ منه،
ثم جعل يتقصى الكور على مثل ذلك، إلا أنه لم يعترض لمال أحد ولا دمه، فلم يزل كذلك
حتى ظهر المختار وسمع ما يعمله ابن الحر في السواد، فأخذ امرأته فحبسها، فأقبل عبيد
الله في أصحابه إلى الكوفة، فكسر باب السجن، وأخرجها، وأخرج كل امرأة كانت فيه،
ومضى، وجعل يعبث بعمال المختار وأصحابه، فأحرقت داره في همدان، ونهبت ضيعته،
فسار إلى ضياع همذان فنهبها جميعاً، وكان يأتي المدائن فيمر بعمال جوخى فيأخذ ما
معهم من المال، ثم يميل على الجبل، فلم يزل على ذلك حتى قتل المختار.

وقيل: إنه بايع المختار بعد امتناع، وسار مع إبراهيم بن الأشتر إلى الموصل، ولم يشهد معه
قتال ابن زياد، وتمارض، ثم فارق ابن الأشتر، وأقبل إلى الأنبار في ثلاثمائة، فأغار عليها،
وأخذ ما في بيت مالها، فلما فعل ذلك أمر المختار بهدم داره وأخذ امرأته، ففعل ما تقدم
ذكره، وحضر مع مصعب قتال المختار، فلما قتل المختار قال الناس لمصعب: إنا لا نأمن أن
يثب عبيد الله بن الحر بالسواد كما فعل بابن زياد والمختار، فحبسه، فكلم قوماً من وجوه
مذحج ليشفعوا له إلى مصعب، وأرسل إلى فتيان مذحج، فقال: البسوا السلاح واستروه،
فإن شفعهم مصعب وإلا فاقصدوا السجن فإنني سأعينكم من داخل.
فلما شفع أولئك النفر شفعهم مصعب فيه، وأطلقه، فأتى منزله، وأتاه الناس يهنئونه،
فكلمهم في الخروج على مصعب، وقال لهم: قاتلوا عن حريمكم؛ فإني قد قلبت ظهر المجن
واظهرت العداوة ولا قوة إلا بالله.
وخرج عن الكوفة، وحارب وأغار، فأرسل إليه مصعب سيف بن هانىء المرادي، فعرض
عليه خراج بادرويا وغيرها، ويدخل في الطاعة، فلم يجب إلى ذلك، فندب لقتاله الأبرد بن
قرة الرياحي، فقاتله فهزمه عبيد الله وضره على وجهه، فبعث إليه حريث بن زيد فقتله،
فبعث إليه الحجاج ابن حارثة الخثعمي، ومسلم بن عمرو، فلقياه بنهر صرصر. فقاتلهما
وهزمهما، فأرسل إليه يدعوه إلى الأمان والصلة، وأن يوليه أي بلد شاء؛ فلم يقبل ذلك وأتى
نرسا، ففر دهقانها بمال إلى عين التمر وعليها بسطام بن مصقلة بن هبيرة الشيباني، فالتجأ
الدهقان إليه، فتبعه عبيد الله فقاتله بسطام، ووافاه الحجاج ابن حارثة، فأسرهما عبيد
الله، وأسر جماعة كثيرة ممن معهما، وأخذ المال الذي مع الدهقان، وأطلق الأسارى وأتى
تكريت، فأقام بها يجبي الخراج، فبعث إليه مصعب الأبرد بن قرة الرياحي، والجون ابن كعب
الهمداني في ألف، وأمدهم المهلب بيزيد بن المغفل في خمسمائة، فقاتلهم يومين وهو في
ثلاثمائة. فلما كان عند المساء من اليوم الثاني تحاجزوا، وخرج عبيد الله من تكريت،

وسار نحو كسكر، فأخذ بيت مالها، ثم أتى الكوفة فنزل إلى دير الأعور، فبعث إليه
مصعب حجار بن أبجر فانهزم حجار، فشتمه مصعب، وضم إليه الجون بن كعب الهمداني
وعمر بن عبيد الله بن معمر، فقاتلوه بأجمعهم، وكثرت الجراحات في أصحاب ابن الحر،
وعقرت خيولهم، فانهزم حجار، ثم رجع فاقتتلوا قتالا شديدا، حتى أمسوا، وخرج ابن
الحر من الكوفة، فكتب مصعب إلى يزيد ابن الحارث بن رويم الشيباني وهو بالمدائن يأمره
بقتاله، فقدم ابنه حوشباً، فقاتله فهزمه عبيد الله، وأقبل إلى المدائن فتحصنوا منه، فندب
إليه الجون بن كعب الهمداني وبشر بن عبد الله الأسدي، فنزل الجون بحولايا، فخرج إليه
عبد الرحمن بن عبد الله فقتله ابن الحر وهزم أصحابه، وخرج إليه بشير بن عبد الرحمن
ابن بشير العجلي، فقاتله بسورا قتالاً شديدا، فرجع عنه بشير، وأقام ابن الحر بالسواد يغير
ويجبى الخراج.
ثم لحق بعبد الملك بن مروان، فلما صار إليه أكرمه وأجلسه معه على السرير، وأعطاه
مائة ألف درهم، وأعطى لمن معه مالاً، فقال له ابن الحر: وجهني بجند أقاتل بهم مصعبا،
فقال له: سر بأصحابك، وادع من قدرات عليه، وأنا ممدك بالرجال، فسار في أصحابه نحو
الكوفة إلى أن انتهى إلى الأنبار، فنزل بقرية بجوارها، واستأذنه أصحابه في إتيان الكوفة،
فأذن لهم، وأمرهم أن يعلموا أصحابه بمقدمه ليخرجوا إليه، فبلغ ذلك القيسية فأتوا الحارث
بن عبد الله بن أبي ربيعة معامل ابن الزبير بالكوفة، فسألوه أن يرسل معهم جيشاً يقاتلون
به عبيد الله ويغتنمون الفرصة فيه بتفريق أصحابه، فبعث معهم جيشاً كثيفاً، فساروا
إليه، فقال له من بقي معه من أصحابه: نحن في نفر يسير، ولا طاقة لنا بهذا الجيش، فقال:
كنت لأدعهم، وحمل عليهيم وهو يقول:
يالك يوما فات فيه نهبي وغاب عني ثقتي وصحبي فعطفوا عليه فكشفوا أصحابه، وحاولوا
أن يأسروه، فلم يقدروا على ذلك، وأذن لأصحابه في الذهاب، فذهبوا فلم يعرض لهم
أحد، وجعل يقاتل وحده وهم يرمونه ولا يدنون منه، وهو يقول:
أهذه نبل أم مغازل ! فلما

أثخنته الجراح خاض إلى معبر فدخله ولم يدخل فرسه، فركب السفينة، ومضى به الملاح
حتى توسط الفرات، فأشرفت الخيل عليهم، وكان في السفينة نبط، فقالوا لهم: إن في
السفينة طلبة أمير المؤمنين، فإن فاتكم قتلناكم، فوثب ابن الحر ليرمي نفسه في الماء، فوثب
إليه رجل عظيم الخلق، فقبض على يديه، وجراحاته تجري دماً، وضربه الباقون بالمجاديف،
فقبض على الذي أمسكه، وألقى نفسه في الماء، فغرقا معاً.
وقيل في قتله: إنه كان يغشى مصعب بن الزبير بالكوفة فرآه يقدم عليه غيره، فكتب إلى عبد
الله بن الزبير قصيدة يعاتب فيها مصعبا ويخوفه مسيره إلى عبد الملك بن مروان يقول فيها:

أبلغ أمير المؤمنين رسالة فلست على رأي قبيح أواربه
أفي الحق أن أجفى ويجعل مصعب وزيره من قد كنت فيه أحاربه
فكيف، وقد أبليتكم حق بيعتي وحقي يلوى عندكم وأطالبه
وأبليتكم مالاً يضيع مثله وآسيتكم والأمر صعب مراتبه
فلما استنار الملك وانقادت العدا وأدرك من مال العراق رغائبه
جفا مصعب عني ولو كان غيره لأصبح فيما بيننا لا أعاتبه
لقد رابني من مصعب أن مصعبا أرى كل ذى غش لنا هو صاحبه
إذا قمت عند الباب أدخل مسلم ويمنعني أن أدخل الباب حاجبه

أشار بقوله: وزيره؛ إلى مسلم بن عمرو والد قتيبة، والمهلب ابن أبي صفرة، ويدل على
ذلك قوله أيضاً في غيرها:

بأي بلاء أم بأية نعمة تقدم قبلي مسلم والمهلب قال: فحبسه مصعب، وله معه معاتبات من
الحبس، وقال في قصيدة يهجو فيها قيس عيلان منها:

ألم تر قيسا قيس عيلان برقعت لحاها وباعت نبلها بالمغازل

فأرسل زفر بن الحارث الكلابي إلى مصعب يقول: قد كفيتك قتال ابن الزرقاء - يعني عبد
الملك. وابن الحر يهجو قيسا؛ ثم إن نفراً من بني سليم أسروا عبيد الله بن الحر، فقال: إنما
قلت:

ألم تر قيساً قيس عيلان أقبلت إلينا وسارت في القنا والقنابل

فقتله رجل منهم يقال له عياش، والله أعلم.
وفي هذه السنة سنة وافى عرفات أربعة ألوية:

لواء ابن الزبير وأصحابه، ولواء ابن الحنفية وأصحابه، ولواء لبني أمية، ولواء لنجدة
الحروري، ولم يجر بينهم حرب ولا فتنة.
وكان العامل على المدينة جابر بن الأسود بن عوف الزهري، وعلى البصرة والكوفة
مصعب بن الزبير، وعلى قضائهما من ذكرنا قبل، وعلى خراسان عبد الله بن خازم.
وفيها توفي عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، وعدى بن حاتم الطائي. وقيل في سنة
ست وستين، وله مائة وعشرون سنة.
سنة تسع وستين
في هذه السنة شخص مصعب بن الزبير إلى مكة ومعه أموال عظيمة ودواب كثيرة، فقسم
في قومه وغيرهم، ونحر بدنا كثيرة. وقيل: كان ذلك في سنة سبعين.
وحج بالناس عبد الله بن الزبير؛ وفيها حكم رجل من الخوارج بمنى، وسل سيفه، وكانوا
جماعة، فأمسك الله أيديهم، فقتل ذلك الرجل عند الجمرة.
وكان عمال المصار من ذكرنا.
سنة سبعين
يوم الجفرة
في هذه السنة سار عبد الملك بن مروان يريد مصعب بن الزبير، فقال له خالد بن عبد الله
بن أسيد: إن وجهتني إلى البصرة وأتبعتني خيلا رجوت أن أغلب لك عليها، فوجهه عبد
الملك، فقدمها مستخفيا في خاصته حتى نزل على عمرو بن أصمع. وقيل: على علي بن
أصمع الباهلي، فأرسل عمرو إلى عباد بن الحصين وهو على شرطة ابن معمر، وابن معمر
خليفة مصعب على البصرة، ورجا ابن أصمع أن عباد بن الحصين يتابعه، وقال له: إني قد
أجرت خالدا وأحببت أن تعلم ذلك لتكون ظهيراً لي؛ فوافاه الرسول حين نزل عن فرسه؛
فقال عباد: قل له: والله لا أضع لبد فرسي حتى آتيك في الخيل، فقال ابن أصمع لخالد: إن
عباداً يأتينا الساعة، ولا أقدر أمنعك منه؛ فعليك بمالك بن مسمع، فخرج خالد يركض
فرسه حتى أتى مالكاً فقال: أجرني فأجاره، وأرسل إلى بكر بن وائل والأزد، فأقبلت إليه،
وأقبل عباد في الخيل، فتواقفوا ولم يكن بينهم قتال، فلما كان الغد غدوا إلى جفرة نافع بن

الحارث، ومع خالد رجال من تميم، منهم صعصعة بن معاوية وعبد الله بن بشر ومرة بن
محكان وغيرهم، وكان من أصحاب خالد، عبيد الله بن أبي بكرة، وحمران بن أبان،
والمغيرة بن المهلب. ومن أصحاب ابن معمر؛ قيس بن الهيثم السلمي، وأمده مصعب
بزحر بن قيس الجعفي في ألف، وأمده عبد الملك خالداً بعبيد الله بن زياد بن ظبيان،
فبلغه تفرق الناس، فرجع إلى عبد الملك. والتقى القوم، واقتتلوا أربعة وعشرين يوماً،
ومشت بينهم السفراء، فاصطلحوا على أن يخرج خالداً من البصرة، فأخرجه مالك، ولحق
مالك بتأج، وجاء مصعب إلى البصرة، وطمع أن يدرك خالداً فوجده قد خرج، فسخط
على ابن معمر، وقال لعبيد الله بن أبي بكرة: يا ابن مسروح، إنما أنت ابن كلبة تعاورها
الكلاب، فجاءت بأحمر وأصفر وأسود من كل كلب بما يشبهه، وإنما كان أبوك عبداً نزل
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصن الطائف، ثم ادعيتم أن أبا سفيان زنى
بأمكم، ووالله لئن بقيت لألحقنكم بنسبكم.
ثم دعا حمران فقال له: إنما أنت ابن يهودية علج نبطي سبيت من عين التمر. وقال للحكم
بن المنذر بن الجارود، ولعبد الله ابن فضالة الزهراني، ولعلي بن أصمع، ولعبد العزيز بن
بشر وغيرهم نحو هذا من التوبيخ والتقريع، وضربهم مائة مائة، وحلق رؤسهم ولحاهم
وهدم دورهم، وصهرهم في الشمس ثلاثا، وحملهم على طلاق نسابهم، وجهز أولادهم في
البعوث، وطاف بهم في أقطار البصرة، وأحلفهم ألا ينكحوا الحرائر، وهدم دار مالك ابن
مسمع، وأخذ ما فيها؛ فكان فيما أخذ منها جارية ولدت له عمرو بن مصعب.
وأقام مصعب بالبصرة، ثم شخص إلى الكوفة فلم يزل بها حتى خرج لحرب عبد الملك.
وحج بالناس في هذه السنة عبد الله بن الزبير.
سنة واحد وسبعون
في هذه السنة كان مقتل مصعب بن الزبير واستيلاء عبد الملك ابن مروان على العراق
على ما نذكر ذلك إن شاء الله مبينا في أخبار عبد الملك.
وفيها عزل عبد الله بن الزبير جابر بن الأسود عن المدينة، واستعمل عليها طلحة بن عبد

الله بن عوف، وهو آخر وال كان له على المدينة حتى أتاه طارق بن عمرو ولي عثمان
فهرب.
سنة اثنان وسبعون
في هذه السنة قتل عبد الله بن خازم أمير خراسان، واستولى عبد الملك على خراسان
على ما نذكر ذلك إن شاء الله في أخباره
وفيها انتزع عبد الملك المدينة من عبد الله بن الزبير، واستعمل عليها طارق ين عمرو؛ فلم
يبق مع ابن الزبير إلا مكة.
سنة ثلاث وسبعون
في هذه السنة كان مقتل عبد الله بن الزبير واستقلال عبد الملك ابن مروان بالأمر، جرياً
على القاعدة التي قدمناها أن نذكر الواقعة بجملتها ونحيل عليها في أخبار المغلوب، وعند
ذكرنا لمقتل عبد الله ابن الزبير نذكر نبذة من سيرته وأولاده، فلنرجع إلى أخبار الدولة
الأموية.
مروان بن الحكم
هو أبو الحكم، وقيل أبو عبد الملك، مروان بن الحكم بن أبي العاص ابن أمية بن عبد
شمس بن عبد مناف بن قصي، يجتمع نسبه ونسب معاوية في أمية، وهو الرابع من ملوك
بني أمية، وكان النبي صلى الله عليه وسلم طرد أباه إلى بطن وج، فنزل الطائف، وخرج
معه ابنه مروان. وقيل: إن مروان ولد بالطف.
واختلف في السبب الموجب لنفي رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم، فقيل: كان
يتحيل ويستخفي ويسمع ما يسره رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى كبار أصحابه في
مشركي قريش وسائر الكفار والمنافقين، وكان يفشى ذلك عنه، حتى ظهر ذلك عليه؛ وكان
يحكي رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشيته وبعض حركاته، وكان النبي عليه الصلاة
والسلام إذا مشى تكفأ، فكان الحكم يحكيه، فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فرآه
يفعل كذلك، فقال: فكذلك فلتكن. فكان الحكم مخلجا يرتعش من يومئذ، فعيره عبد
الرحمن بن حسان، فقال في عبد الرحمن بن الحكم يهجوه:

إن اللعين أبوك فارم عظامه إن ترم ترم مخلجا مجنونا
يمشي خميص البطن من علم التقي ويظل من عمل الخبيث بطينا

وروى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لمروان بن الحكم حين قال في أخيها عبد
الرحمن ما قال: أما أنت يا مروان فأشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن أباك
وأنت في صلبه.
وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يدخل
عليكم رجل لعين. قال عبد الله: وكنت قد تركت عمراً يلبس ليقبل إلى النبي صلى الله
عليه وسلم، فلم أزل مشفقاً أن يكون أول من يدخل، فدخل الحكم بن أبي العاص، فلهذا
قال عبد الرحمن بن حسان في شعره: إن اللعين أبوك. ولم يزل الحكم طريدا إلى خلافة
عثمان بن عفان فرده إلى المدينة، وقال: إن النبي عليه الصلاة والسلام كان أذن في رده.
وكان إسلام الحكم يوم فتح مكة، ومات في خلافة عثمان قبل القيام عليه بأشهر.
وولد مروان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل سنة اثنتين من الهجرة، وقيل
عام الخندق، وقيل يوم أحد، وقيل ولد بمكة، وقيل بالطائف، ولم ير مروان رسول الله عليه
الصلاة والسلام، لأنه خرج إلى الطائف طفلاً لا يعقل، وقدم لمدينة مع أبيه في خلافة عثمان،
ثم توفي أبوه فاستكتبه عثمان ابن عفان، وضمه إليه، فاستولى مروان عليه، وغلب على
رأيه حتى كان سبب قيام الناس على عثمان وقتله.
حكى أبو عمر بن عبد البر في كتابه المترجم بالاستيعاب أن علي بن أبي طالب رضي
الله عنه أتى مروان يوماً، فقال: ويلك وويل أمة محمد منك ومن بنيك إذا شابت ذراعاك.
وكان مروان يقال له خيط باطل، وضرب يوم الدار على قفاه فخر لفيه. وفيه يقول أخوه
عبد الرحمن بن الحكم وكان ماجناً شاعراً، وكان لا يرى رأى مروان:

فوالله ما أدري وإني لسائل حليلة مضروب القفا كيف يصنع
لحا الله قوماً أمروا خيط باطل على الناس يعطى من يشاء ويمنع

وقيل: إنه قال ذلك حين ولاه معاوية المدينة، وكان كثيراً ما يهجوه.
وأم مروان آمنه بنت علقمة بن صفوان، وكان مروان قصيراً رقيقاً أو قص، بويع له بالجابية

يوم الخميس لسبع بقين من شهر رجب سنة أربع وستين، وقيل في ذى القعدة منها.
ذكر السبب في بيعة مروان
كان سبب بيعته أن عبد الله بن الزبير لما بويع له بالحجاز والعراق استعمل أخاه عبيدة بن
الزبير على المدينة، فأخرج مروان بن الحكم وابنه منها إلى الشام؛ فلما قدم الحصين بن نمير
ومن معه إلى الشام أخبر مروان بما كان بينه وبين ابن الزبير، وقال له ولبني أمية: أقيموا
أمركم قبل أن يدخل عليكم شامكم، فتكون فتنة عمياء صماء.
وكان من رأى مروان أن
يسير إلى عبد الله بن الزبير فيبايعه، فلما قدم عبيد الله بن زياد من العراق قال لمروان: لقد
استحييت لك من ذلك، وأنت كبير قريش وسيدها؛ وقبح ذلك عليه، فقال: ما فات شيء
بعد، وقام إليه بنو أمية ومواليهم فتجمع إليه أهل اليمن، فسار إلى دمشق فقدمها والضحاك
بن قيس الفهري يصلي بالناس قد بايعوه على ذلك إلى أن يتفق رأى الناس على إمام، وهو
يدعو إلى ابن الزبير سراً، والنعمان بن بشير الأنصاري بحمص يبايع له أيضاً. وكان حسان
بن مالك بن بحدل الكلبي غلاماً لمعاوية وابنه يزيد بفلسطين وهو يريد بني أمية.
فكتب حسان إلى الضحاك كتاباً يعظم فيه حق بني أمية وحسن بلائهم، ويذم ابن الزبير،
وأنه خلع خليفتين، وأمره أن يقرأ كتابه على الناس. وكتب كتاباً آخر، وسلمه إلى رسوله
واسمه ناغضة، وقال له: إن قرأ الضحاك كتابي على الناس وإلا فاقرأ هذا الكتاب عليهم.
وكتب حسان إلى بني أمية أن يحضروا ذلك، فقدم ناغضة، فدفع كتاب الضحاك إليه
وكتاب بني أمية إليهم.
فلما كان يوم الجمعة صعد الضحاك المنبر، فقال له ناغضة: اقرأ كتاب حسان على الناس.
فقال له: اجلس، فجلس، ثم قام الثانية والثالثة وهو يأمره بالجلوس، فأخرج ناغضة الكتاب
الذي معه، وقرأه على الناس، فقام يزيد بن أبي النمس الغساني، وسفيان ابن الأبرد الكلبي،
فصدقا حسانا، وشتما ابن الزبير، وقام عمرو ابن يزيد الحكمي فشتم حسانا، وأثنى على
ابن الزبير، واضطرب الناس، فأمر الضحاك بيزيد وسفيان فحبسا، ووثبت كلب على عمر

بن يزيد فضربوه وخرقوا ثيابه، وقام خالد بن يزيد، فسكن الناس، ونزل الضحاك فصلى
الجمعة بالناس، ودخل القصر فجاءت كلب فأخرجوا سفيان، وجاءت غسان فأخرجوا
يزيد، وكان أهل الشام يسمون ذلك اليوم يوم جيرون الأول.
ثم خرج الضحاك بن قيس إلى المسجد، وذكر يزيد بن معاوية فسبه، فقام إليه شاب من
كلب فضربه بعصا، فقام الناس بعضهم إلى بعض فاقتتلوا؛ فقيس تدعو إلى ابن الزبير ونصرة
الضحاك، وكلب تدعو إلى بني أمية.
ودخل الضحاك دار الإمارة، ولم يخرج من الغد لصلاة الفجر، وبعث إلى بني أمية فاعتذر
إليهم، وأنه لا يريد ما يكرهون، وأمرهم أن يكتبوا إلى حسان، ويكتب معهم ليسير من
الأردن إلى الجابية، ويسيرون هم من دمشق إليها فيجتمعون بها ويبايعون لرجل من بني
أمية، فرضوا، وكتبوا إلى حسان، وسار الضحاك وبنو أمية نحو الجابية، فأتاه ثور بن معن
السلمي، فقال: دعوتنا إلى ابن الزبير فبايعنا على ذلك، وأنت تسير إلى هذا الأعرابي من
كلب يستخلف ابن أخته خالد بن يزيد.
قال الضحاك: فما الرأي ؟ قال: الرأي أن نظهر ما كنا نكتم وندعو إلى ابن الزبير، فرجع
الضحاك بمن معه من الناس، فنزل مرج راهط ودمشق بيده، واجتمع بنو أمية وحسان
وغيرهم بالجابية، فكان حسان يصلى بهم أربعين يوماً والناس يتشاورون، وكان مالك بن
هبيرة السكوني يهوى خالد بن يزيد والحصين بن نمير يميل إلى مروان، فقال مالك للحصين:
هلم نبايع هذا الغلام الذي نحن ولدنا أباه وهو ابن أختنا، وقد عرفت منزلتنا من أبيه، فإنه
يحملنا على رقاب العرب. يعني خالد بن يزيد. فقال الحصين: لا والله لا تأتينا العرب بشيخ
ونأتيها بصبي. فقال مالك: والله لئن استخلفت مروان ليحسدنك على سوطك وشراك
نعلك وظل شجرة تستظل بها، إن مروان أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة، فإن بايعتموه
كنتم عبيداً لهم، ولكن عليكم بابن أختكم خالد، فقال الحصين: إني رأيت في المنام قنديلا
معلقا من السماء وأن من يلي الخلافة يتناوله، فلم ينله إلا مروان؛ والله لنستخلفنه.

وقام روح بن زنباع الجذامى فقال: أيها الناس، إنكم تذكرون عبد الله بن عمر وصحبته
وقدمه في الإسلام، وهو كما تذكرون، ولكنه ضعيف، وليس بصاحب أمة محمد الضعيف،
وتذكرون ابن الزبير وهو كما تذكرون، إنه ابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم،
وأمه ذات النطاقين، ولكنه منافق قد خلع خليفتين: يزيد، وابنه معاوية، وسفك الدماء،
وشق عصا المسلمين، وليس المنافق بصاحب أمة بمحمد
وأما مروان بن الحكم فوالله ما كان في الإسلام صدع إلا كان ممن يشعبه، وهو الذي قاتل
هم أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار، والذي قاتل علي بن أبي طالب يوم الجمل، وإنا
نرى للناس أن يبايعوا الكبير، ويستشبوا الصغير - يعنى بالكبير مروان، وبالصغير خالد بن
يزيد. فأجمع رأيهم على البيعة لمروان، ثم لخالد ابن يزيد، ثم لعمرو بن سعيد بن العاص من
بعد خالد، على أن إمرة دمشق لعمرو، وإمرة حمص لخالد.
فدعا حسان خالداً، فقال: يا بن أختي؛ إن الناس قد أبوك لحداثة سنك، وإني والله ما
أريد المر إلا لك ولأهل بيتك، وما أبايع مروان إلا نظرا لكم.
فقال خالد: بل عجزت عنا.
فقال: والله ما أنا عجزت، ولكن الرأي لك ما رأيت.
ثم بايعوا مروان لثلاث خلون من ذى القعدة سنة أربع وستين،
وقال مروان حين بويع له:

لما رأيت الأمر أمراً نهبا يسرت غسان لهم وكلبا
والسكسكيين رجالاً غلبا وطيئا تأباه إلا ضربا
والقين تمشى في الحديد نكبا ومن تنوخ مشمخرا صعبا
لا يأخذون الملك إلا غصبا فإن دنت قيس فقل لا قربا

موقعة مرج راهط
وقتل الضحاك بن قيس بن خالد الفهري والنعمان ابن بشير بن سعيد بن تغلب الأنصاري
الخزرجي
قال: ولما بويع مروان بن الحكم سار من الجابية إلى مرج راهط، وبه الضحاك بن قيس
ومن معه؛ وكان الضحاك قد استمد النعمان ابن بشير وهو على حمص؛ فأمده بشر حبيل
بن ذي الكلاع، واستمد أيضاً زفر بن الحارث فأمده بأهل قنسرين، وأمده ناتل بأهل
فلسطين، وكان ناتل بن قيس قد وثب بفلسطين لما خرج منها حسان بن مالك إلى الأردن،

وأخرج خليفته روح بن زنباع، وبايع ناتل لابن الزبير، فاجتمعت هذه الأمداد مع الضحاك.
واجتمع إلى مروان كلب، وغسان، والسكاسك، والسكون؛ وجعل على ميمنته عمرو بن
سعيد، وعلى ميسرته عبيد الله بن زياد، وكان يزيد بن أبي النمس الغساني مختفيا بدمشق
لم يحضر الجابية، فغلب على دمشق، وأخرج عنها عامل الضحاك بن قيس، واستولى على
الخزائن وبيت المال، وبايع لمروان، وأمده بالأموال والرجال والسلاح، فكان ذلك أول فتح -
على بني أمية.
وتحارب مروان والضحاك بمرج راهط عشرين ليلة؛ واقتتلوا قتالاً شديداً؛ فقتل الضحاك،
قتله زحنة بن عبد الله الكلبي، وقتل معه ثمانون رجلاً من أشراف الشام، وقتلت قيس
مقتلة عظيمة لم تقتل مثلها في موطن قط، وكان ممن قتل هانىء بن قبيصة النميري سيد
قومه، قتله وازع بن ذؤالة الكلبي، فلما سقط جريحاً قال:
تعست ابن ذات النوف أجهز على فتى يرى الموت خيراً من فرار وأكرما
ولا تتركني بالحشاشة إنني صبور إذا ما النكس مثلك أحجما
فعاد إليه وازع فقتله، وكانت هذه الوقعة في المحرم سنة خمس وستين.
وقيل: كانت في آخر سنة أربع وستين.
ولما أتى مروان برأس الضحاك ساءه ذلك، وقال: الآن حين كبرت سني ودق عظمي أقبلت
بالكتائب أضرب بعضها ببعض.
وقيل: إن الضحاك كان في ستين ألف فارس ومروان في ثلاثة عشر ألفاً.
حكى المدائني في كتاب المكايد له، قال: لما التقى مروان والضحاك بمرج راهط قال عبيد
الله بن زياد لمروان: إن فرسان قيس مع الضحاك فلا ننال منه ما نريد إلا بكيد، فأرسل إليه
فاسأله الموادعة حتى ننظر في أمرك، على أنك إن رأيت البيعة لابن الزبير بايعت، ففعل
فأجابه الضحاك إلى الموادعة، وأصبح أصحابه قد وضعوا سلاحهم، وكفوا عن القتال،
فقال ابن زياد لمروان: دونك. فشد مروان ومن معه على عسكر الضحاك على غفلة منهم
وانتشار، فقتلوا من قيس مقتلة عظيمة، وقتل الضحاك يومئذ فلم يضحك رجال من قيس
بعد يوم المرج حتى ماتوا.

وقيل المكيدة كانت من عبيد الله بن زياد، كاد بها الضحاك.
وقال له: مالك والدعاء إلى
ابن الزبير ! وأنت رجل قرشي ومعك الخيل، وأكثر قيس ؟ فادع لنفسك، فأنت أسن منه
وأولى.
ففعل الضحاك ذلك، فاختلف عليه الجند، فقاتله مروان عند ذلك فقتل. والله أعلم.
قال: ولما انهزم الناس من المرج لحقوا بأجنادهم، فانتهى أهل حمص إليها وعليها النعمان بن
بشير، فلما بلغه الخبر خرج هاربا ومعه امرأته نائلة بنت عمارة الكلبية وثقله وأولاده،
فتحير ليلته كلها، فأصبح أهل حمص فطلبوه، وكان الذي طلبه عمرو بن الخلي الكلاعي
فقتله.
وقيل: اتبعه خالد بن عدي الكلاعي فيمن خف معه من أهل حمص فلحقه فقتله وبعث
برأسه إلى مروان.
وقال علي بن المديني: قتل النعمان بن بشير بحمص غيلة قتله أهلها.
وقيل: قتل بقرية من قرى حمص يقال لها تيزين. والنعمان من الصحابة، ولد قبل وفاة رسول
الله صلى الله عليه وسلم بثماني سنين.
قال: ولما بلغت الهزيمة زفر بن الحارث الكلابي بقنسرين هرب منها، فلحق بقرقيسيا
وعليها عياض الجرشي، وكان يزيد بن معاوية ولاه إياها، فطلب منه أن يدخل الحمام
ويحلف له بالطلاق والعتاق أنه إذا خرج من الحمام لا يقيم بها، فأذن له، فدخلها، فغلب
عليها وتحصن بها، ولم يدخل حمامها، واجتمعت إليه قيس.
وهرب ناتل بن قيس الجذامي
من فلسطين، فلحق بابن الزبير بمكة؛ واستعمل مروان بعده على فلسطين روح بن زنباع،
واستوثق الشام لمروان.
وقيل: إن عبيد الله بن زياد إنما جاء إلى بني أمية وهم بتدمر، ومروان يريد أن يسير إلى
ابن الزبير فيبايعه ويأخذ منه الأمان لبني أمية، فرده عن ذلك، وأمره أن يسير بأهل تدمر إلى
الضحاك فيقاتله، وواقفه عمرو بن سعيد، وأشار على مروان أن يتزوج أم خالد ابن يزيد
ليسقط من أعين الناس، فتزوجها، وهي فاختة ابنة أبي هاشم ابن عتبة، ثم جمع بني أمية
فبايعوه، وبايعه أهل تدمر.

وسار إلى الضحاك في جمع عظيم، وخرج الضحاك إليه، فاقتتلا، فقتل الضحاك، وسار
زفر بن الحارث إلى قرقيسياء، وصحبه في هزيمته شابان من بني سليم؛ فجاءت خيل
مروان في طلبه، فقال الشابان له: انج بنفسك، فإنا نحن نقتل. فمضى زفر وتركهما فقتلا،
وقال زفر في ذلك:

أريني سلاحي لا أبالك إنني أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
أتاني عن مروان بالغيب أنه مقيد دمى أو قاطع من لسانيا
ففي العيش منجاة وفي الأرض مهرب إذا نحن رفعنا لهن المثانيا
فلا تحسبوني إن تغيبت غافلاً ولا تفرحوا إن جئتكم بلقائيا
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزارات النوس كماهيا
لعمري لقد أبقت وقيعة راهط لحسان صدعا بيننا متنائيا
فلم ترمني نبوة قبل هذه فرارى وتركى صاحبي ورائيا
عشية أدعو بالقران فلا أرى من الناس إلا من على ولاليا
أيذهب يوم واحد إن أسأته بصالح أيامي وحسن بلائيا
فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا ويثأر من نسوان كلب نسائيا

فأجابه جواس بن القعطل:

لعمري لقد أبقت وقيعة راهط على زفرداء من الداء باقيا
مقيما ثوى بين الضلوع محله وبين الحشا أعيا الطبيب المداويا
تبكي على قتلى سليم وعامر وذبيان معذوراً وتبكي البواكيا
دعا بسلاح ثم أحجم إذ رأى سوف جناب والطوال المذايا
عيها كأسد الغاب فتيان نجدة إذا أشرعوا نحو الطعان العواليا

مسيره إلى مصر
واستيلائه عليها

قال: ولما قتل الضحاك واستقر الشام لمروان سار إلى مصر فقدمها، وعليها عبد الرحمن بن
حجدر الفهري يدعو لابن الزبير، فخرج إلى مروان فيمن معه، وبعث مروان عمرو بن سعيد
من ورائه، حتى دخل مصر، فقيل ذلك لابن حجدر، فرجع فبايع الناس مروان، وجاء
مروان إلى مصر، ودخل الدار البيضاء، ثم سارعنها واستعمل عليها ابنه عبد العزيز ابن
مروان، واستقر مروان بدمشق.

البيعة لعبد الملك
وعبد العزيز ابني مروان ابن الحكم بولاية العهد

وفي سنة خمس وستين أمر مروان بالبيعة لابنيه: عبد الملك، وعبد العزيز، وكان سبب
ذلك أن عمرو بن سعيد كان قد توجه إلى فلسطين، وقاتل مصعب بن الزبير حين وجهه
أخوه عبد الله إليها فهزم مصعبا، ورجع إلى مروان وهو بدمشق، وقد غلب على الشام
ومصر، فبلغ مروان أن عمرو بن سعيد يقول: إن الأمر لي من بعد مروان، فدعا حسان بن
مالك بن بحدل، فأخبره بما بلغه عن عمرو، فقال: أنا أكفيك عمراً. فلما اجتمع الناس عند
مروان قام حسان فقال: إنه بلغني أن رجالاً يتمنون أماني، قوموا فبايعوا لعبد الملك وعبد
العزيز من بعده، فبايعوا من عند آخرهم.
وفي هذه السنة بعث مروان بن الحكم بعثين: أحدهما مع عبيد الله بن زياد إلى الجزيرة
ومحاربة زفر بن الحارث بقرقيسيا، واستعمله على كل ما يفتتحه، فإذا فرغ من الجزيرة توجه
لقصد العراق. فلما كان بالجزيرة بلغه موت مروان، وأتاه عهد عبد الملك بن مروان يستعمله
على ما استعمله عليه أبوه ويحثه على المسير إلى العراق.
والبعث الثاني مع حبيش بن دلجة القيني، فسار حتى انتهى إلى المدينة وعليها جابر بن
الأسود بن عوف ابن أخي عبد الرحمن بن عوف من قبل ابن الزبير، فهرب منه جابر.
ثم إن الحارث بن أبي ربيعة وجه جيشاً من البصرة وجعل عليهم الحنتف بن السجف
التميمي لحرب حبيش. فلما سمع بهم حبيش سار إليهم من المدينة، وأرسل عبد الله بن
الزبير عباس ابن سهل الساعدي إلى المدينة أميرا، وأسره أن يسير في طلب حبيش حتى
يوافي جيش البصرة، فأقبل عباس في آثارهم حتى لحقهم بالربذة فقاتلهم حبيش، فرماه يزيد
بن سياه بسهم فقتله، وكان معه يومئذ يوسف بن الحكم، وابنه الحجاج بن يوسف، وهما
على جمل واحد، وانهزم أصحابه فتحرز منهم خمسمائة بالمدينة، فقال لهم عباس: انزلوا
على حكمي، فنزلوا فقتلهم، ورجع فل حبيش إلى الشام.

وفاة مروان بن الحكم

كانت وفاته في شهر رمضان سنة خمس وستين. قيل: مات بالطاعون. وقيل: بل كان

سبب موته أنه لما بويع بالخلافة أراد حسان بن بحدل أن يجعل الأمر من بعده لخالدبن يزيد
بن معاوية، فبايعه على ذلك، فقيل لمروان: الرأي أن تتزوج أم خالد تكفل ابنها حتى يصغر
شأنه فلا يطلب الخلافة. فتزوجها.
وقد ذكرنا ذلك، فدخل خالد يوماً على مروان، وعنده جماعة فنظر إليه وهو يمشي بين
الصفين فقال: إنه والله لأحمق، تعال: يا بن الرطبة الاست، يريد بذلك إسقاطه من أعين أهل
الشام، فقال له خالد: مؤتمن خائن. فندم مروان، ثم دخل خالد على أمه، فقال: هكذا
أردت، يقول لي مروان على رءوس الناس كذا وكذا. فقالت له: لا يعلمن ذلك منك، فأنا
أكفيك، فوالله لا ترى بعد منه شيئاً تكرهه، وسأقرب عليك ما بعد.
ثم دخل مروان عليها، فقال لها: قال لك خالد في شيئا ؟ قالت: إنه أشد تعظيماً لك من
أن يقول فيك شيئاً. فصدقها، ومكثت أياماً بعد ذلك، فنام مروان عندها في بعض الأيام،
فوضعت على وجهه وسادة، وجلست عليها حتى مات. وهو معدود ممن قتله النساء.
ومولده سنة اثنتين من الهجرة، وكان عمره ثلاثا وستين سنة. واختلف فيه إلى نيف
وثمانين سنة. وصلى عليه ابنه عبد الملك، وكانت ولايته منذ جددت له البيعة عشرة
أشهر تقريباً، وكان سلطانه بالشام ومصر.
أولاده: عبد الملك، ومعاوية، وعمرو، وعبيد الله، وعبد الله، وأبان، وداود، وعبد العزيز،
وعبد الرحمن، وبشر، ومحمد، وأم عمار.
كاتبه: سفيان الأحول. وقيل: عبيد اله بن أوس.
قاضيه: أبو إدريس الخولاني.
حاجبه: أبو سهل مولاه.
نقش خاتمه: الله ثقتي ورجائي.
ومروان أول من قدم الخطبة قبل صلاة العيد، وكان يقال له ولولده بنو الزرقاء، يقول ذلك
من يريد ذمهم وعيبهم، وهي الزرقاء بنت موهب جدة مروان لأبيه، كانت من ذوات
الرايات التي يستدل بها على بيوت البغايا؛ فلهذا كانوا يذمون بها، ولعل هذا منها كان قبل
أن يتزوجا أبو العاص بن أمية والد الحكم، فإنه كان من أشراف قريش، ولا يكون هذا من
امرأة وهي عنده. والله أعلم.

عبد الملك بن مروان

هو أبو الوليد عبد الملك بن مروان بن الحكم، وهو الخامس من ملوك بني أمية.

وأمه عائشة بنت المغيرة بن أبي العاص، وهو أول من سمي عبد الملك في الإسلام، ولقب

رشح الحجر لبخله، ولقب أيضاً بأبي الذبان لبخره. وقيل: إن السبب في بخره أنه كان يتلو

القرآن في المصحف، فأفضت الخلافة إليه وهو يتلو، فرد المصحف بعضه على بعض، وقال:

هذا فراق بيني وبينك، يشير بهذا الكلام إلى المصحف فبخر لوقته، وعجزت الأطباء عن

مداواته، فكان لا يمر ذباب على فيه إلا مات لوقته؛ وكان أفوه مفتوح الفم مشبك الأسنان

بالذهب.

بويع له في شهر رمضان سنة خمس وستين بعد وفاة أبيه، وكان ولي عهده كما تقدم، وأراد

عبد الملك أن يقتل أم خالد، فقيل له: يظهر عند الناس أن امرأة قتلت أباك، فتركها، وكان

عبد الملك ولد لسبعة أشهر، فكان الناس يذمونه بذلك.

قيل: إنه اجتمع عنده قوم من الأشراف. فقال لعبيد الله ابن زياد بن ظبيان البكري:

بلغني أنك لا تشبه أباك ! فقال: والله إني لأشبه به من الماء بالماء والغراب بالغراب، ولكن

إن شئت أخبرتك بمن لم تنضجه الأرحام، ولم يولد لتمام، ولم يشبه الأخوال ولا الأعمام.

قال: من ذاك؟ قال: سويد بن منجوف.

فلما خرج عبيد الله وسويد قال له سويد: والله ما يسرني بمقالتك له حمر النعم. فقال

عبيد الله: وما يسرني والله باحتمالك إياي وسكوتك عني سودها.

قال: وكان أول ما بدأ به عبد الملك أن كتب إلى عبيد الله بن زياد واستعمله على ما كان

مروان قد استعمله عليه، فكان من أخبار ابن زياد في مسيره وحروبه ومقتله ما قدمناه في

أخبار عبد الله ابن الزبير، فلا حاجة لنا إلى إعادته ههنا، فلنذكر من أخبار عبد الملك

غير ما قدمنا ذكره:

في سنة ست وستين أرسل عبد الله بن عباس ابنه علي ابن عبد الله إلى عبد الملك،

وقال: لأن يربني بنو عمي أحب إلي من أن يربني رجل من بني أسد - يعني ببني عمه بني

أمية، لأنهم كلهم أولاد عبد مناف، ويعني بالرجل من بني أسد عبد الله بن الزبير.
فلما وصل إلى عبد الملك سأله عن اسمه وكنيته، فقال: الاسم علي، والكنية أبو الحسن.
فقال عبد الملك: لا يجتمع هذا الاسم وهذه الكنية في عسكري أنت أبو محمد.
مقتل عمرو بن سعيد
الأشدق وشيء من أخباره ونسبه
هو عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف، ويسمى عمرو
الطيم لميل كان في فمه، فمن أجل ذلك قيل له لطيم الشيطان، ويسمى الأشدق لتشادقه في
الكلام، وكان من فصحاء قريش وأهل الخطابة منهم. وقيل في تسميته الأشدق: إنه لما مات
سعيد والده دخل عمرو على معاوية فاستنطقه، فقال: إن أول مركب صعب. فقال له
معاوية: إلى من أوصى بك أبوك ؟ فقال: إن أبي أوصاني ولم يوصى بي. قال: فبأي شيء
أوصاك ؟ قال: ألا يفقد منه أصحابه غير شخصة. فقال معاوية: إن عمراً هذا لأشدق.
ولنذكر سبب مقتله ثم نذكر نبذة من أخبار آبائه:
كان سبب مقتله أن عبد الملك بن مروان سار في سنة تسع وستين من دمشق يريد
قرقيسياء، يريد زفر بن الحارث الكلابي، وصحبه عمرو بن سعيد في سيره، فلما بلغ بطنان
حبيب رجع عمرو ليلا ومعه حميد بن حريث وزهير بن الأبرد الكلبيان، فأتى دمشق
وعليها عبد الرحمن ابن أم الحكم الثقفي خليفة عبد الملك بها، فهرب عنها ودخلها عمرو،
فغلب عليها وعلى خزائنها، وهدم دار ابن أم الحكم؛ واجتمع الناس إليه، فخطبهم ومناهم
ووعدهم، وأصبح عبد الملك وقد فقد عمراً، فسأل عنه فأخبر برجوعه، فرجع إلى
دمشق، فقاتله أياماً، ثم اصطلحا، وكتبا بينهما كتابا، وأمنه عبد الملك، فجاءه عمرو
واجتمعا، ودخل عبد الملك دمشق.
فلما كان بعد دخوله بأربعة أيام أرسل إلى عمرو يستدعيه، فأتاه الرسول وعنده عبد الله
بن يزيد بن معاوية، فنهاه أن يأتيه، فقال عمرو: ولم ؟ قال: لأن تبيع ابن امرأة كعب الأحبار
قال: إن عظيماً من ولد إسماعيل يرجع فيغلق أبواب دمشق، ثم يخرج منها، فلا يلبث أن

يقتل. فقال عمرو: والله لو كنت نائماً ما أنبهني ابن الزرقاء ولا اجترأ علي، مع أني رأيت
البارحة عثمان في المنام، فألبسني قميصه.
ثم قام فلبس درعاً وغطاها بالقباء، وتقلد سيفاً، وذلك بعد أن صرف رسول عبد الملك،
فلما نهض عثر بالبساط، فقال له حميد ابن حريث: والله لو أطعتني لم تأته، وقالت له امرأته
الكلبية كذلك، فلم يلتفت، ومضى في مائة من مواليه.
فلما بلغ باب عبد الملك أذن له فدخل فلم يزل أصحابه يحبسون عند كل باب حتى بلغ
قاعة الدار، وليس معه إلا وصيف واحد، فنظر عمرو إلى عبد الملك وإذا حوله بنو
مروان، وحسان بن بحدل الكلبي، وقبيصة بن ذويب الخزاعي، فلما رأى جماعتهم أحس
بالشر، فالتفت إلى وصيفه، وقال له: انطلق إلى أخي يحيى، وقل له يأتين، فلم يفهم الوصيف
عنه، فقال: لبيك ! فقال عمرو: اغرب في حرق الله وناره، وأذن عبد الملك لحسان
وقبيصة فقاما، فلقيا عمراً، فقال عمرو لقبيصة: انطلق إلى يحيى فمره أن يأتيني، فقال:
لبيك ! فقال: اغرب عني.
فلما خرج حسان وقبيصة أغلقت الأبواب، ودخل عمرو فرحب به عبد الملك، وقال:
ههنا يا أبا أمية ! فأجلسه معه على السرير، وحدثه طويلاً، ثم قال: يا غلام، خذ السيف
عنه. فقال عمرو: إنا لله يا أمير المؤمنين ! فقال عبد الملك: أتطمع أن تجلس معي متقلداً
سيفك ؟ فأخذ السيف عنه، ثم تحدثا، ثم قال: له عبد الملك: يا أبا أمية، إنك حيث
خلعني آليت بيمين إن أنا ملأت عيني منك وأنا مالك لك أن أجعلك في جامعة، فقال له بنو
مروان: ثم تطلقه يا أمير المؤمنين ؟ قال: نعم، وما عسيت أن أصنع بأبي أمية ! فقال بنو
مروان: أبر قسم أمير المؤمنين. فقال عمرو: قد أبر الله قسمك يا أمير المؤمنين. فأخرج من
تحت فراشه جامعة، ثم قال: يا غلام، قم فاجمعه فيها. فجمعه الغلام فيها، فقال عمرو:
أذكرك الله يا أمير المؤمنين أن تخرجني فيها على رءوس الناس؛ فقال عبد الملك: أمكراً
وأنت في الحديد ! لا والله ما كنا لنخرجك في جامعة على رءوس الناس، ثم جذبه جذبة

أصاب فمه السرير فكسر ثنيتيه، فقال: أذكرك الله يا أمير المؤمنين؛ كسر عظم سني، فلا
تركب ما هو أعظم من ذلك. فقال: والله لو أعلم أنك تبقي علي إن أبقيت عليك
لأطلقتك، ولكن ما اجتمع رجلان قط في بلدة على ما نحن عليه إلا أخرج أحدهما
صاحبه، وأذن المؤذن، وأقيمت صلاة العصر، فخرج عبد الملك يصلي بالناس، وأمر أخاه
عبد العزيز أن يقتله، فقام إليه بالسيف، فقال له عمرو: أذكرك الله والرحم أن تلي قتلي،
ليقتلني من هو أبعد رحماً منك؛ فألقى عبد العزيز السف، وجلس. وصلى عبد الملك
صلاة خفيفة، ودخل وغلقت الأبواب، ورأى الناس عبد الملك خرج وتأخر عمرو، فذكروا
ذلك لأخيه يحيى بن سعيد، فأقبل في الناس ومعه ألف عبد لعمرو، وخلق كثير، فجعلوا
يصيحون بباب عبد الملك: أسمعنا صوتك يا أبا أمية ! وأقبل مع يحيى حميد بن حريث
وزهير بن الأبرد، فكسروا باب المقصورة، وضربوا الناس بالسيوف وضرب الوليد بن عبد
الملك على رأسه، واحتمله إبراهيم بن عربى صاحب الديوان، فأدخله بيت القراطيس،
ودخل عبد الملك حين صلى فرأى عمراً بالحياة، فسب أخاه عبد العزيز، ثم أخذ عبد
الملك الحربة فطعن بها عمراً، فلم تغن شيئاً، ثم ثنى فلم تجز، فضرب بيده إلى عضده
فرأى الدرع، قال: ودارع أيضاً! إن كنت لمعدا، وأخذ الصمصامة وأمر بعمرو فصرع،
وجلس على صدره فذبحه، وهو يقول:

يا عمرو إلا تدع شتمى ومنقصتي أضربك حيث تقول الهامة اسقوني

وانتفض عبد الملك برعدة، فحمل عن صدره، ووضع على سريره.
ودخل يحيى بن سعيد ومن معه على بني مروان ومواليهم، فقاتلوهم، وجاء عبد الرحمن
ابن أم الحكم الثقفي، فدفع إليه الرأس فألقاه إلى الناس، وقام عبد العزيز بن مروان، فأخذ
المال في البدر، فجعل يلقيها إلى الناس، فلما رأى الناس الرأس والأموال انتهبوا وتفرقوا.
ثم أمر عبد الملك بعد ذلك بتلك الأموال فجبيت حتى عادت إلى بيت المال.

قال: وأخرج عبد الملك سريره إلى المسجد، وخرج، فجلس عليه، وفقد الوليد ابنه، فقال:
والله، لئن كانوا قتلوه لقد أدركوا ثأرهم، فأتاه إبراهيم بن عربي الكناني، فقال: الوليد عندي
وقد جرح، وليس عليه بأس.
وأتى عبد الملك بيحيى بن سعيد فأمر أن يقتل؛ فقام إليه عبد العزيز ابن مروان فقال: يا
أمير المؤمنين، أتراك قاتل بني أمية في يوم واحد، فأمر بيحيى فحبس، وأراد قتل عنبسه بن
سعيد، فشفع فيه عبد العزيز أيضاً، وشفع في عامر بن الأسود الكلبي، وأمر ببني عمرو بن
سعيد فحبسوا؛ ثم خرجوا مع عمهم يحيى، فألحقهم بمصعب.
ثم بعث عبد الملك إلى
امرأة عمرو الكلبية: ابعثي إلى الصلح الذي كتبت لعمرو. فقالت لرسوله: ارجع إليه
فأعلمه أن ذلك الصلح معه في أكفانه ليخاصمك به عند ربه.
قال: ولما قتل عبد الملك مصعب بن الزبير دخل أولاد عمرو عليه وهم أربعة: أمية،
وسعيد، وإسماعيل، ومحمد؛ فلما نظر إليهم عبد الملك قال: إنكم أهل بيت لم تزالوا ترون
لكم على جميع قومكم فضلاً لم يجعله الله لكم، وإن الذي كان بيني وبين أبيكم لم يكن
حديثاً، بل كان قديماً في أنفس أوليكم على أولينا في الجاهلية.
فلم يقدر أمية أن يتكلم. وكان الأكبر من أولاد عمرو، فقام سعيد بن عمرو وكان الأوسط
فقال: يا أمير المؤمنين، ما تنعى علينا أمراً في الجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام فهدم ذلك،
ووعد جنة، وحذر ناراً، وأما الذي كان بينك وبين عمرو فإنه كان ابن عمك وأنت أعلم
وما صنعت. وقد وصل عمرو إلى الله، وكفى بالله حسيباً؛ ولعمري لئن أخذتنا بما كان
بينك وبينه لبطن الأرض خير لنا من ظهرها، فرق لهم عبد الملك وقال: إن أباكم خيرني
بين أن يقتلني أو أقتله، فاخترت قتله على قتلي، وأما أنتم فما أرغبني فيكم وأوصلني
لقرابتكم، وأحسن جائزتهم ووصلهم وقربهم.
وقد قيل في سبب قتله: إنه قال لعبد الملك حين سار إلى العراق لقتال مصعب: إنك تخرج
إلى العراق، وقد كان أبوك جعل لي الأمر بعده، وعلى ذلك قاتلت معه، فاجعل هذا الأمر
لي بعدك، فلم يجبه عبد الملك إلى ذلك، فرجع إلى دمشق، وكان من أمره ما تقدم.

وقيل: بل كان عبد الملك قد استخلفه على دمشق، فوثب بها.
وقيل: إن عبد الملك لم يقتل عمرو بن سعيد بيده، وإنما أمر غلامه ابن الزعيزعة، فقتله
وألقى رأسه إلى الناس ورمى يحيى بصخرة في رأسه، وكان مقتله في سنة تسع وستين.
وقيل: في سنة سبعين. والله أعلم.
ذكر نبذة من أخبار عمرو بن سعيد الأشدق في الإسلام والجاهلية
كان مولد سعيد بن العاص والد عمرو عام الهجرة. وقيل: سنة إحدى. وقتل جده
العاص بن سعيد يوم بدر كافراً، قتله على ابن أبي طالب رضي الله عنه، وكان لجد أبيه
سعيد بن العاص ابن أمية ثمانية بنين؛ منهم ثلاثة ماتوا على الكفر، وهم: أحيحة، وبه كان
يكنى سعيد بن العاص، وقتل أحيحة يوم الفجار. والعاص، وعبيدة قتلا يوم بدر كافرين،
قتل العاص علي، وقتل عبيدة الزبير؛ وخمسة أدركوا الإسلام، وصحبوا رسول الله صلى
الله عليه وسلم؛ وهم: خالد، وعمرو، وسعيد؛ وأبان، والحكم بنو سعيد ابن العاص بن
أمية، وغير رسول الله صلى الله عليه وسلم اسم الحكم، فسماه عبد الله. وجد هؤلاء
العاص بن أمية ذو العصابة؛ قيل له ذلك، لأنه كان من شرفه إذا اعتم بعمامة بمكة لا يعتم
أحد بلونها إجلالا له، وكان يكنى بأبي أحيحة، وفي ذلك يقول الشاعر:
أبو أحيحة من يعتم عمته يضرب ولو كان ذا مال وذا حسب
وكان سعيد بن العاص والد عمرو من أشراف قريش ممن جمع له السخاء والفصاحة، وهو
أحد الذين كتبوا المصحف لعثمان بن عفان رضي الله عنه، واستعمله عثمان على
الكوفة، وغزا بالناس طبرستان فافتتحها. ويقال: إنه افتتح أيضاً جرجان في سنة تسع
وعشرين أو سنة ثلاثين، وغز أذربيجان لما انتقضت فافتتحها، ثم عزله عثمان، واستعمل
الوليد، فمكث مدة، ثم شكاه أهل الكوفة، فعزله، ورد سعيداً، فرده أهل الكوفة، وكتبوا
إلى عثمان: لا حاجة لنا في سعيدك ولا وليدك، وكان في سعيد تجبر وغظ وشدة
سلطان.
ولما قتل عثمان بن عفان كان سعيد والد عمرو ممن لزم بيته، واعتزل حرب الجمل وصفين،

فلما اجتمع الناس على معاوية ولاه المدينة، ثم عزله وولاها مروان بن الحكم، وكان يعاقب
بينه وبين مروان في ولاية المدينة، وفيه يقول الفرزدق:
ترى الغر الجحاجح من قريش إذا ما المرء في الحدثان غالا
قياماً ينظرون إلى سعيد كأنهمو يرون به هلالا
وحكى الزبير بن بكار قال: لما عزل سعيد عن المدينة انصرف عن المسجد وحده، فتبعه
رجل، فنظر إليه سعيد رضي الله عنه، وقال: ألك حاجة ! قال: لا، ولكني رأيتك
وحدك، فوصلت جناحك. فقال له: وصلك الله يا ابن أخي، اطلب لي دواة وجلداً،
وادع لي مولاي فلانا، فأتاه بذلك، فكتب له بعشرين ألف درهم، وقال: إذا جاءت غلتنا
دفعنا ذلك إليك، فمات في تلك السنة، فأتى بالكتاب إلى ابنه عمرو، فأعطاه المال.
وكان لسعيد بن العاص سبعة بنين، وهم: عمرو هذا ومحمد، وعبد الله، ويحيى،
وعثمان، وعنبسة، وأبان.
وكانت وفاة سعيد في سنة تسع وخمسين. ولنرجع إلى أخبار عبد الملك:
عصيان الجراجمة
بالشام وما كان من أمرهم
هذه الحادثة ذكرها ابن الأثير في سنة تسع وستين، فقال: لما امتنع عمرو بن سعيد على
عبد الملك خرج قائد من قواد الضواحي في جبل اللكام واتبعه خلق كثير من الجراجمة
والأنباط، وأباق عبيد المسلمين، وغيرهم، وسار إلى لبنان، فلما فرغ عبد الملك من عمرو
أرسل إلى هذا الخارج عليه، فبذل له في جمع ألف دينار، فركن إلى ذلك، ولم يفسد في
البلاد، ثم وضع عليه عبد الملك سحيم بن المهاجر، فتلطف حتى وصل إليه متنكراً،
وأظهر الميل إليه، ووعده أن يدله على عورات عبد الملك، وما هو خير له من الصلح؛ فوثق
به، ثم أتاه سحيم في جيش من موالي عبد الملك وبني أمية وجند من ثقات جنده والخارج
ومن معه على غير أهبة، فدهمهم، وأمر فنودي: من أتانا من العبيد يعني الذين كانوا معه
فهو حر، وثبت في الديوان؛ فالتحق به خلق كثير منهم، وقاتلوا معه، فقتل الخارج ومن أعانه
من الروم، وقتل نفر من الجراجمة والأنباط، ونادى بالأمان فيمن بقي منهم فتفرقوا، وعاد إلى

عبد الملك ووفى للعبيد.
وفي سنة تسع اجتمعت الروم واستجاشوا على من بالشام، فصالح عبد الملك ملكهم على
أن يؤدى إليه في كل جمعة ألف دينار.
وفيها كان يوم الجفرة وقد تقدم ذكره في أخبار ابن الزبير رضي الله عنه.
خبر عمير
بن الحباب بن جعدة السلمي
وما كان بين قيس وتغلب من الحروب إلى أن قتل عمير ابن الحباب وما كان بعد ذلك.
كان مقتل عمير بن الحباب في سنة سبعين، وكان سبب ذلك أن عمير بن الحباب لما
انقضى مرج راهط التحق بزفر بن الحارث الكلابي بقرقيسيا، ثم بايع مروان وفي نفسه ما
فيها بسبب قتل قيس بالمرج، فلما سار عبيد الله بن زياد إلى الموصل كان معه، وقد ذكرنا
اتفاقه مع إبراهيم بن الأشتر وانهزامه، حتى قتل عبيد الله بن زياد، وانهزمت جيوش
الشام، فلما كان ذلك أتى عمير ابن الحباب قرقيسيا، وصار مع زفر بن الحارث، فجعلا
يطبان كلباً واليمانية بمن قتلوا من قيس، وكان معهما قوم من تغلب يقاتلون معهما،
ويدلونهما، وشغل عبد الملك عنهما بمصعب، وتغلب عمير على نصيبين، ثم مل المقام
بقرقيسيا، فاستأمن إلى عبد الملك، فأمنه، ثم غدر به فحبسه عند مولاه الريان، فسقاه
عمير ومن معه من الحرس خمراً حتى أسكرهم، وتسلق في سلم من الحبال، وخرج من
الحبس، وعاد إلى الجزيرة، ونزل على نهر البليخ بين حران والرقة، فاجتمعت إليه قيس،
فكان يغير بهم على كلب واليمانية، وكان من معه يسيئون جوار تغلب، ويسخرون
مشايخهم من النصارى، فهاج ذلك بينهم شراً، إلا أنه لم يبلغ الحرب. ثم إن عمير أغار على
كلب، ورجع فنزل على الخابور، وكانت منازل تغلب بين الخابور والفرات ودجلة، وكانت
بحيث نزل عمير - امرأة من تميم ناكح في تغلب، يقال لها أم ذويل، فأخذ غلام من بني
الحريش أصحاب عمير عنزاً من إنهما، فشكت ذلك إلى عمير، فلم يمنع عنها، فأخذوا
الباقي، فمانعهم قوم من تغلب، فقتل منهم رجل يقال له مجاشع التغلبي، وجاء ذويل فشكت

أمه إليه، وكان من فرسان تغلب، فسار في قومه وجعل يذكرهم ما يصنع بهم قيس، فاجتمع
منهم جماعة وأمروا عليهم شعيث ابن مليل التغلبي، فأغاروا على بني الحريش ومعهم قوم
من نمير، فقتل فيهم التغلبيون واستاقوا ذوداً لامرأة منهم يقال لها أم الهيثم، فمانعهم
القيسيون، فلم يقدروا على منعهم، فكان بينهم أيام مذكورة نن نذكرها على سبيل
الاختصار؛ منها:

يوم ماكسين:

قال: ولما استحكم الشر بين قيس وتغلب؛ وعلى قيس عمير، وعلى تغلب شعيث بن
مليل غزا عمير بني تغلب وجماعتهم بماكسين من الخابور فاقتتلوا قتالاً شديداً، وهي أول
وقعة كانت بينهم، فقتل من بني تغلب خمسمائة وقتل شعيث، وكانت رجله قد قطعت،
فجعل يقاتل حتى قتل، وهو يقول:

قد علمت قيس ونحن نعلم أن الفتى يقتل وهو أجذم

ويوم الثرثار الأول:

والثرثار نهر أصل منبعه شرقي مدينة سنجار يفرغ في دجلة.

قال: لما قتل من تغلب بماكسين من قتل استمدت تغلب وحشدت واجتمعت إليها النمر بن
قاسط، وأتاها المجشر ابن الحارث الشيباني. وكان من ساداتهم بالجزيرة، وأتاها عبيد الله
ابن زياد بن ظبيان منجداً لهم، واستنجد عمير تميما وأسداً فلم ينجده منهم أحد، فالتقوا
على الثرثار، وقد جعلت تغلب عليها بعد شعيث زياد بن هوبر، ويقال يزيد بن هوبر
التغلبي، فاقتتلوا، فانهزمت قيس، وقتلت تغلب منها مقتلة عظيمة، وبقروا بطون ثلاثين امرأة
من بني سليم.

ويوم الثرثار الثاني:

قال: ثم إن قيساً تجمعت واستمدت، وأتاهم زفر بن الحارث من قرقيسيا، فالتقوا بالثرثار،
واقتتلوا قتالاً شديدا، فانهزمت تغلب ومن معها.

ويوم الفدين:

قال: وأغار عمير على الفدين، وهي قرية على الخابور فقتل من بها من بني تغلب.

ويوم السكير:

وهو على الخابور؛ يسمى سكير العباس؛ قال: ثم اجتمعوا والتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً،

فانهزمت تغلب والنمر، وهرب عمير ابن جندل، وهو من فرسان تغلب؛ فقال عمير بن
الحباب:

وأفلتنا يوم السكير ابن جندل على سابح عوج اللبان مثابر
ونحن كررنا الخيل قبا شوازبا دقاق الهوادى داميات الدوابر

ويوم المعارك:

والمعارك بين الحضر والعقيق من أرض الموصل، اجتمعت تغلب بهذا المكان فالتقوا هم
وقبس، واقتتلوا به، فاشتد قتالهم، فانهزمت تغلب، فيقال: إن يوم المعارك والحضر واحد
هزموهم إلى الحضر، وقتلوا منهم بشراً كثيراً، وقيل: هما يومان، كانا لقيس على تغلب.
والتقوا أيضاً بلبي فوق تكريت فتناصفوا، فقيس تقول: كان الفضل إلي، وتغلب تقول: كان
لنا.

ويوم الشرعبية:

ثم التقوا بالشرعبية فكان بينهم قتال شديد كان لتغلب على قيس، قتل يومئذ عمار بن
المهزم السلمي. والشرعبية هذه من بلاد تغلب ليست الشرعبية التي ببلاد منبج.

ويوم البليخ:

والبليخ: نهر بين حران والرقة اجتمعت تغلب، وسارت إليه، وهناك عمير في قيس، فالتقوا
واقتتلوا فانهزمت تغلب، وكثر القتل فيها وبقرت بطون النساء كما فعلوا يوم الثرثار. والله
علم.

يوم الحشاك

ومقتل عمير بن الحباب السلمي وابن هوبر التغلبي

قال: ولما رأت تغلب إلحاح عمير بن الحباب عليها جمعت حاضرها وباديها، وساروا إلى
الحشاك - وهو نهر قريب من الشرعبية، فأتاهم عمير في قيس، ومعه زفر بن الحارث
الكلابي، وابنه الهذيل بن زفر، وعلى تغلب ابن هوبر، فاقتتلوا عند تل الحشاك أشد قتال
حتى جن عليهم الليل، ثم تفرقوا واقتتلوا من الغد إلى الليل، ثم تحاجزوا وأصبحت تغلب
في اليوم الثالث، فتعاقدوا ألا يفروا، فلما رأى عمير جدهم وأن نساءهم معهم قال لقيس: يا
قوم؛ أرى لكم أن تنصرفوا عن هؤلاء فإنهم مستقتلون، فإذا اطمأنوا وساروا وجهنا إلى كل
قوم منهم من يغير عليهم. فقال له عبد العزيز بن حاتم بن النعمان الباهلي: قتلت فرسان

قيس أمس وأول أمس، ثم ملىء سحرك وجبنت. ويقال: إن الذي قال هذه المقالة عيينة
بن أسماء بن خارجة الفزاري، وكان أتاه منجداً، فغضب عليه عمير ونزل وجعل يقاتل
راجلاً وهو يقول:

أنا عمير وأبو المغلس قد أحبس القوم بضنك فاحبس

وانهز زفر بن الحارث في اليوم الثالث، فلحق بقرقيسا، وذلك أنه بلغه أن عبد الملك عزم
على الحركة إليه بقرقيسيا، فبارد إليها، وانهزمت قيس، وشد على عمير جميل بن قيس
من بني كعب بن زهير فقتله.
ويقال: بل اجتمع على عمير غلمان من بني تغلب فرموه بالحجارة وقد أعيا حتى أثخنوه،
وكر عليه ابن هوبر فقتله، وأصابت ابن هوبر جراحة، فلما انقضت الحرب أوصى بني
تغلب أن يولوا أمرهم مرار بن علقمة الزهيري. وقيل: إن ابن هوبر جرح في اليوم الثاني من
أيامهم هذه، فأوصى أن يولوا مراراً أمرهم، ومات من ليلته، وكان مرار رئيسهم في اليوم
الثالث، فعبأهم على راياتهم، وأمر كل بني أب أن يجعلوا نساءهم خلفهم، وكان ما تقدم.
وكثر القتل يومئذ في بني سليم وغنى خاصة، وقتل من قيس أيضاً بشر كثير، وبعث بنو
تغلب رأس عمير إلى عبد الملك بن مروان؛ فأعطى الوفد، وكساهم. فلما صالح عبد
الملك زفر بن الحارث اجتمع الناس عليه، فقال الأخطل:

بني أمية قد ناضلت دونكمو أبناء قوم هم آووا وهم نصروا

وقيس عيلان حتى أقبلوا رقصا فبايعوا لك قسراً بعدما قهروا

ضجوا من الحرب إذ عضت غواربهم وقيس عيلان من أخلاقها الضجر

وكان مقتل عمير بن الحباب في سنة سبعين كما تقدم.
الحرب بعد مقتل عمير
بن الحباب السلمي
قال: ولما قتل عمير أتى ابنه تميم زفر بن الحارث، فسأله الطلب بثأره، فامتنع فقال له ابنه
الهذيل بن زفر: والله لئن ظفرت بهم تغلب إن ذلك لعار عليك، ولئن ظفروا بتغلب وقد
خذلتهم إن ذلك لأشد، فاستخلف زفر على قرقيسياء أخاه أوس بن الحارث ووجه زفر
خيلاً إلى بني فدوكس، وهم بطن من تغلب، فقتل رجالهم، واستبيحت الأموال والنساء

حتى لم يبق منهم غير امرأة واحدة استجارت، فأجارها يزيد بن حمران، ووجه ابنه الهذيل
في جيش إلى بني كعب بن زهير، فقتل فيهم قتلاً ذريعاً، وبعث أيضاً مسلم بن ربيعة
العقيلي إلى قوم من تغلب وقد اجتمعوا بالعقيق من أرض الموصل، فلما أحسوا به ارتحلوا
يريدون عبور دجلة، فلما صاروا بالكحيل وهو من أرض الموصل في جانب دجلة الغربي،
فلحقهم زفر بن الحارث به في القيسية، فاقتتلوا قتالاً شديداً؛ وترجل أصحاب زفر كلهم،
وبقي زفر على بغلة له فقتلوهم ليلتهم وبقروا بطون نساء منهم، وغرق في دجلة أكثر ممن قتل
بالسيف، وأتى فلهم لبي فوجه زفر ابنه الهذيل فأوقع بهم إلا من عبر فنجا، وأسر منهم زفر
مائتين فقتلهم صبراً، فقال في ذلك زفر:

ألا يا عين بكى بانسكاب وبكى عاصما وابن الحباب
فإن تك تغلب قتلت عميراً ورهطا من إن غنى في الحراب
فقد أفنى بني جشم بن بكر ونمرهم فوارس من كلاب
قتلنا منهمو مائتين صبراً وما عدلوا عمير بن الحباب

وأسر القطامي التغلبي في يوم من أيامهم، وأخذ ماله، فقام زفر بأمره حتى رد عليه ماله
ووصله، فقال فيه:

إني وإن كان قومي ليس بينهمو وبين قومك إلا ضربة الهادي
مثن عيك بما أوليت من حسن وقد تعرض مني مقتل بادي
يوم البشر

كان سبب هذا اليوم أن عبد الملك لما استقر له الأمر قدم عليه الأخطل الشاعر التغلبي
وعنده الجحاف بن حكيم السلمي، فقال له عبد الملك: أتعرف هذا يا أخطل ؟ قال:
نعم، هذا الذي أقول فيه:

ألا سائل الجحاف هل هو ثائر بقتلى أصيبت من سليم وعامر

وأنشد القصيدة حتى فرغ منها، وكان الجحاف يأكل رطبا فجعل النوى يتساقط من يده
غيظاً، ثم أجابه فقال:

بلى سوف نبكيهم بكل مهند وننعي عميراً بالرماح الشواجر

ثم قال يا ابن النصرانية؛ ما كنت أظن أن تجترىء علي بمثل هذا. فأرعد من خوفه، ثم
قام إلى عبد الملك فأمسك ذيله، وقال: هذا مقام العائذ بك. فقال: أنا لك، ثم قام الجحاف

فمشى وهو يجر ثوبه، ولا يعقل، فتلطف لبعض كتاب الديوان حتى اختلف له عهداً على
صدقات تغلب وبكر بالجزيرة، وقال لأصحابه: إن أمير المؤمنين ولانى هذه الصدقات، فمن
أراد اللحاق بي فليفعل.
ثم سار حتى أتى رصافة هشام، فأعلم أصحابه ما كان من الأخطل إليه، وأنه افتعل كتاباً
وأنه ليس له بوال، فمن كان يحب أن يغسل عني العار وعن نفسه فليصحبني، فإني أقسمت
ألا أغسل رأسي حتى أوقع ببني تغلب. فرجعوا عنه غير ثلاثمائة قالوا: نموت لموتك ونحيا
لحياتك، فسار ليلته حتى أصبح بالرحوب، وهو ماء لبني جشم بن بكر بن تغلب،
فصادف عليه جماعة عظيمة منهم، فقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر الأخطل وعيه عباءة
وسخة، وظن الذي أسره أنه عبد، فسأله عن نفسه، فقال: عبد. فأطلقه فرمى بنفسه في
جب، مخافة أن يراه من يعرفه فيقتله، وأسرف الجحاف في القتل، وبقر البطون عن الأجنة؛
وفعل أمراً عظيماً، فلما عاد عنهم قدم الأخطل على عبد الملك فأنشده:

لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعة إلى الله منها المشتكي والمعول

فطلب عبد الملك الجحاف فهرب إلى الروم، فكان يتردد فيها، ثم بعث إلى بطانة عبد
الملك من قيس، فطلبوا له الأمان، فأمنه عبد الملك، فلما جاء ألزمه ديات من قتل، وأخذ
منه الكفلاء، فسعى فيها حتى جمعها وأعطاها، ثم تنسك الجحاف بعد، وصلح، ومضى
حاجاً فتعلف بأستار الكعبة، وجعل يقول: اللهم اغفر لي، وما أظنك تفعل ! فسمعه محمد
ابن الحنفية، فقال: يا شيخ، قنوطك شر من ذنبك.
وقيل: كان سبب عود الجحاف أن ملك الروم أكرمه وقربه وعرض عليه النصرانية،
ويعطيه ما شاء، فامتنع، وقال: ما أتيتك غبة عن الإسلام.
ثم هزم الجحاف صائفة المسلمين، فأخبروا عبد الملك أن الذي هزمهم الجحاف، فأرسل
إليه عبد الملك، فأمنه، فسار في بلاد الروم، وقصد البشر وبه حي من تغلب وقد لبس
أكفانه، وقال: قد جئت إليكم أعطى القود من نفسي، فأراد شبابهم قتله، فنهاهم

شيوخهم، وعفوا عنه، فحج، فسمعه عبد الله بن عمر وهو يطوف ويقول: اللهم اغفر لي
وما أظنك تفعل ! فقال ابن عمر رضي الله عنهما: لو كنت الجحاف مازدت على هذا.
قال: فأنا الجحاف.
ذكر مسير عبد الملك بن مروان إلى العراق
قتل مصعب بن الزبير
واستيلاء عبد الملك على العراق
وفي جمادي الآخرة سنة إحدى وسبعين كان مقتل مصعب بن الزبير بن العوام واستيلاء
عبد الملك على العراق؛ وسبب ذلك أن عبد الملك بن مروان لما قتل عمروا بن سعيد كما
تقدم وضع السيف على من خالفه، فصفا له الشام، فلما لم يبق له بالشام مخالف أجمع
المسير إلى مصعب بن الزبير بالعراق، فاستشار أصحابه في ذلك، فأشار عليه عمه يحيى
بن الحكم أن يقنع بالشام ويترك ابن الزبير والعراق، فكان عبد الملك يقول: من أراد صواب
الرأي فليخالف يحيى. وأشار بعضهم أن يؤخر السير هذا العام، وأشار محمد بن مروان
أن يقيم ويبعث بعض أهله، ويمده بالجنود. فأبى إلا المسير.
فلما عزم على المسير ودع
زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية، فبكت فبكى جواريها لبكائها، فقال: قاتل الله كثير
عزة، لكأنه يشاهدنا حين يقول:

إذا ما أراد الغزو لم يثن همه حصان عليها عقد در يزينها
نهته فلما لم تر النهى عاقه بكت فبكى مما عناها قطينها

وسار عبد الملك نحو العراق، فلما بلغ مصعب بن الزبير مسيره وهو بالبصرة أرسل إلى
المهلب بن أبي صفرة وهو يقاتل الخوارج يستشيره. وقيل: بل أحضره إليه، فقال لمصعب:
اعلم أن أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك وكاتبهم فلا تبعدني عنك.
فقال له مصعب: إن أهل البصرة قد أبوا أن يسيروا حتى أجعلك على قتال الخوارج، وهم
قد بلغوا سوق الأهواز، وأنا أكره إذ سار عبد الملك إلي ألا أسير إليه، فاكفني هذا الثغر.
فعاد إليهم، وسار مصعب إلى الكوفة ومعه الأحنف فتوفي الأحنف بالكوفة، وأحضر
مصعب إبراهيم بن الأشتر، وكان على الموصل والجزيرة، فجعله على مقدمته، وسار حتى

نزل باجميرا قريب أوانا فعسكر هناك، وسار عبد الملك حتى نزل بمسكن على فرسخين أو
ثلاثة من عسكر مصعب.
وكتب عبد الملك إلى أهل العراق من كاتبه ومن لم يكاتبه، فجميعهم طلب أصفهان
طعمة، وأخفوا جميعهم كتبهم عن مصعب إلا ابن الأشتر فإنه أحضر كتابه مختوماً إلى
مصعب، فقرأه فإذا هو يدعوه إلى نفسه، ويجعل له ولاية العراق. فقال له مصعب: أتدري
ما فيه ؟ قال: لا، قال: إنه يعرض عليك كذا وكذا، وإن هذا لما يرغب فيه. فقال إبراهيم:
ما كنت لأتقلد الغدر والخيانة، والله ما عند عبد الملك من أحد من الناس بايأس منه
منى، ولقد كتب إلى جميع أصحابك مثل الذي كتب إلي، فأطعني واضرب أعناقهم. فقال:
إذاً لا تناصحني عشائرهم.
قال: فأوقرهم حديداً، وابعث بهم إلى أبيض كسرى، واحبسهم هنالك، ووكل بهم من إن
غلبت وتفرقت عشائرهم عنك ضرب رقابهم، وإن ظهرت مننت على عشائرهم
بإطلاقهم. فقال: إني لفي شغل عن ذلك.
ولما قرب العسكران بعث عبد الملك إلى مصعب يقول: دع الدعاء لأخيك، وأدع الدعاء
إلى نفسي، ونجعل الأمر شورى. فأبى مصعب إلا السيف.
فقدم عبد الملك أخاه محمداً. وقدم المصعب إبراهيم بن الأشتر، فالتقيا، فتناوش الفريقان،
فقتل صاحب لواء محمد، وجعل مصعب يمد إبراهيم، فأزال محمد بن مروان عن موقفه،
فوجه عبد الملك عبد الله بن يزيد إلى أخيه محمد، فاشتد القتال، فقتل مسلم بن عمرو
الباهلي والد قتيبة، وهو في أصحاب مصعب، وأمد مصعب إبراهيم بعتاب بن ورقاء؛
فساء ذلك إبراهيم، واسترجع، وقال: قد قلت له: لا يمدني بعتاب وضربائه. وكان عتاب
قد كاتب عبد الملك وبايعه، فانهزم عتاب بالناس وصبر ابن الأشتر، وقاتل حتى قتل، قتله
عبيد بن ميسرة مولى بني عذرة، وحمل رأسه إلى عبد الملك.
وتقدم أهل الشام فقاتلهم مصعب، وقال لقطن بن عبد الله الحارثي: قدم خيلك أبا
عثمان. فقال: أكره أن تقتل مذحج في غير شيء. فقال لحجار بن أبجر: أبا أسيد: قدم
خيلك. فقال: إلى هؤلاء الأنتان ! قال: ما نتأخر إليه أنتن.

وقال لمحمد بن عبد الرحمن بن سعيد: قدم خيلك. فقال: ما فعل أحد هذا فأفعله. فقال
مصعب: يا إبراهيم، ولا إبراهيم لي اليوم ! ثم التفت فرأى عروة بن المغيرة بن شعبة
فاستدناه، فقال له: أخبرني عن الحسين بن علي كيف صنع بامتناعه عن النزول على حكم
ابن زياد وعزمه على الحرب ؟ فأخبره، فقال:

إن الألى بالطف من آل هاشم تأسوا فسنوا للكرام التأسيا

ثم دنا محمد بن مروان من مصعب، وناداه: أنا ابن عمك محمد ابن مروان، فاقبل أمان أمير
المؤمنين. قال: أمير المؤمنين بمكة، يعنى أخاه عبد الله. قال: فإن القوم خاذلوك، فأبى ما
عرض عليه.
فنادى محمد عيسى بن مصعب إليه، فقال له مصعب: انظر ما يريد، فدنا منه، فقال له:
إني لك ولأبيك ناصح، ولكما الأمان. فرجع إلى أبيه فأخبره. فقال: إني أظن القوم يفون
لك، فإن أحببت أن تأتيهم، فافعل. قال: لا تتحدث نساء قريش أني خذلتك، ورغبت
بنفسي عنك. قال: فاذهب أنت ومن معك إلى عمك بمكة، فأخبره بما صنع أهل العراق
ودعني فإني مقتول. فقال: لا أخبر قريشا عنك أبداً، ولكن يا أبت الحق بالبصرة فإنهم
على الطاعة، أو الحق بأمير المؤمنين. فقال مصعب: لا تتحدث قريش أني فررت.
وقال لابنه عيسى: تقدم إذاً أحتسبك. فتقدم ومعه ناس، فقتل، وقتلوا، وجاء رجل من
أهل الشام ليحتز رأس عيسى، فحمل عليه مصعب فقتله، وشد على الناس فانفرجوا له،
وعاد، ثم حمل ثانية فانفرجوا له، وبذل له عبد الملك الأمان، وقال: إنه يعز علي أن تقتل،
فاقبل أماني. ولك حكمك في المال والعمل، فأبى، فقال عبد الملك: هذا والله كما قال
القائل:

ومدجج كره الكماة نزاله لا ممعن هرباً ولا مستسلم

ودخل مصعب سرادقه فتحنط ورمى السرداق، وخرج فقاتل، فأتاه عبيد الله بن زياد بن
ظبيان فدعاه إلى المبارزة فقال: يا كلب، اغرب، مثلي يبارز مثلك ! وحمل عليه مصعب
فضربه على البيضة فهشمها وجرحه، فذهب يعصب رأسه، وترك الناس مصعباً وخذلوه

حتى بقي في سبعة أنفس، وأثخن بالرمي، وكثرت فيه الجراحات، فعاد إليه عبيد الله بن
زياد بن ظبيان فضربه مصعب، فلم يصنع شيئاً لضعفه، وضربه ابن ظبيان فقتله. وقيل:
بل نظر إليه زائدة بن قدامة الثقفي فحمل عليه، فطعنه فقال: يالثارات المختار ! فصرعه
وأخذ عبيد الله بن زياد رأسه وحمله إلى عبد الملك، فألقاه بين يديه وأنشد:

نعاطى الملوك الحق ما قسطوا لنا وليس علينا قتلهم بمحرم

فلما رأى عبد الملك الرأس سجد، فقال ابن ظبيان: لقد هممت أن أقتل عبد الملك وهو
ساجد فأكون قد قتلت ملكي العرب، وأرحت الناس منهما، وفي ذلك يقول:

هممت ولم أفعل وكدت وليتني فعلت فأدمنت البكا لأقاربه
فأوردتها في النار بكر بن وائل وألحقت من قد خر شكراً بصاحبه

وقال عبد الملك: لقد هممت أن أقتل ابن ظبيان فأكون قد قتلت أفتك الناس بأشجع
الناس.
وأمر عبد الملك لابن ظبيان بألف دينار، فقال: لم أقتله على طاعتك، وإنما قتلته بأخي
النابي بن زياد، ولم يأخذ منها شيئاً. وكان النابي قد قطع الطريق فقتله مطرف الباهلي
صاحب شرطة مصعب.
وكان قتل مصعب بدير فقتله مطرف الباهلي صاحب شرطة مصعب.
وكان قتل مصعب بدير الجاثليق عند نهر دجيل، وأمر عبد الملك به وبابنه عيسى فدفنا،
وقال: كانت الحرمة بيننا وبينه قديمة، ولكن هذا الملك عقيم.
قال: ثم دعا عبد الملك جند العراق إلى البيعة فبايعوه، وسار حتى دخل الكوفة، فأقام
بالنخيلة أربعين يوماً، وخطب الناس بالكوفة، فوعد المحسن وتوعد المسىء، وقال: إن
الجامعة التي وضعت في عنق عمرو بن سعيد عندي، ووالله لا أضعها في عنق رجل
فأنتزعها إلا صعدا لا أفكها عنه فكا، فلا يبقين امرؤ إلا على نفسه، ولا يوبقني دمه.
والسلام.
قال عبد الملك بن عمير: كنت مع عبد الملك بقصر الكوفة حين جىء برأس مصعب

فوضعت بين يديه، فرآني قد ارتعدت، فقال لي: مالك ؟ فقلت: أعيذك بالله يا أمير المؤمنين
! كنت بهذا القصر بهذا الموضع مع عبيد الله بن زياد فرأيت رأس الحسين رضي الله عنه
بين يديه، ثم كنت فيه مع المختار بن أبي عبيد فرأيت رأس عبيد الله بن زياد بين يديه، ثم
رأيت رأس مصعب فيه بين يديك. فقام عبد الملك من مقامه ذلك، وأمر بهدم ذلك الطاق
الذي كنا فيه، وقال عبد الملك ابن مروان: متى تخلف قريش مثل المصعب ! ثم قال: هذا
سيد شباب قريش. فقيل له: أكان يشرب الطلا ؟ فقال: لو علم المصعب أن الماء يفسد
مروءته ما شربه حتى يموت عطشا.
قال: وبعث عبد الملك برأس مصعب إلى أخيه عبد العزيز بن مروان بمصر، فلما رآه وقد
قطع السيف أنفه قال: رحمك الله، أما والله لقد كنت من أحسنهم خلقا، وأشدهم بأساً،
وأسخاهم نفساً.
ثم سيره إلى الشام فنصب بدمشق، وأرادوا أن يطوفوا به في نواحي الشام، فأخذته عاتكة
بنت يزيد بن معاوية زوجة عبد الملك بن مروان، فغسلته وطيبته ودفنته، وقالت: أما
رضيتم بما صنعتم حتى تطوفوا به المدن ! هذا بغي.
وكان عمر مصعب حين قتل ستا وثلاثين سنة.
ولما بلغ عبد الله بن خازم مسير مصعب لقتال عبد الملك قال: أمعه عمر بن عبيد الله بن
معمر ؟
قيل: لا، استعمله على فارس. قال: أمعه المهلب ؟ قيل: لا، استعمله على الخوارج. قال:
أمعه عباد بن الحصين ؟ قيل: لا، استخلفه على البصرة. قال: وأنا بخراسان. وأنشد:

خذيني فجريني جعار وأبشري بلحم امرىء لم يشهد اليوم ناصره

قال: ولما قتل مصعب كان المهلب يحارب الأزارقة بسولاف ثمانية أشهر، فبلغ الأزارقة قتله
قبل أن يبلغ المهلب، فصاحوا بأصحاب المهلب: ما قولكم في مصعب ؟ قالوا: أمير هدى؛
وهو ولينا في الدنيا والآخرة، ونحن أولياؤه. قالوا: فما قولكم في عبد الملك بن مروان !
قالوا: ذلك ابن اللعين، نحن نبرأ إلى الله منه، وهو عندنا حل دماً منكم. قالوا: فإن عبد
الملك قتل مصعباً، وسيجعلون غداً عبد الملك إمامكم.

فلما كان الغد سمع المهلب وأصحابه قتل مصعب، فبايع المهلب الناس لعبد الملك، فصاح
بهم الخوارج: يا أعداء الله، ما تقولون في مصعب ؟ قالوا: يا أعداء الله لا نخبركم. وكرهوا
أن يكذبوا أنفسهم. قالوا: فما قولكم في عبد الملك ؟ قالوا: خليفتنا. ولم يجدوا بداً إذ
بايعوه أن يقولوا ذلك. قالوا: يا أعداء الله؛ أنتم بالأمس تتبرءون منه في الدنيا والآخرة، وهو
اليوم إمامكم، وقد قتل أميركم الذي كنتم تتولونه، فأيهما المهتدي ؟ وأيهما المبطل ؟ قالوا:
يا أعداء الله، رضينا بذاك إذ كان يتولى أمرنا ونرضى بهذا. قالوا: لا، والله، ولكنكم
إخوان الشياطين وعبيد الدنيا.
فال: ولم يف عبد الملك لأحد بأصبهان، واستعمل قطن بن عبد الله الحارثي على الكوفة،
ثم عزله، واستعمل أخاه بشر بن مروان. واستعمل محمد بن عمير على همذان، ويزيد بن
ورقاء بن رويم على الري، واستعمل خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد على البصرة.
وعاد إلى الشام.

مع زفر

ذكر خبر عبد الملك بن مروان وزفر بن الحارث وما كان بينهما من القتال وانتظام الصلح
بينهما
قد ذكرنا أن زفر بن الحارث لما فر من مرج راهط إلى قرقيسياء، واستولى عليها، وتحصن
بها، واجتمعت قيس عليه، وكان في بيعة عبد الله بن الزبير وفي طاعته. فلما مات مروان
بن الحكم وولي عبد الملك كتب إلى أبان بن عقبة بن ابي معيط، وهو على حمص، يأمره
أن يسير إلى زفر، فسار إليه، وعلى مقدمته عبد الله بن زميت الطائي، فواقع عبد الله زفر
قبل وصول أبان فقتل من أصحابه ثلاثمائة، فلامه أبان على عجلته، وأقبل أبان فواقع زفر
فقتل ابنه وكيع ابن زفر. فلما سار عبد الملك إلى العراق لقتال مصعب بدأ بقرقيسياء،
فحضر زفر فيها، ونصب عليها المجانيق، فأمر زفر أن ينادى في عسكر عبد الملك: لم
نصبتم المجانيق علينا ؟ فقالوا: لنثلم ثلمة نقاتلكم عليها. فقال زفر: قولوا لهم: فإنا لا
نقاتلكم من وراء الحيطان، ولكنا نخرج إليكم. وقاتلهم زفر.

وكان خالد بن يزيد بن معاوية مجداً في قتال زفر، فقال رجل من أصحابه من بني كلاب:
لأقولن لخالد كلاماً لا يعود إلى ما يصنع. فلما كان الغد خرج خالد للمحاربة فقال له
الكلابي:
ماذا ابتغاء خالد وهمه إذ سلب الملك و... أمه
فاستحيا وعاد، ولم يعد لقتالهم.
وقالت كلب لعبد الملك: إنا إذا لقينا زفر انهزمت القيسية الذين معك، فلا تخلطهم معنا.
ففعل. فكتبت القيسية على نبلها: إنه ليس يقاتلكم غداً مضري، ورموا النبل إلى زفر.
فلما أصبح دعا ابنه الهذيل فقال: اخرج إليهم، فشد عليهم، ولا ترجع حتى تضرب
فسطاط عبد الملك، وأقسم لئن رجع دون أن يفعل ذلك ليقتلنه.
فجمع الهذيل خيله، وحمل، فصبروا قليلاً ثم انكشفوا، وتبعهم الهذيل بخيله حتى وطئوا
أطناب الفسطاط، وقطعوا بعضها، ثم رجعوا. فقبل زفر رأس ابنه الهذيل. فقال: والله لو
شئت أن أدخل الفسطاط لفعلت.
قال: وكان رجل من كلب يقال له الذيال يخرج فيسب زفر فيكثر، فقال للهذيل ابنه أو
لبعض أصحابه: أما تكفيني هذا ؟ قال: أنا آتيك به، فدخل عسكر عبد الملك ليلاً،
فجعل ينادي من يعرف بغلا من صفته كذا وكذا ؟ حتى انتهى إلى خباء الرجل. فقال
الرجل: رد الله عليك ضالتك. فقال: يا عبد الله، إني قد أعييت، فلو أذنت لي فاسترحت
قليلاً. قال: ادخل، فدخل، والرجل وحده في خبائه، فرمى بنفسه، ونام صاحب الخباء،
فقام إليه فأيقظه، وقال: والله، لئن تكلمت لاقتلنك، قتلت أو سلمت، فماذا ينفعك قتلي إذا
قتلت أنت؛ ولئن سكت وجئت معي إلى زفر فلك عهد الله وميثاقه أن أردك إلى عسكرك
بعد أن يصلك زفر ويحسن إليك، فخرجا وهو ينادي: من دل على بغل من صفته كذا
وكذا حتى أتى زفر. والرجل معه، فأعلمه أنه قد أمنه، فوهبه زفر دنانير وحمله على رحال
النساء وألبسه ثيابهن، وبعث معه رجالاً حتى دنوا من عسكر عبد الملك، فنادوا: هذه
جارية قد بعث بها زفر إلى عبد الملك، وانصرفوا !

فلما رآه أهل العسكر عرفوه، وأخبروا عبد الملك الخبر فضحك، وقال: لا يبعد الله رجال
مضر، والله إن قتلهم لذل، وإن تركهم لحسرة. وكف الرجل فلم يعد يسب زفر.
وقيل: إنه هرب من العسكر، ثم أمر عبد الملك أخاه محمدا أن يعرض على زفر وابنه
الهذيل الأمان على أنفسهما ومن معهما وأن يعطيا ما أحبا.
ففعل ذلك، فأجابا على أن
لزفر الخيار في بيعته سنة، وأن يترك حيث شاء، وألا يعين عبد الملك على قتال ابن الزبير.
فبينما الرسل تختلف بينهم إذ جاء رجل من كلب، فقال: قد هدم من المدينة أربعة أبراج،
فقال عبد الملك: لا أصالحهم، وزحف إليهم، فهزموا أصحابه حتى أدخلوهم عسكرهم،
فقال: أعطوهم ما أرادوا. قال زفر: لو كان قبل هذا لكان أحسن، واستقر الصلح على
أمان الجميع، ووضع الدماء والأموال، وألا يبايع عبد الملك حتى يموت ابن الزبير للبيعة التي
له في عنقه، وأن يعطى مالاً يقسمه في أصحابه، وخاف زفر أن يغدر به عبد الملك كما
غدر بعمرو بن سعيد، فلم ينزل إليه، فأرسل إليه بقضيب النبي صلى الله عليه وسلم أماناً
له، فنزل إليه، فلما دخل عليه أجلسه معه على سريره، فلم رأى عبد الملك قلة من مع زفر
قال: لو لمت بأنه في هذه القلة لحاصرته أبداً حتى نزل على حكمي، فبلغ قوله زفر فقال: إن
شئت رجعنا ورجعت. قال: بلى نفي لك يا أبا الهذيل.
وأمر زفر ابنه الهذيل أن يسير مع عبد الملك إلى قتال مصعب، وقال: أنت لا عهد عليك،
فسار معه، فلما قارب مصعباً هرب إليه، وقاتل مع ابن الأشتر.
فلما قتل ابن الأشتر
اختفى الهذيل في الكوفة حتى استؤمن له من عبد الملك فأمنه.
قال: وتزوج مسلمة بن عبد الملك الرباب بنت زفر فكان يؤذن لإخوتها: الهذيل والكوثر في
أول الناس.
وفي هذه السنة، أعني سنة إحدى وسبعين، افتتح عبد الملك قيسارية في قول الواقدي
رحمه الله.
مقتل عبد الله بن خازم
واستيلاء عبد الملك على خراسان

ولما قتل مصعب كان عبد الله بن خازم يقاتل بحير بن ورقاء لصريمي التميمي بنيسابور،
فكتب عبد الملك إلى ابن خازم يدعوه إلى البيعة ويطعمه خراسان سبع سنين، وأرسل
الكتاب مع سورة ابن أشيم النميري، فقال له ابن خازم: لولا أن أضرب بين بني سليم وبين
عامر لقتلتك، ولكن كل كتابه، فأكله. وقيل: بل كان الكتاب مع سوادة بن عبيد الله
النميري. وقيل: مع مكمل الغنوى. فقال له ابن خازم: إنما بعثك أبو الذبان لأنك من غنى،
وقد علم أني لا أقتل رجلاً من قيس، ولكن كل كتابه
وكتب عبد الملك إلى بكير بن وساج، وكان خليفة ابن خازم على مرو، بعهده على
خراسان، ووعده ومناه، فخلع بكير عبد الله ابن الزبير ودعا إلى عبد الملك، فأجابه أهل
مرو، وبلغ ابن خازم، فخاف أن يأتيه بكير فيجتمع عليه أهل مرو وأهل نيسابور، فترك
بحيراً وأقبل إلى مرو، فاتبعه بير فلحقه بقرية على ثمانية فراسخ من مرو، فقاتله، فقتل ابن
خازم، وكان الذي قتله وكيع بن عمرو القريعي، اعتوره وكيع وبحير بن ورقاء وعمار بن
عبد العزيز، فطعنوه، فصرعوه؛ وقعد وكيع على صدره فقتله، وبعث بشيراً بقتله إلى عبد
الملك، ولم يبعث برأسه.
وأقبل بكير في أهل مرو، فوافاهم حين قتل ابن خازم، فأراد أخذ الرأس وإنفاذه إلى عبد
الملك، فمنعه بحير فضربه بعمود وحبسه، وسير الرأس إلى عبد الملك، وذلك في سنة اثنتين
وسبعين.
وقيل: بل كان مقتله بعد قتل عبد الله بن الزبير، وأن عبد الملك أنفذ إليه رأس ابن الزبير،
ودعاه إلى نفسه فغسله وكفنه، وبعثه إلى أهله بالمدينة، وأطعم الرسول الكتاب، وقال: لولا
أنك رسول لقتلتك.
وقيل: بل قطع يديه ورجليه وقتله، وحلف ألا يطيع عبد الملك أبداً. والله أعلم.

مقتل عبد الله بن الزبير
وشيء من أخباره

قال: لما قتل مصعب بن الزبير تقدم الحجاج بن يوسف الثقفي إلى عبد الملك، فقال: يا أمير
المؤمنين، قد رأيت في المنام أني أخذت ابن الزبير وسلخته، فابعثني إليه، وولني حربه، فبعثه

في ألفين، وقيل في ثلاثة آلاف، فسار في جمادي الأولى سنة اثنتين وسبعين، ونزل الطائف،
وكان يبعث الخيل إلى عرفة في الحل بعد الطائف، ويبعث ابن الزبير الخيل فيقتلون فتنهزم
خيل ابن الزبير، وتعود خيل الحجاج بالظفر.
ثم كتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه في دخول الحرم وحصر ابن الزبير، ويخبره بضعفه
وتفرق أصحابه، ويستمده، فأمده بطارق بن عمرو مولى عثمان، وكان عبد الملك قد بعثه
في جيش إلى وادي القرى ليمنع عمال ابن الزبير من الانتشار، فقدم المدينة في ذى القعدة
سنة اثنتين وسبعين، وأخرج عامل ابن الزبير منها، وجعل عليها رجلاً من أهل الشام اسمه
ثعلبة، وقدم طارق مكة في ذى الحجة منها في خمسة آلاف، وتقدم الحجاج إلى مكة، فنزل
عند بئر ميمون، وحج بالناس في تلك السنة. إلا أنه لم يطف بالبيت، ولا سعى بين الصفا
والمروة؛ منعه عبد الله ابن الزبير من ذلك؛ ولم يحج ابن الزبير ولا أصحابه في تلك السنة.
ونصب الحجاج المنجنيق على أبي قبيس، ورمى به الكعبة، فقال عبد الله بن عمر بن
الخطاب رضي الله عنهما للحجاج، اتق الله واكفف هذه الحجارة عن الناس، فإنك في شهر
حرام في بلد حرام؛ وقد قدمت وفود الله من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله، وقد منعهم
المنجنيق عن الطواف. فكف حتى انقضى الحج، ثم نادى في الناس: انصرفوا إلى بلادكم،
فإنا نعود بالحجارة على ابن الزبير الملحد.
قال: وأول ما رمى الكعبة بالمنجنيق رعدت السماء وبرقت، وعلا صوت الرعد على
الحجارة، فأعظم ذلك أهل الشام وأمسكوا أيديهم، فأخذ الحجاج حجر المنجنيق ووضعه
بيده ورمى به، فجاءت الصواعق فقتلت من أصحابه اثني عشر رجلاً، فانكسر أهل
الشام، فقال الحجاج: أهل الشام، لا تنكروا هذا، فإني ابن تهامة، وهذه صواعقها، وهذا
الفتح قد حضر، فأبشروا.
فما كان الغد جاءت الصاعقة فأصابت من أصحاب ابن الزبير عدة. فقال الحجاج: ألا
ترون أنهم يصابون كما تصابون، وأنتم على الطاعة وهم على خلافها، وكان الحجر يقع بين
يدي عبد الله ابن الزبير وهو يصلي، فلا ينصرف عن مكانه.

وغلت الأسعار عند ابن الزبير حتى ذبح فرسه، وقسم لحمه في أصحابه، وبيعت
الدجاجة بعشرة دراهم والمد الذرة بعشرين درهماً، وكانت بيوت ابن الزبير مملوءة قمحاً
وشعيراً وذرة وتمراً، وكان أهل الشام ينتظرون فناء ما عنده، فكان لا ينفق منه إلا ما
يمسك الرمق ويقول: نفوس أصحابي قوية ما لم تفن.
فلما كان قبيل مقتله تفرق الناس عنه، وخرجوا إلى الحجاج بالأمان، فخرج من عنده نحو
عشرة آلاف. وكان ممن فارقه ابناه حمزة وخبيب، أخذا لأنفسهما أماناً، فقال عبد الله
لابنه الزبير: خذ لنفسك أماناً كما فعل أخواك، فوالله إني لأحب بقاءكم. فقال: ما كنت
لأرغب بنفسي عنك، فقتل معه.
قال: ولما كان في الليلة التي قتل فيها عبد الله في صبيحتها جمع قريشاً فقام لهم: ما ترون ؟
فقال رجل من بني مخزوم: والله، إنا قاتلنا معك حتى ما نجد مقتلاً، والله لئن سرنا معه ما
نزيد على أن نموت، وإنما هي إحدى خصلتين: إما أن تأذن لنا فنأخذ الأمان لأنفسنا ولك،
وإما أن تأذن لنا فنخرج.
فقال له رجل: اكتب إلى عبد الملك. فقال: كيف أكتب من عبد الله أمير المؤمنين إلى
عبد الملك بن مروان ؟ فوالله لا يقبل هذا أبداً، أو أكتب لعبد الملك بن مروان أمير
المؤمنين. من عبد الله بن الزبير ؟ فوالله لأن تقع الخضراء على الغبراء أهون علي من
ذلك. فقال له عروة وهو جالس معه على السرير: قد جعل الله لك أسوة في الحسن بن
علي رضي الله عنهما، خلع نفسه وبايع معاوية، فركضه برجله ورماه عن السرير، وقال:
قلبي إذاً مثل قلبك، والله لو قلتها ما عشت إلا قليلاً وإن أضرب بسيف في عز خير من أن
ألطم في ذل.
فلما أصبح دخل على امرأته أم هاشم فقال: اصنعي لي طعاماً. فلما صنعته وأتت به
لاك منه لقمة ثم لفظها، وقال: اسقوني لبناً فسقوه، ثم اغتسل وتطيب وتحنط، ودخل على
أمه، فقال: يا أماه، قد خذلني الناس حتى ولدي وأهلي ولم يبق معي إلا اليسير، والقوم
يعطونني ما أردت من الدنيا، فما رأيك ؟

قالت له: أنت أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق وأنت تدعو إليه فامض له، فقد
قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من نفسك يتلعب بك غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت
الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك ومن قتل معك، وإن قلت: كنت على حق فلما
وهن أصحابي ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين، كم خلودك في الدنيا ؟
القتل أحسن ! فقال: يا أماه، أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني. فقالت:
يا بني، إن الشاة لا تألم السلخ بعد الذبح، فامض على بصيرتك، واستعن بالله.
فقبل رأسها وقال: هذا رأيي، والذي خرجت به داعياً إلى يومي هذا. ما ركنت إلى
الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله، وأن تستحل
حرماته؛ ولكني أحببت أن أعلم رأيك، فقد زدتني بصيرة، فانظري فإني مقتول في يومي
هذا، فلا يشتد حزنك، وسلمي لأمر الله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر ولا عملاً
بفاحشة، ولم يجر في حكم الله، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم أو معاهد، ولم
يبلغني ظلم عن عمالي، فرضيت به؛ بل أنكرته، ولم يكن أي آثر عندي من رضاء ربي.
اللهم إني لا أقول هذا تزكية لنفسي، ولكن أقوله تعزية لأمي حتى تسلو عني.
فقالت: إني لأرجو أن يكون عزائي فيك جميلاً، إن تقدمتني احتسبتك، وإن ظفرت
سررت بظفرك. اخرج عني حتى أنظر إلى ما يصير أمرك، فقال: جزاك الله خيراً؛ فلا
تدعي الدعاء لي. قالت: لا أدعه لك أبداً، فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق.
ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ في هواجر
مكة والمدينة، وبره بأبيه وبي. اللهم قد سلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت، فأثبني فيه
ثواب الصابرين الشاكرين.
فتناول يدها ليقبلها، فقالت: هذا وداع فلا تبعد. فقال لها: جئت مودعاً، لأني أرى هذا
آخر أيامي من الدنيا. قالت: امض على بصيرتك، وادن مني حتى أودعك، فدنا منها

فعانقها، وقبل بين عينيها، فوقعت يدها على الدرع، فقالت: ما هذا صنيع من يريد ما تريد
! فقال: ما لبسته إلا لأشد متنك. قالت: فإنه لا يشد متني، فنزعها، ثم درج كميه، وشد
أسفل قميصه وجبة خز تحت السراويل، وأدخل أسفلها تحت المنطقة، وأمه تقول: البس
ثيابك مشمرة.
فمخرج من عندها وحمل على أهل الشام حملة منكرة، فقتل منهم، ثم انكشف هو
وأصحابه، فقال له بعض أصحابه: لو لحقت بموضع كذا. فقال: بئس الشيخ أنا إذاً في
الإسلام أن أوقعت قوماً فقتلوا ثم فررت عن مثل مصارعهم.
ودنا أهل الشام حتى امتلأت منهم الأبواب، وكانوا يصيحون: يابن ذات النطاقين، فيقول:
وتلك شكاة ظاهر عنك لؤمها.
وجعل أهل الشام على أبواب المسجد رجالا، فكان لأهل حمص الباب الذي يواجه باب
الكعبة، ولأهل فلسطين باب بني جمح، ولأهل قنسرين باب بني سهم. وكان الحجاج وطارق
بناحية الأبطح إلى المروة، وابن الزبير يحمل على هذه الناحية مرة وفي هذه أخرى، وكأنه
أسد في أجمة ما تقدم عليه الرجال وهو يعدو في إثر القوم حتى يحرجهم، ثم يصيح يا أبا
صفوان، ويل أمه فتحاً، لو كان له رجال. لو كان قرني واحداً كفيته.
فيقول أبو صفوان عبد الله بن صفوان بن أمية بن خلف: أي والله وألف.
فقال رجل من أهل الشام اسمه جلبوب: إنما يمكنكم أخذه إذا ولي. قيل: فخذه أنت إذا
ولي. قال: نعم، وتقدم ليحضنه من خلفه، فعطف عليه فقط ذراعيه فصاح، فقال: اصبر
جلبوب.
قال: فلما رأى الحجاج أن الناس لا يقدمون على ابن الزبير غضب وترجل يسوق الناس
ويصدم بهم، فصدم صاحب علم ابن الزبير وهو بين يديه، فتقدم ابن الزبير على صاحب
علمه وقاتلهم حتى انكشفوا، ورجع فصلى ركعتين عند المقام، فحملوا على صاحب
علمه، فقتلوه عند باب بني شيبة، وأخذوا العلم. فلما فرغ من صلاته تقدم فقاتل بغير
علم، وقتل رجلاً من أهل الشام وآخر، وقاتل معه عبد الله بن مطيع، وهو يقول:

أنا الذي فررت يوم الحرة والحر لا يفر إلا مرة واليوم أجزى فرة بكرة
وقاتل حتى قتل، ويقال: أصابته جراحة فمات منها بعد أيام.
قال: وقال عبد الله بن الزبير لأصحابه وأهله يوم قتل بعد صلاة الصبح: اكشفوا وجوهكم
حتى أنظر إليكم وعليكم المغافر، ففعلوا، فقال: يا آل الزبير، لو طبتم لي نفسا عن أنفسكم
كنا أهل بيت من العرب اصطلمنا في الله فلا يرعكم وقع السيوف، فإن ألم الدواء للجراح
أشد من ألم وقعها، صونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم، غضوا أبصاركم عن البارقة،
وليشغل كل امرىء قرنه، ولا تسألوا عني، فمن كان سائلاً عني فإني في الرعيل الأول، احملوا
على بركة الله.
ثم حمل عليهم حتى بلغ بهم الحجون فرمي بآجرة، رماه بها رجل من السكون، فأصابت
وجهه فأرعش لها وسال الدم على وجهه، فقال رضي الله عنه وأرضاه:
فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أعقابنا تقكر الدما
وقاتلهم قتالاً شديداً، فتعاونوا عليه، فقتلوه، قتله رجل من مراد، وحمل رأسه إلى الحجاج،
فسجد. ووفد السكوني والمرادى إلى عبد الملك بالخبر؛ فأعطى كل واحد منهما خمسمائة
دينار.
وقيل في قتله: إنه جاءه حجر المنجنيق وهو يقاتل فصرعه فاقتحم عليه أهل الشام،
وذهبوا به إلى الحجاج فحز رأسه بيده.
وكان مقتله - رضي الله عنه - في يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادي الأولى
سنة ثلاث وسبعين وقيل في جمادى الآخرة منها، وله ثلاث وسبعون سنة.
ولما قتل رضي الله عنه كبر أهل الشام فرحاً بقتله؛ فقال عبد الله ابن عمر: انظروا إلى
هؤلاء. انظروا إلى هؤلاء. لقد كبر المسلمون فرحاً بولادته، وهؤلاء يكبرون فرحاً بقتله.
وبعث الحجاج برأسه ورأس عبد الله بن صفوان ورأس عمارة ابن عمرو بن حزم إلى
المدينة. ثم إلى عبد الملك وصلب جثته منكسة على الثنية اليمنى بالحجون، فأرسلت
إليه أسماء تقول: قاتلك الله ! على ماذا صلبته ؟ قال: استبقت أنا وهو إلى هذه الخشبة،

فكانت له. فاستأذنته في تكفينه ودفنه. فأبى.
وكتب إلى عبد الملك يخبره بصلبه، فكتب إليه يلومه، ويقول: ألا خليت بينه وبين أمه.
فأذن لها الحجاج فدفنته بالحجون.
وكان قبل مقتله بقي أياماً يستعمل الصبر والمسك لئلا ينتن إن هو صلب، فلما صلب ظهر
منه ريح المسك، فقيل: إن الحجاج صلب معه كلباً ميتاً. وقيل، سنوراً، فغلب على ريح
المسك.
ولما قتل عبد الله ركب أخوه عروة بن الزبير ناقة لم ير مثلها وسار إلى عبد الملك فسبق
رسل الحجاج، فاستأذن على عبد الملك فأذن له، فلما دخل عليه سلم عليه بالخلافة،
فرحب به وأجلسه معه على السرير، فقال عروة:

نمت بأرحام إليك قريبة ولا خير في الأرحام ما لم تقرب

وتحدث حتى جرى ذكر عبد الله، فقال عروة: إنه كان. فقال عبد الملك: وما فعل ؟
قال: قتل؛ فخر ساجداً. فقال عروة: إن الحجاج صلبه. فهب جثته لأمه. قال: نعم.
وكتب إلى الحجاج فعظم صلبه.
وكان الحجاج لما فقد عروة كتب إلى عبد الملك: إن عروة كان مع أخيه. فلما قتل عبد
الله أخذ مالاً من مال الله وهرب.
فكتب إليه عبد الملك يقول: إنه لم يهرب، ولكنه أتاني مبايعاً، وقد أمنته وحللته مما كان
منه، وهو قادم عليك، فإياك وعروة.
فعاد عروة إلى مكة فكانت غيبته عنها ثلاثين يوماً. فأنزل الحجاج جثة عبد الله عن
الخشبة وبعث بها إلى أمه فغسلته. فلما أصابه الماء تقطع فغسلته عضواً عضواً. وصلى
عليه عروة وقيل غيره.
وقيل: لم يصل عليه أحد؛ منع الحجاج من الصلاة عليه.
وكانت أيام ولايته منذ مات معاوية بن يزيد إلى أن قتل سبع سنين وأياماً.
وكان له من الأولاد: عبد الله، وحمزة، وخبيب، وثابت، وعباد، وقيس، وعامر،
وموسى.
وكاتبه زيد بن عمرو.
وحاجبه سالم مولاه والله الموفق بمنه وكرمه.

ذكر نبذة من سيرته رضي الله عنه وأخباره

كان كثير العبادة إذا سجد وقعت العصافير على ظهره تظنه حائطاً لسكونه وطول

سجوده. وقال بعض السلف: قسم عبد الله الدهر على ثلاث حالات فليلة قائم حتى
الصباح، وليلة راكع حتى الصباح، وليلة ساجد حتى الصباح.
وقيل: أول ما علم من همته أنه كان يلعب ذات يوم مع الصبيان وهو صبي، فمر رجل
فصاح عليهم ففروا، ومشى عبد الله القهقري، وقال للصبيان: اجعلوني أميركم، وشدوا بنا
عليه.
ومر به عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يلعب مع الصبيان ففروا ووقف هو، فقال له
عمر: ما منعك أن لا تفر معهم ؟ فقال: لم أجرم فأخافك، ولم تكن الطريق ضيقة فأوسع
لك.
وقال: هشام بن عروة: كان أول ما أفصح به عمي عبد الله ابن الزبير وهو صغير السيف،
فكان لا يضعه من فيه. فكان الزبير رضي الله عنه يقول: والله ليكونن لك منه يوم وأيام.
وقال ابن سيرين: قال ابن الزبير: ما كان شيء يحدثنا به كعب إلا وقد جاء على ما قال
إلا قوله: فتى ثقيف يقتلني وهذا رأسه بين يدي - يعني المختار.
قال: لم يشعر ابن الزبير أن الحجاج قد خبىء له. ومر به عبد الله بن عمر رضي الله
عنهم وهو مصاوب، فقال: يرحمك الله إن كنت لصواماً قواماً، ولقد أفلحت قريش إن كنت
شرها.
وكان الحجاج قد صلبه ثم ألقاه في مقابر اليهود، وأرسل إلى أمه يستحضرها، فلم تحضر،
فأرسل إليها لتأتيني أو لأبعثن إليك من يسحبك بقرونك، فلم تأته فجاء إليها. فقال: كيف
رأيتني صنعت بعدو الله ؟ قالت: رأيتك أفسدت على ابني دنياه، وأفسد عليك آخرتك؛
وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثنا أن في ثقيف كذاباً ومبيراً، فأما الكذاب فقد
رأيناه تعني المختار، وأما المبير فأنت.
وقال قطن بن عبد الله: كان الزبير يفطر من الشهر ثلاثة أيام، ومكث أربعين سنة لم ينزع
ثوبه عن ظهره. وقال مجاهد: لم يكن باب من أبوا ب العبادة يعجز عنه الناس إلا تكلفه ابن
الزبير، ولقد جاء سيل طبق البيت، فجعل ابن الزبير رضي الله عنه يطوف سباحة.
وماتت أسماء رضي الله عنها بعده بقليل.

انتهت أخبار عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، فلنذكر غير ذلك من أخبار أيام عبد
الملك ونبدأ بتتمة أخبار الحجاج وما فعل بمكة والمدينة والله أعلم.
مبايعة أهل مكة
عبد الملك بن مروان وما فعله الحجاج من هدم الكعبة وبنائها ومسيره إلى المدينة وما فعله
فيها بالصحابة رضي الله عنهم
قال: ولما فرغ الحجاج من أمر عبد الله بن الزبير دخل مكة فبايعه أهلها لعبد الملك بن
مروان، وأمر بكنس المسجد الحرام من الحجارة والدم، وهدم الكعبة في المحرم سنة أربع
وسبعين، وأعادها إلى البناء الأول وأخرج الحجر منها، وكان عبد الملك يقول: كذب ابن
الزبير فيما رواه عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر
الحجر، وأنه من البيت. فلما قال له غير ابن الزبير: إن عائشة رضي الله عنها روت ذلك
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: وددت أني تركته وما تحمل.
والكعبة في وقتنا هذا على بنائها الذي أعاده الحجاج بن يوسف.
قال: ثم سار الحجاج إلى المدينة في سنة أربع وسبعين، وكان عبد الملك قد عزل طارقاً
عنها، واستعمل عليها الحجاج، فصار معه مكة والمدينة واليمن واليمامة، فلما قدم المدينة
أقام بها شهراً أو شهرين، فأساء إلى أهلها، واستخف بهم، وقال: أنتم قتلة أمير المؤمنين
عثمان، وختم أيدي جماعة من الصحابة بالرصاص استخفافاً بهم، كما يفعل بأهل الذمة،
منهم جابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، وسهل بن سعد، ثم عاد إلى مكة معتمراً، وقال
حين خرج من المدينة: الحمد لله الذي أخرجني من أم نتن، أهلها أخبث أهل بلد، وأغشه
لأمير المؤمنين، وأحسدهم له على نعمة الله، والله لولا ما كانت تأتيني كتب أمير المؤمنين
فيها لجعلتها مثل جوف الحمار، أعواد يعوذون بها، ورمة قد بليت، يقولون: منبر رسول
الله، وقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فبلغ جابر بن عبد الله قوله، فقال: إن وراءه ما يسوءه. قد قال فرعون ما قال، فأخذ الله
بعد أن أنظره.

وأقام الحجاج بالحجاز إلى أن نقله عبد الملك إلى ولاية العراق، وذلك في سنة خمس
وسبعين على ما نذكره إن شاء الله تعالى.
أخبار الخوارج
في أيام عبد الملك بن مروان منذ استقل بالأمر
قد ذكرنا أنه لما قتل مصعب بن الزبير كان المهلب بن أبي صفرة يقاتل الخوارج منذ ثمانية
أشهر، وذكرنا مقالتهم لأصحابه حين بلغهم قتل مصعب، وتبعه عبد الملك، فلما كان في
سنة اثنتين وسبعين استعمل عبد الملك خالد بن عبد الله بن أسيد على البصرة، فلما
قدمها استعمل المهلب على خراج الأهواز ومعونتها، وبعث أخاه عبد العزيز بن عبد الله
إلى قتال الخوارج، وسير معه مقاتل بن مسمع، فخرجا يطلبان الأزارقة، فأتت الخوارج من
ناحية كرمان إلى درابجرد وأرسل قطري بن الفجاءة المازني أمير الحج سبعمائة فارس مع
صالح ابن مخراق، فأقبل بهم حتى استقبل عبد العزيز وهو يسير ليلا على غير تعبئة، فانهزم
بالناس، ونزل مقاتل بن مسمع، فقاتل حتى قتل.
ولما انهزم عبد العزيز أخذت امرأته ابنة المنذر بن الجارود، فأقيمت فيمن يزيد، فبلغت
قيمتها مائة ألف، فجاء رجل من قومها كان من رءوس الخوارج، فقال: تنحو هكذا، ما
أرى هذه المشركة إلا قد فتنتكم، فضرب عنقها، ولحق بالبصرة، فرآه آل المنذر، فقالوا:
والله ما ندري أنحمدك أم نذمك ؟ فكان يقول: ما فعلته إلا غيرة وحمية.
وانتهى عبد العزيز إلى رامهرمز، وأتى المهلب خبره، فأرسل إلى أخيه خالد بن عبد الله
بخبر هزيمته، فقال للرسول: كذبت فقال: إن كنت كاذباً فاضرب عنقي، وإن كنت صادقاً
فأعطني جبتك ومطرفك. قال: ويحك ! قد رضيت من الخطر العظيم بالخطر اليسير، ثم
حبسه وأحسن إليه لما صح عنده خبر الهزيمة. وفي هذه الهزيمة وفرار عبد العزيز يقول ابن
قيس الرقيات:

عبد العزيز فضحت جيشك كلهم وتركتهم صرعى بكل سبيل
من بين ذى عطش يجود بنفسه وملحب بين الرجال قتيل
هلا صبرت مع الشهيد مقاتلا إذ رحت منتكث القوى بأصيل
وتركت جيشك لا أمير عليهمو فارجع بعار في الحياة طويل
ونسيت عرسك إذ تقاد سبية تبكي العيون برنة وعويل

قال: وكتب خالد إلى عبد الملك بالخبر، فكتب إليه يقول: قبح الله رأيك حين تبعث أخاك
أعرابيا من أهل مكة على القتال، وتدع المهلب يجبى الخراج، وهو الميمون النقيبة، المقاسي
للحرب، ابنها وابن أبنائها. أرسل إلى المهلب يستقبلهم، وقد بعثت إلى بشر بالكوفة أن
يمدك بجيش، فسر معهم، ولا تعمل في عدوك برأي حتى يحضره المهلب. والسلام.
وكتب عبد الملك إلى أخيه بشر، وهو أمير الكوفة، يأمره بإنفاذ خمسة آلاف مع رجل
يرضاه لقتال الخوارج، فإذا قضوا غزوتهم ساروا إلى الري، فقاتلوا عدوهم، وكانوا مسلحة،
فبعث بشر عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فيي خمسة آلاف، وكتب عهده على الرين
وخرج خالد بأهل البصرة حتى قدم الأهواز؛ وقدمها عبد الرحمن في أهل الكوفة، وجاءت
الأزارقة حتى دنوا من الأهواز؛ فعبأ خالد أصحابه، وجعل المهلب على ميمنته، وداود بن
قحذم من بني قيس بن ثعلبة على ميسرته، ثم زحف خالد إليهم بالناس بعد عشرين ليلة،
فرأوا من كثرة الناس ما ها لهم، فانصرفوا على حامية، ولم يقاتلوا؛ فأرسل خالد داود بن
قحذم في آثارهم، وانصرف عبد الرحمن إلى الري، وأقام المهلب بالأهواز، وانصرف خالد
إلى البصرة، وكتب إلى عبد الملك بذلك، فكتب إلى أخيه بشر يأمه أن يبعث أربعة آلاف
فارس من أهل الكوفة مع رجل بصير بالحرب إلى فارس في طلب الأزارقة، ويأمر صاحبه
بموافقة داود ابن قحذم إن اجتمعا.
فبعث بشر عتاب بن ورقاء في أربعة آلاف، فساروا حتى لحقوا داود، فاجتمعوا، ثم
اتبعوا الخوارج حتى هلكت خيول عامتهم، وأصابهم الجوع والجهد، ورجع عامة الجيش
مشاة إلى الأهواز؛ وذلك في سنة اثنتين وسبعين.
مقتل أبي فديك الخارجي
قد ذكرنا في أخبار عبد الله بن الزبير قتل نجدة بن عامر وطاعة أصحابه أبا فديك، فلما
كان في سنة اثنتين وسبعين غلب أبو فديك على البحرين؛
فبعث خالد بن عبد الله أمير
البصرة أخاه أمية بن عبد الله في جند كثيف، فهزمه أبو فديك، وأخذ جاريةً له، فاتخذها

لنفسه، فكتب إلى عبد الملك بذلك، فأمر عبد الملك عمر ابن عبيد الله بن معمر أن يندب
الناس من أهل الكوفة والبصرة ويسير إلى قتاله، فانتدب معه عشرة آلاف، وسار بهم،
وجعل أهل الكوفة على الميمنة، وعليهم محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله، وأهل
البصرة على الميسرة وعليهم عمر بن موسى بن عبيد الله بن معمر، وهو ابن أخي عمر،
وجعل خيله في القلب، وساروا حتى انتهوا إلى البحرين، فالتقوا، واصطفوا للقتال، فحمل
أبو فديك وأصحابه حملة رجلٍ، فكشفوا ميسرة عمر حتى أبعدوا إلا المغيرة ابن المهلب،
ومجاعة بن عبد الرحمن، وفرسان الناس؛ فإنهم مالوا إلى صف أهل الكوفة بالميمنة، ثم
رجع أهل الميسرة وقاتلوا واشتد قتالهم حتى دخلوا عسكر الخوارج، وحمل أهل الميمنة
حتى استباحوا عسكر الخوارج، وقتلوا أبا فديك، وحصروا أصحابه حتى نزلوا على
الحكم، فقتل منهم نحو ستة آلاف، وأسر ثمانمائة؛ ووجدوا جارية أمية بن عبد الله حبلى
من أبي فديك، وعادوا إلى البصرة، وذلك في سنة ثلاث وسبعين.

ذكر ولاية المهلب بن أبي صفرة
حرب الأزارقة

في سنة أربع وسبعين أمر عبد الملك أخاه بشرا، وكان قد أضاف إليه ولاية البصرة مع
الكوفة، أن يبعث المهلب بن أبي صفرة لحرب الأزارقة في أهل البصرة، وأن ينتخب من أراد
منهم، وأن يتركه في الحرب ورأيه، وأمره أن يبعث من أهل الكوفة رجلاً شريفاً معروفاً
بالبأس والنجدة في جيش كثيف إلى المهلب، وأن يتتبعوا الخوارج حيث كانوا حتى
يستأصلوهم.

فأرسل المهلب خديج بن سعيد بن قبيصة، وأمره أن ينتخب الناس من الديوان، وشق
على بشر أن إمرة المهلب جاءت من قبل عبد الملك، وبعث بشر عبد الرحمن بن مخنف
على أهل الكوفة، وأغراه بالمهلب، وأمره أن يستبد بالأمر، وسار المهلب حتى نزل رامهرمز،
فلقى بها الخوارج، فخندق عليه، وأقبل أهل الكوفة حتى نزلوا على ميل من المهلب، فلم

يلبث العسكر إلا عشراً حتى أتاهم نعي بشر بن مروان فتفرقوا، وعاد أكثر أهل الكوفة
والبصرة إلى أن قدم الحجاج إلى الكوفة في سنة خمس وسبعين، فأخرج الناس إلى المهلب
وابن مخنف على ما نذكر ذلك إن شاء الله في أخبار الحجاج حين قدم الكوفة.
ذكر اجلاء الخوارج عن رامهرمز وقتل عبد الرحمن بن مخنف
قال: ولما أعاد الحجاج البعوث إلى المهلب كتب إليه وإلى عبد الرحمن بن مخنف يأمرهما
بمناهضة الخوارج رجعوا إليهم وقاتلوهم شيئاً من قتال، فانزاحت الخوارج كأنهم على
حاميةٍ، وساروا حتى نزلوا بكازرون، وسار المهلب وابن مخنف حتى نزلوا بهم، وخندق
المهلب على نفسه، وأشار على ابن مخنف أن يخندق، فقال أصحابه: نحن خندقنا
سيوفنا، فأتى الخوارج المهلب ليبيتوه، فوجدوه قد خندق، فمالوا نحو ابن مخنف، فقاتلوه،
فانهزم عنه أصحابه، فنزل فقاتل في ناسٍ من أصحابه، فقتل وقتلوا رجاله، فقال شاعرهم:

لمن العسكر المكلّل بالصّر عى فهم بين ميّتٍ وقتيل
فتراهمو تسفى الرياح عليهمو حاصب الرّمل بعد جرّ الذّيول

هذا قول أهل البصرة في قتل ابن مخنف.
وأما أهل الكوفة فقالوا: إنه لما وصل كتاب الحجاج لمناهضة الخوارج ناهضهم المهلب وابن
مخنف، واقتتلوا قتالاً شديداً؛ فمالت الخوارج إلى المهلب فاضطروه إلى عسكره، فاستنجد
عبد الرحمن فأمده بالخيل والرجال، وكان ذلك بعد الظهر لعشرٍ بقين من شهر رمضان سنة
خمس وسبعين.
فلما كان بعد العصر ورأت الخوارج من يأتي من عسكر عبد الرحمن من الرجال علموا أنه
قد خف أصحابه، فجعلوا بإزاء المهلب من يشغله، وانصرفوا بحدهم إلى ابن مخنف، فنزل
ونزل معه القراء، منهم أبو الأحوص صاحب ابن مسعود، وخزيمة بن نصر أبو نصر بن
خزيمة، ونزل معه من قومه واحدٌ وسبعون رجلا، وحملت عليهم الخوارج فقاتلوا قتالاً
شديداً، وانكشف الناس عنه، وبقى في عصابةٍ من أهل الصبر، فقاتلوا حتى ذهب نحو
ثلثي الليل، ثم قتل في تلك العصابة.
فلما أصبحوا جاء المهلب فصلى عليه ودفنه، وكتب بذلك إلى الحجاج، فبعث إلى

عسكر عبد الرحمن عتاب ابن ورقاء، وأمره أن يسمع إلى المهلب، فساءه ذلك، ولم يجد بداً
من طاعته، فجاء وقاتل الخوارج؛ ثم وقع بينه وبين المهلب كلامٌ أغلظ كلٌ منهما لصاحبه،
فرفع المهلب القضيب على عتاب، فوثب المغيرة بن المهلب فقبض القضيب من يد أبيه
وسكته، وأثنى على عتاب، وافترقا.
فأرسل عتاب إلى الحجاج يشكو المهلب، ويسأله أن يأمر بالعود، فوافق ذلك حاجةً من
الحجاج إليه، فاستقدمه، وأمره أن يترك ذلك الجيش مع المهلب، فجعل المهلب عليهم ابنه
حبيباً، وقاتل المهلب الخوارج على سابور، نحو سنةٍ بعد مسير عتاب عنه، وكانت كرمان
في يد الخوارج، وفارس في يد المهلب؛ فضاق على الخوارج مكانهم، فخرجوا حتى أتوا
كرمان، وتبعهم المهلب حتى نزل بجيرفت، وهي مدينة كرمان، فقاتلهم قتالاً شديداً. ثم
أرسل إليه الحجاج البراء بن قبيصة يحثه على قتال الخوارج، ويأمره بالجد، وأنه لا عذر له
عنده.
فخرج المهلب بالعسكر، فقاتل الخوارج من الغداة إلى الظهر، ثم انصرفوا والبراء على تل
مشرف يراهم، فأثنى على المهلب وعلى أصحابه، وانصرف إلى الحجاج، وعرفه عذر
المهلب، ثم قاتلهم المهلب ثمانية عشر شهراً لا يقدر منهم على شيء إلى أن وقع بينهم
الاختلاف.
ذكر الاختلاف بين الأزارقة ومفارقة قطري بن الفجاء إياهم ومبايعتهم عبد رب الكبير والحرب بينه وبين المهلب ومقتله
وفي سنة سبع وسبعين وقع الاختلاف بين الخوارج، فخلعوا قطري بن الفجاءة، وبايعوا عبد
رب الكبير، واختلف في سبب ذلك، فقيل: إن عاملاً لقطري على ناحية كرمان، يدعى
المقعطر الضي، قتل رجلاً منهم، فوثبت الخوارج إلى قطري، وطلبوا منه أن يقيدهم من
عامله، فلم يفعل، وقال: إنه تأول فأخطأ التأويل، وهو من ذوي السابقة فيكم، ما أرى أن
تقتلوه، فاختلفوا.
وقيل: كان السبب في اختلافهم أن رجلاً كان في عسكرهم يعمل النصول المسمومة، فيرمي

بها أصحاب المهلب، فشكا أصحابه منها، فقال: أنا أكفيكموه، فوجه رجلاً من أصحابه
ومعه كتابٌ، فأمره أن يلقيه في عسكر قطري ولا يراه أحد، ففعل، ووقع الكتاب؛ إلى
قطري، فإذا فيه: أما بعد فإن نصالك وصلت، وقد أنفذت إليك ألف درهم، فأحضر
قطريٌ الصانع فسأله. فجحد، فقتله، فأنكر عليه عبد رب الكبير قتله، واختلفوا.
ثم وضع المهلب رجلاً نصرانياً، وأمره أن يسجد لقطري. ففعل. فقال الخوارج: إن هذا
قد اتخذك إلهاً. ووثب بعضهم على النصراني فقتله، فزاد اختلافهم، ففارق بعضهم قطرياً
وخلعوه، وولوا. عبد رب الكبير، وبقي مع قطري منهم نحو ربعهم أو خمسهم، واقتتلوا
فيما بينهم نحواً من شهر.
وكتب المهلب إلى الحجاج بذلك، فكتب إليه الحجاج يأمره بقتالهم على حال اختلافهم قبل
أن يجتمعوا.
فكتب إليه المهلب: إني لست أرى أن أقاتلهم ما دام يقتل بعضهم بعضاً، فإن تموا على
ذلك فهو الذي نريد، وفيه هلاكهم. وإن اجتمعوا لم يجتمعوا إلا وقد رقق بعضهم بعضاً
فأناهضهم حينئذ، وهم أهون ما كانوا وأضعفهم شوكة إن شاء الله تعالى. والسلام.
فسكت عنه.
ثم إن قطرياً خرج بمن معه نحو طبرستان، وأقام عند عبد رب الكبير بكرمان، فنهض
إليهم المهلب، فقاتلوه قتالاً شديداً وحصرهم بجيرفت، وكرر قتالهم وهو لا يبلغ منهم ما
يريد.
فلما طال عليهم الحصار خرجوا من جيرفت بأموالهم وحرمهم، فقاتلهم المهلب قتالاً
شديداً حتى عقرت الخيل وتكسر السلاح، وقتل الفرسان، فتركهم، فساروا؛ ودخل المهلب
جيرفت، ثم سار حتى لحقهم على أربعة فراسخ منها، فقاتلهم من بكرة النهار إلى الظهر،
ثم كف عنهم، فجمع عبد رب الكبير أصحابه، وقال: يا معشر المهاجرين؛ إن قطرياً ومن
معه هربوا، طلب البقاء، ولا سبيل إليه، فألقوا عدوكم، وهبوا أنفسكم لله، ثم عاود
القتال، فاقتتلوا قتالاً شديداً أنساهم ما قبله، فتبايع جماعةً من أصحاب المهلب على الموت،

وترجلت الخوارج، وعقروا دوابهم، واشتد القتال، وعظم الخطب حتى قال المهلب: ما مر
بي يومٌ مثل هذا.
ثم هزم الله الخوارج، وكثر القتل فيهم، فكان عدد القتلى أربعة آلاف، منهم ابن عبد رب
الكبير، ولم ينج منهم إلا القليل، وأخذ عسكرهم وما فيه، وبعث المهلب إلى الحجاج
مبشراً. فلما دخل البشير إليه أخبره عن الجيش وعن الخوارج وذكر حروبهم، وأخبره عن
بني المهلب، فقال: المغيرة فارسهم وسيدهم، وكفى بيزيد فارساً شجاعاً، وجوادهم
وشجاعهم قبيصة، ولا يستحي الشجاع أن يفر من مدركه. وعبد الملك سمٌ ناقع، وحبيب
موتٌ ذعاف، ومحمد ليث غاب، وكفاك بالمفضل نجدة. قال: فأيهم كان أنجد ؟ قال: كانوا
كالحلقة المفرغة لا يعرف طرفها.
استحسن قوله: وكتب إلى المهلب يشكره، ويأمره أن يولي كرمان من يثق إليه، ويجعل فيها
من يحميها، ويقدم عليه، فاستعمل عليها ابنه يزيد. وسار إلى الحجاج.
فلما قدم عليه أكرمه وأجلسه إلى جانبه، وقال: يأهل العراق. أنتم عبيد المهلب. ثم قال
له: أنت كمال قال لقيط بن يعمر الإيادي في صفة أمير الجيوش:
فقلّدوا أمركم لله درّكمو رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفاً إن رخاء العيش ساعده ولا إذا عضّ مكروهٌ به خشعا
مسهّد النّوم تعنيه ثغوركمو يروم منها إلى الأعداء مطّلعا
ما انفكّ يحلب هذا الدّهر أشطره يكون متّبعا طوراً ومتّبعا
وليس يشغله مالٌ يثمّره عنكم ولا ولد يبغي له الرّفعا
حتى استمرت على شزرٍ مريرته مستحكم السنّ لا قحماً ولا ضرعا
وأحسن الحجاج إلى أهل البلاء من أصحاب المهلب وزادهم والله أعلم.
مقتل قطري بن الفجاءة
وعبيدة بن هلال ومن معهما من الأزارقة
كان مقتلهم في سنة سبع وسبعين، وذلك أنه لما تشتت أمرهم بسبب الاختلاف الذي
ذكرناه، وسار قطري نحو طبرستان ندب الحجاج سفيان بن الأبرد في جيشٍ كثيف، فسار،
واجتمع معه إسحاق بن محمد بن الأشعث في جيشٍ لأهل الكوفة بطبرستان، فأقبلا في

طلب قطري، فأدركوه في شعبٍ من شعاب طبرستان، فقاتلوه، فتفرق عنه أصحابه،
وسقط عن دابته فتدهده إلى أسفل الشعب، وأتاه علجٌ من أهل البلد وهو لا يعرفه فقال له
قطري: اسقني الماء. فقال العلج: أعطني شيئاً. فقال: ما معي إلا سلاحي، وإن أتيتني
بالماء فهو لك، فانطلق العلج حتى أشرف على قطري ثم حدر عليه حجراً عظيما من
فوقه، فأصاب وركه فأوهنه، وصاح بالناس فأقبلوا نحوه.
وجاء نفرٌ من أهل الكوفة فقتلوه، منهم سورة بن أبجر التميمي، وجعفر بن عبد الرحمن بن
مخنف، والصباح بن محمد بن الأشعث، وعمر بن أبي الصلت، وكل هؤلاء ادعى قتله،
فجاءهم أبو الجهم ابن كنانة، فقال: ادفعوا رأسه إلي حتى تصطلحوا، فدفعوه إليه، فأقبل به
إلى إسحاق بن محمد، وهو على أهل الكوفة، فأرسله معه إلى سفيان بن الأبرد، فبعثه معه
إلى الحجاج، فسيره معه إلى عبد الملك، فجعل عطاءه في ألفين؛ ثم سار سفيان إليهم،
وأحاط بهم وأميرهم عبيدة بن هلال، فأمر منادياً فنادى: من قتل صاحبه وجاء إلينا فهو
آمن، وحصرهم سفيان حتى أكلوا دوابهم، ثم خرجوا إليه، وقاتلوه، فقتلهم، وبعث
برؤوسهم إلى الحجاج، وانقرضت الأزارقة بعد مقتل قطري وعبيدة، فكان أولهم نافع ابن
الأزرق، وآخرهم قطري وعبيدة. واتصل أمرهم بضعاً وعشرين سنة، ثم دخل سفيان
دنباوند وطبرستان، فكان هناك حتى عزله الحجاج قبل الجماجم.
هذا ما كان من أمر الأزارقة، فلنذكر من سواهم من الخوارج أيام عبد الملك.
ذكر خروج صالح بن مسرح التميمي وشبيب بن يزيد بن نعيم الشيباني
قال: كان صالح بن مسرح التميمي رجلاً ناسكاً مصفر الوجه صاحب عبادة، وكان بدارا
وأرض الموصل والجزيرة، وله أصحابٌ يقرئهم القرآن والفقه، ويقص عليهم، فدعاهم إلى
الخروج وإنكار المظالم وجهاد المخالفين لهم، فأجابوه إلى ذلك، فبينما هم في ذلك إذ ورد
عليهم كتاب شبيب يقول له: إنك كنت تريد الخروج، فإن كان ذلك من شأنك اليوم فأنت

شيخ المسلمين، ولن نعدل بك أحداً، وإن أردت تأخير ذلك فأعلمني؛ فإن الآجال غاديةٌ
ورائحة، ولا آمن أن تختر مني المنية، ولم أجاهد الظالمين.
فكتب إليه صالح: إنه لم يمنعني من الخروج إلا انتظارك، فاخرج إلينا، فإنك ممن لا يستغنى
عن رأيه، ولا تقضي دونه الأمور.
فلما قرأ شبيب كتابه دعا نفراً من أصحابه؛ منهم أخوه مصاد ابن يزيد، والمحلل بن وائل
اليشكري وغيرهم، وخرج بهم حتى قدم على صالح بدارا، فلما لقيه قال: اخرج بنا
رحمك الله، فوالله ما تزداد السنة إلا دروساً، ولا يزداد المجرمون إلا طغياناً.
فبث صالحٌ رسله، وواعد أصحابه للخروج هلال صفر سنة سبت وسبعين، فاجتمعوا
عنده ليلة الموعد، فسأله بعض أصحابه عن القتال؛ أيكون قبل الدعاء أو بعده ؟ فقال: بل
ندعوهم، فإنه أقطع لحجتهم. فقال: كيف ترى فيمن قاتلنا فظفرنا بهم، ما تقول في دمائهم
وأموالهم ؟ فقال: إن قاتلنا فغنمنا فلنا، وإن عفونا فموسعٌ علينا.
ثم وعظ أصحابه وأمرهم بأمره، وقال لهم: إن أكثركم رجالة، وهذه دوابٌ لمحمد بن
مروان فابدءوا بها، فاحملوا عليها راجلكم وتقووا بها على عدوكم.
فخرجوا تلك الليلة فأخذوا الدواب، وأقاموا بأرض دارا ثلاث عشرة ليلة، وتحصن أهلها
منهم وأهل نصيبين وسنجار، وكان خروجه في مائة وعشرين، وقيل: وعشرة.
وبلغ ذلك محمد بن مروان وهو أمير الجزيرة يومئذ، فأرسل إليهم عدي بن عدي الكندي في
ألف، فسار من حران، وكأنه يساق إلى الموت، وأرسل عديٌ إلى صالح يسأله أن يخرج من
هذه البلد، ويعلمه أنه يكره قتاله. وكان عديٌ ناسكاً، فأعاد صالح إليه: إن كنت ترى رأينا
خرجنا عنك. فأرسل إليه: إني لا أرى رأيك، ولكني أكره قتالك وقتال غيرك. فقال صالح
لأصحابه: اركبوا، فركبوا، وحبس الرسول عنده ومضى. فأتى عدياً وهو يصلي الضحى،
فلم يشعروا إلا والخيل قد طلعت عليهم، وهو على غير تعبئة، فحمل عليهم شبيب وهو
على ميمنة صالح، وسويد بن سليم وهو على ميسرته؛ فانهزموا، وأتى عدي بدابته

فركبها، وانهزم. وجاء صالح فنزل في معسكره، وأخذ ما فيه، ودخل أصحاب عدي على
محمد ابن مروان فغضب على عدي. ثم دعا خالد بن جزء السلمي، فبعثه في ألف
وخمسمائة، وبعث الحارث بن جعونة في ألف وخمسمائة، وقال: اخرجا إلى هذه المارقة،
وأغذا السير، فأيكما سبق فهو الأمير على صاحبه، فخرجا متساندين يسألان عن صالح؛
فقيل: إنه نحو آمد، فقصداه، فوجه صالح شبيباً في شطر من أصحابه إلى الحارث، وتوجه
هو نحو خالد، فالتقيا، واقتتلوا وقت العصر أشد قتال حتى أمسوا، وقد كثر الجراح في
الفريقين، فلما حال بينهما الليل خرج صالح وأصحابه، فساروا حتى قطعوا أرض الجزيرة
والموصل، وانتهوا إلى الدسكرة.
فلما بلغ خبرهم الحجاج سرح إليهم الحارث بن عميرة في ثلاثة آلاف من أهل الكوفة،
فلقيهم صالح في تسعين رجلا، وذلك لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة، فاقتتلوا.
فانهزم سويد بن سليم بميسرة صالح، وثبت صالح، فقاتل حتى قتل، وقاتل شبيب حتى
صرع عن فرسه، فحمل عليهم راجلاً فانكشفوا عنه، فنادى: إلي يا معشر المسلمين،
فلاذوا به. فقال لأصحابه: ليجعل كل واحد منكم ظهره إلى ظهر صاحبه، وليطاعن عدوه
حتى ندخل هذا الحصن ونرى رأينا. ففعلوا ذلك، ودخلوا الحصن، وهم سبعون رجلا،
وأحاط بهم الحارث، وأحرق عليهم الباب، وقال: إنهم لا يقدرون على الخروج منه.
وكانت هذه الوقعة بقرية يقال لها المدبج.
بيعة شبيب بن يزيد
الشيباني ومحاربته الحارث بن عميرة وهزيمة الحارث
قال: ولما أحرق الحارث الباب على شبيب انصرف إلى عسكره وقال: إنهم لا يقدرون
على الخروج منه؛ فنصبحهم غداً فنقتلهم. فقال شبيب لأصحابه: ما تنتظرون ؟ فوالله
لئن صبحكم هؤلاء إنه لهلاككم. فقالوا: مرنا بأمرك. فقال: بايعوني أو من شئتم من
أصحابكم، واخرجوا بنا إليهم، فإنهم آمنون، فبايعوه، وأتوا باللبود فبلوها وجعلوها على
جمر الباب وخرجوا. فلم يشعر الحارث إلا وهم بينهم بالسيوف، فصرع الحارث، فاحتمله

أصحابه وانهزموا نحو المدائن، وحوى شبيب عسكرهم، فكان ذلك أول جيش هزمه.
حروب شبيب وعنزة
قال: ثم لقي شبيب سلامة بن سيار التيمي، تيم شيبان، بأرض الموصل، فدعاه إلى
الخروج معه فشرط عليه سلامة أن ينتخب ثلاثين فارساً ينطلق بهم نحو عنزة ليوقع بهم،
فإنهم كانوا قتلوا أخاه فضالة، وكان فضالة قد خرج في ثمانيه عشر رجلا حتى نزل ماءً يقال
له الشجرة وبه عنزة نازلون، فنهضت عنزة فقتلوه ومن معه وأتوا برؤوسهم إلى عبد الملك
فأنزلهم بانقيا، وفرض لهم، وكان خروج فضالة قبل خروج صالح، فأجابه شبيب فخرج
حتى انتهى إلى عنزة، فجعل يقتل المحلة بعد المحلة حتى انتهى إلى فريق منهم فيه خالته قد
أكبت على ابن لها وهو غلامٌ حين احتلم، فأخرجت ثديها إليه وقالت: أنشدك ترحم هذا
يا سلامة. فقال: لا والله ما رأيت فضالة مذ أناخ بأرض الشجرة. لتقومن عنه أو
لأجمعنكما بالرمح، فقامت عنه. فقتله.
ذكر مسيرة شبيب إلى بني شيبان وإيقاعه بهم ودخولهم معه
قال: ثم أقبل شبيب بخيله نحو راذان فهرب منه طائفةٌ من بني شيبان، ومعهم ناسٌ قليلٌ
من غيرهم، فأقبلوا حتى نزلوا ديراً خراباً إلى جنب حولايا، وهم نحو ثلاثة آلاف، وشبيبٌ
في سبعين رجلا أو يزيدون قليلا، فنزل بهم فتحصنوا منه فجعل أخاه مصاد بن يزيد
يحاصرهم، وتوجه إلى أمه ليأخذها وهو في اثني عشر رجلا؛ فمر في طريقه بجماعة من بني
تيم بن شيبان في أموالهم مقيمين؛ لا يرون أن شبيبا يمر بهم. ولا يشعر بمكانهم، فحمل
عليهم فقتل ثلاثين شيخا فيهم حوثرة بن أسد، ومضى إلى أمه؛ وأشرف رجلٌ من الدير
على أصحاب شبيب، فقال: يا قوم؛ بيننا وبينكم القرآن، قال الله تعالى: "وإن أَحَدٌ مِنَ
المشركين اسْتَجَارَكَ فأَجِرْهُ حتى يَسْمَع كلامَ اللهِ ثُمَّ أبْلِغْهُ مأمَنَهُ". فكفوا عنا حتى نخرج
إليكم بأمانٍ وتعرضوا علينا أمركم، فإن قبلناه حرمت عليكم دماؤنا وأموالنا، وإن نحن لم
نقبله رددتمونا إلى مأمننا، ثم رأيتم رأيكم. فأجابوهم فخرجوا إليهم، فعرض عليهم

أصحاب شبيب قولهم، فقبلوه كله، فنزلوا إليهم، وجاء شبيب فأخبر بذلك، فقال: أصبتم
ووفقتم.
شبيب وسفيان الخثعمي
قال: ثم ارتحل شبيب، وخرج معه طائفة، وأقامت طائفة؛ فسار في أرض الموصل نحو
أذربيجان. وكتب الحجاج إلى سفيان ابن أبي العالية الخثعمي يأمره بالقفول، وكان معه ألف
فارس يريد أن يدخل بها طبرستان. فلما أتاه كتاب الحجاج صالح صاحب طبرستان
ورجع، فأمره الحجاج أن ينزل الدسكرة حتى يأتيه جيش الحارث بن عميرة الهمداني وتأتيه
خيل المناظر، ثم يسير إلى شبب. فأقام بالدسكرة ونودي في جيش الحارث: الحرب
بالكوفة والمدائن، فخرجوا حتى أتوا سفيان، وأتته خيل المناظر عليهم سورة ابن أبجر
التميمي، وكتب إليه سورة بالتوقف حتى يلحقه، فعجل سفيان في طلب شبيب، فلحقه
بخانقين وارتفع شبيب عنهم، وأكمن له أخاه مصاداً في خمسين رجلا، ومضى في سفح
الجبل، فقالوا: هرب عدو الله، فاتبعوه، فقال لهم عدي بن عميرة الشيباني: لا تعجلوا حتى
تبصروا الأرض لئلا يكون قد أكمن بها كميناً، فلم يلتفتوا واتبعوه، فلما جازوا الكمين
عطف عليهم شبيب، وخرج أخوه في الكمين، فانهزم الناس بغير قتال، وثبت سفيان في نحو
مائتين؛ فقاتلهم قتالاً شديداً، ثم نجا حتى انتهى إلى بابل مهروذ وكتب إلى الحجاج بالخبر،
ويعرفه وصول الجند إلا سورة بن أبجر فإنه لم يشهد معي القتال.
شبيب وسورة
قال: ولما وصل كتاب سفيان إلى الحجاج كتب إلى سورة ابن أبجر يلومه ويتهدده، ويأمره أن
ينتخب من المدائن خمسمائة فارس ويسير بهم وبمن معه إلى شبيب، فسار سورة بهم نحو
شبيب، وشبيب في جوخي، وسورة في طلبه حتى انتهى إلى المدائن، فتحصن منه وأخذ
منها دواب وقتل من ظهر له، وخرج حتى انتهى إلى النهروان فصلوا وترحموا على
أصحابهم الذين قتلهم علي رضي الله عنه وتبرءوا من علي وأصحابه. وبلغ سورة خبره،

فجمع أصحابه وقال: إن شبيبا لا يزيد على مائة رجل، وقد رأيت أن أنتخبكم فأسير في
ثلاثمائة من شجعانكم وآتيه، فأجابوه إلى ذلك، فسار في ثلاثمائة نحو النهروان، وأذكى
شبيبٌ الحرس، فلما دنا أصحاب سورة علموا بهم، فاستووا على خيولهم، وتعبئوا تعبئتهم
للحرب؛ فلما انتهى إليهم سورة رآهم قد حذروا، فحمل عليهم فثبتوا له، وصاح شبيب
بأصحابه فحملوا عليهم وشبيب يقول:

من ينك العير ينك نيّاكا جندلتان اصطكّتا اصطكاكا

فرجع سورة إلى عسكره وقد هزم الفرسان وأهل القوة، فتحمل بهم، وأقبل نحو المدائن،
فتبعه شبيب يرجو أن يدركه، فوصل إليهم، وقد دخل الناس المدائن، فمر على كلواذا،
فأصاب بها دواب كثيرة للحجاج، فأخذها ومضى إلى تكريت، وأرجف الناس بالمدائن
بوصول شبيب إليهم، فهرب من بها من الجند نحو الكوفة، وحبس الحجاج سورة ثم
أطلقه.

شبيب والجزل
بن سعيد وقتل سعيد بن مجالد

قال: ولما قدم الفل الكوفة سير الحجاج الجزل بن سعيد ابن شرحبيل الكندي، واسمه
عثمان، نحو شبيب، وأوصاه بالاحتياط وترك العجلة، وأخرج معه أربعة آلاف ليس فيهم
أحدٌ ممن هزم، فقدم الجزل بين يديه عياض بن أبي لينة الكندي، فساروا في طلب شبيب
وهو يخرج من رستاق إلى رستاق، يقصد بذلك أن يفرق الجزل أصحابه فيلقاه وهو على
غير تعبئة، فجعل الجزل لا يسير إلا على تعبئة، ولا ينزل إلا خندق على نفسه.

فلما طال ذلك على شبيب دعا أصحابه وكانوا مائةً وستين رجلاً، ففرقهم أربع فرق كل
فرقة أربعين، فجعل أخاه مصادا في أربعين، وسويد بن سليم في أربعين، والمحلل بن وائل في
أربعين، وبقي هو في أربعين. وأتته عيونه، فأخبروه أن الجزل يريد يزدجرد، فسار شبيب،
وأمر كل رأس من أصحابه أن يأتي الجزل من جهة ذكرها له، وقال: إني أريد أن أبيته،
فسار أخوه فانتهى إلى دير الخرارة، فرأى للجزل مسلحة مع ابن أبي لينة، فحمل عليهم

مصاد فيمن معه، فقاتلوه ساعةً، ثم اندفعوا بين يديه، وقد أدركهم شبيب، فقال: اركبوا
أكتافهم لتدخلوا عليهم عسكرهم إن استطعتم.
فاتبعوهم فانتهوا إلى عسكرهم، فمنعهم أصحابهم من دخول خندقهم، وكان للجزل
مسالح أخرى فرجعت، فمنعهم من دخول الخندق، وجعل شبيب يحمل على المسالح حتى
اضطرهم إلى الخندق، ورشقهم أهل العسكر بالنبل. فلما رأى شبيب أنه لا يصل إليهم
سار عنهم وتركهم، ثم نزل هو وأصحابه فاستراحوا، ثم أقبل بهم راجعاً إلى الجزل، فأقبلوا
وقد أدخل أهل العسكر مسالحهم إليهم وأمنوا، فما شعروا إلا بوقع حوافر الخيل، فانتهوا
إليهم قبل الصبح، وأحاطوا بعسكرهم من جهاته الأربع، ثم انصرف شبيب وتركهم، ولم
يظفر بهم، فنزل على ميل ونصف، ثم صلى الغداة وسار نحو جرجرايا، وأقبل الجزل في
طلبهم على تعبئته، وسار شبيب في أرض الجوخي وغيرها، فطال ذلك على الحجاج،
فكتب إلى الجزل ينكر عليه إبطاءه ويأمره بمناهضتهم، فجد في طلبهم وبعث الحجاج سعيد
بن المجالد على جيش الجزل، وأمره بالجد في قتال شبيب وترك المطاولة، فوصل سعيد إلى
الجزل وهو بالنهروان وقد خندق عليه، فقام في العسكر ووبخهم وعجزهم.
ثم خرج، وأخرج معه الناس، وضم إليه خيول أهل العسكر ليسير بهم جريدة إلى شبيب
ويترك الناس مكانهم، فنهاه الجزل عن ذلك، فلم ينته ولم يرجع إليه، وتقدم ومعه الناس،
وأخذ شبيب إلى قطيطيا، فدخلها وأغلق الباب، وأمر دهقانها أن يصلح لهم غداء، فلم
يتهيأ الغداء حتى أتاه سعيد في ذلك الجيش، فأعلم الدهقان شبيباً، فقال: لاب أس، قرب
الغداء، فقربه فأكل وتوضأ وصلى ركعتين، وركب بغلاً، وخرج إلى سعيد وهو على باب
المدينة فحمل عليهم، وقال: لا حكم إلا للحكم، فهزمهم وثبت سعيد، ونادى أصحابه،
فحمل عليه شبيب، فضربه بالسيف فقتله، فانهزم ذلك الجيش، وقفلوا حتى انتهوا إلى
الجزل، وكان قد وقف في بقية العسكر، فناداهم: أيها الناس، إلي إلي، وقاتل قتالاً شديداً
حتى حمل جريحاً، وقدم المنهزمون الكوفة.

وكتب الجزل إلى الحجاج بالخبر، وأقام بالمدائن، فكتب إليه الحجاج يشكره ويثني عليه،
وأرسل إليه نفقةً ومن يداوي جراحه، وسار شبيب نحو المدائن فعلم أنه لا سبيل إلى
أهلها؛ فأقبل حتى أتى الكرخ، فعبر دجلة إليه، وأرسل إلى أهل سوق بغداد فأمنهم، وكان
يوم سوقهم، واشترى أصحابه دواب وغيرها.

ذكر مسير شبيب إلى الكوفة

قال: ثم سار شبيب إلى الكوفة فنزل عند حمام عمر ابن سعد، فلما بلغ الحجاج مكانه
بعث سويد بن عبد الرحمن السعدي في ألفي رجل، وقال له: الق شبيباً فإن استطرد لك
فلا تتبعه. فخرج وعسكر بالسبخة، فبلغه أن شبيباً قد أقبل، فسار نحوه وأمر الحجاج
عثمان بن قطن فعسكر بالناس في السبخة، فبينا سويد يعبيء أصحابه إذ قيل له: أتاك
شبيب؛ فنزل ونزل معه جل أصحابه، ثم أخبر أنه قد عبر الفرات وهو يريد الكوفة من
وجهً آخر، فركب هو ومن معه، وساروا في آثارهم، وبلغ من بالسبخة إقبال شبيب فهموا
بدخول الكوفة، ثم قيل لهم: إن سويداً في آثارهم قد لحقهم وهو يقاتلهم، فثبتوا، وحمل
شبيب على سويد ومن معه حملةً منكرة، ثم أخذ على بيوت الكوفة نحو الحيرة، وذلك
عند المساء، وتبعه سويد إلى الحيرة، فرآه قد ترك وذهب، فتركه سويد وأقام حتى أصبح.
وأرسل إلى الحجاج يعلمه الخبر.

محاربة شبيب أهل البادية

قال: وكتب الحجاج إلى سويد يأثره باتباعه، فاتبعه، ومضى شبيب حتى أغار أسفل
الفرات على من وجد من قومه، وارتفع إلى البر فأصاب رجالاً من بني الورثة، فقتل منهم
ثلاثة عشر رجلا، منهم: حنظلة بن مالك، ومالك بن حنظلة، ومضى حتى أتى بني أمية
على اللصف، وعلى ذلك الماء الفزر بن الأسود، وهو أحد بني الصلت، وكان ينهى شبيبا
عن رأيه، وكان شبيب يقول: لئن ملكت سبعة أعنة لأغزون الفزر، فلما بلغهم خبر شبيب
ركب الفزر فرساً، وخرج من البيوت وانهزم. فرجع شبيب، وقد أخاف أهل البادية،
فأخذ على القطقطانة ثم على قصر بني مقاتل، ثم على الأنبار، ومضى حتى دخل دقوقاء،

ثم ارتفع إلى أداني أذربيجان، فلما أبعد سار الحجاج إلى البصرة، واستخلف على الكوفة
عروة بن شعبة، فأتاه الخبر بإقبال شبيب نحو الكوفة، فكتب إلى الحجاج بذلك، فأقبل من
البصرة مجداً نحو الكوفة فسابق شبيباً إليها.

دخول شبيب الكوفة

قال: وأقبل شبيب إلى الكوفة فسابق الحجاج إليها، فطوى الحجاج المنازل، فوصل الكوفة
صلاة العصر، ونزل شبيب السبخة صلاة المغرب، فأكلوا شيئا ثم ركبوا خيولهم فدخلوا
الكوفة وبلغوا السوق، وضرب شبيب باب القصر بعموده، فأثر فيه أثرا عظيماً، ووقف
عند المصطبة، ثم قال:

عبد دعىّ من ثمودٍ أصله لا بل يقال أبو أبيهم يقدم

يعني الحجاج، فإن بعض الناس يقول: إن ثقيفاً بقايا ثمود، ومنهم من يقول: هم من نسل يقدم
الإيادي.

ثم اقتحموا المسجد الأعظم، وكان لا يفارقه قوم يصلون فيه، فقتاوا عقيل بن صعب
الوادعي، وعدي بن عمرو الثقفي، وأبا ليث ابن أبي سليم؛ ومروا بدار حوشب وهو على
الشرط - فقالوا: إن الأمير يطلبه، فأراد الركوب، ثم أنكرهم فلم يخرج إليهم، فقتلوا
غلامه. ثم مروا بمسجد بني ذهل، فرأوا ذهل بن الحارث فقتلوه، ثم خرجوا من الكوفة،
فاستقبلهم النضر بن القعقاع بن شور الذهلي، وكان قد أقبل مع الحجاج من البصرة،
فتخلف عنه فقتلوه، ثم خرجوا نحو المردمة، وأمر الحجاج منادياً فنادى: يا خيل الله اركبي؛
فأتاه الناس من كل جانب، فبعث بشر بن غالب الأسدي في ألفي رجل، وزائدة بن قدامة
الثقفي في ألفي رجل، وأبا الضريس مولى بني تميم في ألفي رجل، وعبد الأعلى بن عبد الله
بن عامر، وزياد ابن عمرو العتكي، وسير معهم محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله،
وكان عبد الملك قد استعمله على سجستان، وكتب إلى الحجاج أن يجهزه، فقال له
الحجاج: تلقى شبيباً فتجاهده، فيكون الظفر لك، ويظهر اسمك ثم تمضى إلى عملك.
وقال الحجاج لهؤلاء الأمراء: إن كان حربٌ فأميركم زائدة ابن قدامة. فساروا فنزلوا أسفل
الفرات، فترك شبيب الوجه الذي هم فيه وأخذ نحو القادسية.

محاربة شبيب
زحر بن قيس وهزيمة جيش زحر
قال: ووجه الحجاج جريدة خيلٍ اختارهم ألف وثمانمائة فارس مع زحر بن قيس، وقال له:
اتبع شبيباً حتى تواقعه أين أدركته إلا أن يكون ذاهباً فاتركه ما لم يعطف عليك؛ فخرج
زحر حتى انتهى إلى السيلحين، وأقبل شبيب نحوه فالتقيا، فجمع شبيب خيله، ثم اعترض
بهم الصف حتى انتهى إلى زحر، فقاتل زحر حتى صرع، وانهزم أصحابه وظنوا أنهم
قتلوه، فلما كان السحر قام يمشي حتى دخل قريةً فبات بها، وحمل منها إلى الكوفة وبوجهه
ورأسه بضع عشرة جراحة، فمكث أياماً. ثم أتى الحجاج فأجلسه معه على السرير،
وقال: من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة يمشي في الناس فلينظر إلى هذا.
ذكر محاربته الأمراء الذين ندبهم الحجاج لقتاله وقتال محمد بن موسى بن طلحة وزائدة
بن قدامة
قال: لما هزم شبيب أصحاب زحر قال له أصحابه نصرف بنا الآن وافرين، فقد هزمنا لهم
جنداً. فقال: إن هذه الهزيمة قد أرعبت قلوب الأمراء والجنود الذين في طلبكم؛
فاقصدوهم، فوالله لئن قاتلناهم ما دون الحجاج مانع، ونأخذ الكوفة إن شاء الله.
فقالوا: نحن لرأيك تبع، وسأل عن الأمراء فقيل: إنهم بروذبار على أربعة وعشرين فرسخا
من الكوفة؛ فقصدهم فانتهى إليهم وقد تعبئوا للحرب، وأمير الجماعة زائدة بن قدامة،
وعلى ميمنته زياد بن عمرو العتكي، وعلى الميسرة بشر بن غالب الأسدي، وكل أمير
واقفٌ في أصحابه.
وأقبل شبيب في ثلاث كتائب: كتيبة فيها سويد بن سليم وقف بإزاء الميمنة، وكتيبة فيها
مصاد أخو شبب وقف بإزاء الميسرة، ووقف شبيب مقابل القلب. فحمل سويد على
زياد فانكشف أهل الميمنة، وثبت زياد في نحوٍ من نصف أصحابه، ثم ارتفع عنهم سويد
قليلاً، ثم حمل ثانية فتطاعنوا ساعةً، واقتتلوا أشد قتال، ثم ارتفع سويد عنهم، فتفرق
أصحاب زياد بن عمرو من كل جانب، فحمل عليهم الثالثة فانهزموا وأخذت السيوف زياد

بن عمرو من كل جانب فلم تضره للباسه، فانهزم وقد جرح جراحةً يسيرة، وذلك عند
المساء، ثم حملوا على عبد الأعلى بن عبد الله ابن عامر، فهزموه، ولم يقاتل كثيراً، ولحق
بزياد؛ فمضيا منهزمين.
وحملت الخوارج على محمد بن موسى بن طلحة عند المغرب، فقاتلوه قتالاً شديداً، وحمل
مصاد على بشر بن غالب، وهو في ميسرة أهل الكوفة، فصبر بشر، ونزل ونزل معه نحو
خمسين رجلاً، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم، وانهزم أصحابه، وحملت الخوارج على أبي
الضريس مولى بني تميم، وهو يلي بشر بن غالب، فهزموه حتى انتهى إلى موقف أعين، ثم
حملوا عليه وعلى أعين، فهزموهما حتى انتهوا بهما إلى زائدة بن قدامة، فنادى زائدة: يأهل
الإسلام؛ الأرض، الأرض، لا يكونوا على كفرهم أصبر منكم على إيمانكم، فقاتلهم عامة
الليل حتى كان السحر، ثم إن شيباً حمل عليه في جماعة من أصحابه، فقتله وقتل
أصحابه، فلما قتل دخل أبو الضريس وأعين جوسقاً عظيما، وقال شبيب لأصحابه: ارفعوا
السيف عنهم، وادعوهم إلى البيعة، فدعوهم إلى البيعة عند الفجر، فبايعوه وسلموا عليه
بإمرة المؤمنين، وكان فيمن بايعه أبو بردة بن أبي موسى الأشعري، فلما طلع الفجر أمر محمد
بن موسى بن طلحة مؤذنه فأذن، وكان لم ينهزم. فقال شبيب: ما هذا ؟ قالوا: محمد بن
موسى لم يبرح، فقال: قد ظننت أن حمقه وخيلاءه يحمله على هذا. ثم نزل شبيب فأذن
هو وصلى بأصحابه الصبح، ثم ركبوا فحملوا على محمد وأصحابه، فانهزمت طائفةٌ منهم،
وثبتت معه طائفةٌ، فقاتل حتى قتل، وأخذت الخوارج ما في العسكر، وانهزم الذين كانوا
بايعوا شبيباً بجملتهم، ثم أتى شبيب الجوسق الذي فيه أعين وأبو الضريس فتحصنوا منه،
فأقام عليهم يومه ذلك، وسار عنهم فأتى خانيجار فأقام بها، وبلغ الحجاج مسيره، فظن أنه
يريد المدائن، فهاله ذلك، فبعث عثمان بن قطن أميراً على المدائن وعزل عنها عبيد الله بن
أبي عصيفير.
وقيل في مقتل محمد بن موسى: أنه قتله مبارزةً، وذلك أنه كان شهد مع عمر بن عبيد الله

بن معمر قتال أبي فديك، وكان شجاعاً ذا بأس، فزوجه عمر ابنته، وكانت أخته تحت
عبد الملك ابن مروان، فولاه سجستان، فمر بالكوفة وفيها الحجاج، فقيل له: صار هذا
بسجستان مع صهره لعبد الملك، فلو لجأ إليه أحدٌ ممن يطلب منعك منه. قال: فما الحيلة
؟ قال: تأتي إليه، وتسلم عليه، وتذكر نجدته وبأسه، وأن شبباً في طريقه، وأنه قد أعياك،
وترجو أن يريح الله منه على يده، فيكون له ذكره وفخره.
ففعل الحجاج ذلك، فأجابه محمد، وعدل إلى شبيب، فأرسل إليه شبيب إنك مخدوع، وإن
الحجاج قد اتقى بك، وأنت جار لك حق، فانطلق لما أمرت به ولك الله أني لا أضرك فأبى
إلا محاربته، فواقفه شبيب، وأعاد عليه الرسول، فأبى وطلب البراز فبرز إليه شبيب، وقال
له: أنشدك الله في دمك؛ فإن لك جواراً، فأبى. فحمل عليه شبيب فضربه بعمود حديد
زنته اثنا عشر رطلا بالشامي، فهشم البيضة ورأسه، فسقط فكفنه شبيب ودفنه، وابتاع
ما غنمه من عسكره فبعثه إلى أهله واعتذر شبيب إلى أصحابه، وقال: هو جاري، ولي
أن أهب ما غنمت.
ذكر محاربته عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث وعثمان بن قطن وقتل ابن قطن
قال: ثم إن الحجاج أمر عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث أن ينتخب ستة آلاف فارس
ويسير بهم في طلب شبيب أين كان، ففعل ذلك، وسار نحوه، فسار شبيب إلى دقوقاء
وشهرزور، وعبد الرحمن في طلبه حتى انتهى إلى التخوم، فوقف وقال: هذه أرض الموصل،
فليقاتلوا عنها.
فكتب إليه الحجاج: أما بعد فاطلب شبباً واسلك في أثره أين سلك حتى تدركه فتقتله أو
تنفيه، فإنما السلطان سلطان أمير المؤمنين والجند جنده.
فخرج عبد الرحمن في طلبه، فكان شبيب يدعه حتى يدنو منه فيبيته فيجده قد خندق
على نفسه وحذر، فيتركه ويسير فيتبعه عبد الرحمن، فإذا بلغ شبيباً مسيرهم أتاهم وهم
سائرون فيجدهم على تبعئةٍ فلا يصيب لهم غرةً، ثم جعل إذا دنا منه عبد الرحمن يسير
عشرين فرسخا، ونحوها، وينزل في أرض خشنة غليظة، ويتبعه عبد الرحمن، فإذا دنا منه

فعل مثل ذلك حتى أتعب ذلك الجيش، وشق عليهم، وأخفى دوابهم.
ولم يزل عبد الرحمن يتبعه حتى مر به على خانقين وجلولاء وتامرا، ثم أقبل إلى البت،
وهي من قرى الموصل ليس بينها وبين سواد الكوفة إلا نهر حولايا، وذلك في عشر ذي
الحجة سنة ست وسبعين، فأرسل شبيب إلى عبد الرحمن: إن هذه أيام عيدٍ لنا ولكم
يعني عيد النحر، فهل لك في الموادعة حتى تمضي هذه الأيام ؟ فأجابه إلى ذلك، وكان
يحب المطاولة.
وكتب عثمان بن قطن أمير المدائن إلى الحجاج يقول: أما بعد فإن عبد الرحمن قد حفر
جوخي كلها خندقاً واحداً، وكسر خراجها، وخلى شبيباً يأكل أهلها. والسلام.
فكتب إليه الحجاج يأمره بالمسير إلى الجيش، وأمره عليهم، وعزل عنهم عبد الرحمن،
وبعث إلى المدائن مطرف بن المغيرة ابن شعبة، فسار عثمان حتى قدم على العسكر
عشية الثلاثاء يوم التروية؛ فنادى لانسا - وهو على بغلةٍ: أيها الناس، اخرجوا إلى عدوكم،
فقالوا: هذا المساء قد غشينا والناس لم يوطنوا أنفسهم على لاحرب، فبت الليلة ثم اخرج
على تعبئة، فأبى ذلك، ثم نزل وبات ليلته يحرض أصحابه، فلما أصبح يوم الأربعاء خرج
بالناس كلهم، فاستقبلتهم ريحٌ شديدة وغبرة، فقال له أصحابه: ننشدك الله أن تخرج بنا
والريح علينا. فأقام بهم ذلك اليوم، ثم خرج يوم الخميس، ثم عبأهم، فجعل في الميمنة خالد
بن نهيك بن قيس، وعلى الميسرة عقيل بن شداد، ونزل هو في الرجالة، وعبر شبيب إليهم
النهر، وهو يومئذ في مائةٍ وأحد وثمانين رجلا، فوقف هو في الميمنة، وجعل أخاه مصاداً في
القلب، وجعل سويد بن سليم في الميسرة، وزحف بعضهم إلى بعض، فحمل شبيب على
ميسرة عثمان فانهزموا، ونزل عقيل بن شداد فقاتل حتى قتل، وقتل مالك ابن عبد الله
الهمداني، ودخل شبيب عسكرهم، وحمل سويد على ميمنة عثمان فهزمها، فقاتل خالد
بن نهيك قتالاً شديداً، وحمل شبيب من ورائه فقتله، وتقدم عثمان بن قطن وقد نزل معه

العرفاء وأشراف الناس والفرسان نحو القلب وفيه مصاد أخو شبيب في نحوٍ من ستين
رجلا، فشد عليهم عثمان فيمن معه فثبتوا له.
وحمل شبيب بالخيل من روائهم فما شعروا إلا والرماح في أكتافهم تكبهم لوجوههم،
وعطف عليهم سويد بن سليم في خيله، وقاتل عثمان بن قطن أحسن قتال، ثم أحاطوا
به، وضربه مصاد بن يزيد ضربةً بالسيف استدار لها وقال: وكان أمر الله مفعولا.
ثم قتل، وسقط عبد الرحمن عن فرسه، فأتاه ابن أبي سبرة الجعفي وهو على بغلةٍ فأركبه
معه، ونادى في الناس: الحقوا بدير أبي مريم، ثم انطلقا ذاهبين، ثم أتاه واصل بن الحارث
السكوني ببرذون فركبه وسار حتى نزل دير البقار، وأمر شبيب أصحابه فرفعوا السيف
عن الناس، ودعاهم إلى البيعة فبايعوه، وقتل يومئذ من كندة مائة وعشرون، وبات عبد
الرحمن بدير البقار، فأتاه فارسان، فصعدا إليه فخلا به أحدهما طويلاً ثم نزلا؛ فقيل: إن
ذلك الرجل كان شبيباً، وكان بينه وبين عبد الرحمن مكاتبةٌ، وسار عبد الرحمن حتى أتى
دير أبي مريم، فاجتمع الناس إليه وقالوا له: إن سمع شبيبٌ بمكانك أتاك فكنت له غنيمة.
فخرج إلى الكوفة واختفى من الحجاج حتى أخذ له الأمان منه، وكانت هذه الوقاع التي
ذكرناها كلها من أخبار شبيب في سنة ست وسبعين.
ذكر محاربة عتاب بن ورقاء وزهرة بن حوية وقتلهما
وفي سنة سبع وسبعين أتى شبيب ماه بهراذان فصيف بها ثلاثة أشهر، وكان حين هزم
ذلك الجيش حر شديد، فلما صيف هناك أتاه ناس كثير ممن يطلب الدنيا وممن كان الحجاج
يطلبهم بمال أو تبعات.
فلما ذهب الحر خرج في نحو ثمانمائة رجل، فأقبل نحو المدائن، وعليها مطرف بن المغيرة بن
شعبة، فجاء حتى نزل قناطر حذيفة ابن اليمان، فكتب مهروذ عظيم بابل إلى الحجاج
بذلك، فقام الحجاج في الناس فقال: أيها الناس، لتقاتلن عن بلادكم وعن بنيكم أو لأبعثن إلى
قوم هم أطوع وأصبر على اللأواء والقيظ منكم، فيقاتلون عدوكم ويأكلون فيئكم.
فقام إليه الناس من كل جانب فقالوا: نحن نقاتلهم فليندبنا الأمير إليهم، وقام زهرة بن حوية

- وهو شيخ كبير، فقال: أصلح الله الأمير، إنما تبعث إليهم الناس متقطعين، فاستنفر الناس
إليهم كافة، وابعث إليهم رجلاً شجاعاً مجربا ممن يرى الفرار هضما وعاراً، والصبر مجداً
وكرماً.
فقال الحجاج: فأنت ذاك الرجل، فاخرج.
فقال: أصلح الله الأمير، إنما يصلح رجل يحمل الدرع والرمح، ويهز السيف، ويثبت على
الفرس، وأنا لا أطيق شيئاً من هذا، وقد ضعف بصرى، ولكن أخرجني في الناس مع
الأمير فأشير عليه برأيي.
فقال له الحجاج: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله في أول أمرك وآخره.
ثم قال: أيها الناس، سيروا بأجمعكم كافة، فخرج الناس يتجهزون ولا يدرون من أميرهم.
وكتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره أن شبيباً قد شارف المدائن؛ وأنه يريد الكوفة، وقد
عجز أهلها عن قتاله في مواطن كثيرة، يقتل أمراءهم وبهزم جندهم؛ وسأله أن يبعث جنداً
من الشام يقاتلون الخوارج، ويأكلون البلاد. فبعث عبد الملك سفيان بن الأبرد الكلبي في
أربعة آلاف، وحبيب بن عبد الرحمن الحكمي في ألفين، وبعث الحجاج إلى عتاب بن ورقاء
يستدعيه، وكان يقاتل الازارفة مع المهلب كما تقدم.
واشتشار الحجاج أهل الكوفة فيمن يوليه أمر الجيش، فقالوا: رأيك أفضل. فقال: قد
بعثت إلى عتاب بن ورقاء وهو قادم عليكم الليلة أو القابلة؛
فقال زهرة: رميتهم بحجرهم،
والله لا يردع إليك حتى يظفر أو يقتل. وقال له قبيصة بن والق: إن الناس قد تحدثوا أن
جيشاً قد وصل إليك من الشام، وأن أهل الكوفة قد هزموا وهان عليهم الفرار، فقلوبهم
كأنها ليست فيهم؛ فإن رأيت أن تبعث إلى أهل الشام ليأخذوا حذرهم، فإنك تحارب
حولاً قلباً ظعاناً رحالاً، وقد جهزت إليهم أهل الكوفة ولست واثقاً بهم كل الثقة، فإن
شبيباً بينا هو في أرض إذا هو في أخرى، ولا آمن أن يأتي أهل الشام وهم آمنون؛ فإن
يهلكوا تهلك ويهلك أهل العراق.
فقال: لله أبوك، ما أحسن ما أشرت به ! وأرسل إلى أهل الشام يحذرهم ويأمرهم أن يأتوا

على عين التمر، ففعلوا، وقدم عتاب بن ورقاء تلك الليلة، فبعثه الحجاج على ذلك الجيش،
فعسكر بحمام أعين، وأقبل شبيب حتى انتهى إلى كلواذا فقطع منها دجلة، ثم سار حتى
نزل مدينة بهرسير الدنيا، وهي المدائن الغربية، فصار بينه وبين مطرفٍ دجلة، فقطع مطرف
الجسر، وبعث إلى شبيب أن ابعث إلي رجالا من وجوه أصحابك أدارسهم القرآن وأنظر
فيما يدعون إليه، فبعث إليه بمعتب بن سويد والمحلل وغيرهما، وأخذ منه رهائن على عود
أصحابه، فأقاموا عنده أربعة أيام، ثم أعادهم، ولم يتفقوا، فلما لم يتبعه مطرف تهيأ للمسير
إلى عتاب. وأقبل عتاب حتى نزل بسوق حكمة وقد خرج معه من المقاتلة أربعون ألفاً،
ومن الشباب والأتباع عشرة آلاف، فكانوا خمسين ألفاً. وكان الحداد قد قال لهم حين
ساروا: ألا إن للسائر المجد الكرامة والأثرة، وللهارب الهوان والجفوة، والذي لا إله غيره لئن
فعلتم في هذا الموطن كفعلكم في غيره من المواطن لأولينكم كنفاً خشناً، ولأعركمكم
بكلكل ثقيل.
وسار شبيب من المدائن وأصحابه ألف رجل، فتخلف عنه بعضهم، فصلى الظهر
بساباط، وصلى العصر، وسار حتى أشرف على عتاب وعسكره، فلما رآهم نزل فصلى
المغرب؛ وكان عتاب قد عبأ أصحابه، فجعل في الميمنة محمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن
قيس، وفي الميسرة نعم بن عليم، وبعث حنظلة بن الحارث اليربوعي - وهو ابن عمه على
الرجالة، وصفهم ثلاثة صفوف: صف فيهم أصحاب السيوف، وصف فيهم أصحاب
الرماح، وصف فيهم الرماة، ثم سار في الناس يحرضهم على القتال، ورجع فجلس في
القلب، ومعه زهرة بن حوية جالس، وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وأبو بكر ابن
محمد بن أبي جهم العدوي.
وأقبل شبيب وهو في ستمائة، وقد تخلف عنه من أصحابه أربعمائة؛ فجعل سويد بن
سليم في الميسرة في مائتين، والمحلل بن وائل في القلب في مائتين، ووقف هو في الميمنة في
مائتين، وذلك بين المغرب والعشاء الآخرة حين أضاء القمر، فناداهم: لمن هذه الرايات ؟

قالوا: لربيعة. قال: طالما نصرت الحق، وطالما نصرت الباطل؛ والله لأجاهدنكم محتسباً، أنا
شبيب، لا حكم إلا للحكم، اثبتوا إن شئتم.
ثم حمل عليهم ففضهم، فثبت أصحاب رايات قبيصة بن والق، وعبيد بن الحليس، ونعيم
بن عليم، فقتلوا، وانهزمت الميسرة كلها، ثم حمل شبيب على عتاب بن ورقاء، وحمل
سويد بن سليم على الميمنة وعليها محمد بن عبد الرحمن، فقاتلهم في رجال من تميم
وهمدان؛ فما زالوا كذلك حتى قيل لهم: قتل عتاب، فانفضوا. ولم يزل عتاب جالساً على
طنفسته في القلب ومعه زهرة بن حوية حتى عشيهم شبيب، فقال عتاب: يا زهرة، هذا
يوم كثر فيه العدد وقل فيه الغناء، والهفي على خمسمائة فارس من تميم من جميع الناس،
ألا صابر لعدوه ! ألا مواس بنفسه ! فانقضوا عنه وتركوه، فلما دنا منه شبيب وثب في
عصابة قليلة صبرت معه؛ وقاتل ساعة، فرآه رجل من أصحاب شبيب يقال له عامر بن
عمرو التغلبي، فحمل عليه فطعنه، وجاء الفضل بن عامر الشيباني إلى زهرة فقتله، وتمكن
شبيب من أهل العسكر والناس، فقال: ارفعوا السيف. ودعاهم إلى البيعة، فبايعه الناس
وهربوا من ليلتهم، وحوى ما في العسكر. وأقام شبيب بعد الوقعة ببيت قرة يومين، ثم
سار نحو الكوفة فنزل بسورا. وقتل عاملها، وكان سفيان بن الأبرد وعسكر الشام قد
دخلوا الكوفة فشدوا ظهر الحجاج، واستعنى بهم عن أهل الكوفة، وقام على المنبر فقال:
يا أهل الكوفة، لا أعز الله من أرادبكم العز، ولا نصر من أراد بكم النصر، اخرجوا عنا
فلا تشاهدوا معنا قتال عدونا، انزلوا الحيرة مع اليهود والنصارى، ولا يقاتل معنا إلا من لم
يشهد قتال عتاب.
قدوم شبيب الكوفة وانهزامه عنها
قال: ثم سار شبيب من سورا فنزل حمام أعين، فدعا الحجاج الحارث بن معاوية الثقفي،
فوجهه في ناس من الشرط وغيرهم لم يشهدوا يوم عتاب، فخرجوا في ألف فنزلوا زرارة،
فبلغ ذلك شبيباً، فعجل إلى الحارث، فلما انتهى إليه حمل عليه فقتله، وانهزم أصحابه،

فدخلوا الكوفة، وجاء شبيب فعسكر بنا حية الكوفة فأقام ثلاثا، فنزل السبخة، وابتنى
بها مسجداً، وذلك في اليوم الثاني من الأيام الثلاثة.
فلما كان اليوم الثالث أخرج الحجاج أبا الورد مولاه عليه تجفاف ومعه غلمان له، فقالوا:
هذا الحجاج ! فحمل عيه شبيب فقتله، فأخرج إليه غلامه طهمان في مثل تلك العدة
والحالة، فقتله شبيب، وقال: إن كان هذا الحجاج فقد أرحتكم منه.
ثم خرج الحجاج عند ارتفاع النهار من القصر، فركب بغلاً ومعه أهل الشام، فلما رأى
الحجاج شبيبا وأصحابه نزل وجلس على كرسي، وتقدم إليه شبيب وأصحابه فلقوهم
بأطراف الأسنة؛ فكان بينهم قتال شديد عامة النهار، حتى انتهى الحجاج إلى مسجد
شبيب، فقال: هذا أول الفتح.
ثم قال خالد بن عتاب للحجاج: ائذن لي في قتالهم، فإني موتور. فأذن له، فخرج مصاداً
أخا شبيب، وقتل امرأته غزالة، هذا وشبيب يقاتل الحجاج، وأتى الخبر الحجاج فكبر
فعندها ركب شبيب وكان قد نزل فقاتل على الأرض، وقال الحجاج لأصحابه: احملوا
عليهم، فإنه قد أتاهم ما أرعبهم؛ فشدوا على أصحاب شبيب فهزموهم، وثبت شبيب
في حامية الناس، فبعث الحجاج إلى خيله أن دعوه، فتركوه ورجعوا، ودخل الحجاج
الكوفة، وبعث حبيب بن عبد الرحمن الحكمي في ثلاثة آلاف فارس من أهل الشام، فخرج
في أثره حتى نزل إلى الأنبار.
وكان الحجاج قد نادى عند انهزام شبيب: من جاءنا منكم فهو آمن؛ فتفرق عن شبيب
ناس كثير من أصحابه. فلما نزل حبيب الأنبار أتاهم شبيب، فلما دنا منهم نزل فصلى
المغرب، وكان حبيب قد جعل أصحابه أرباعا، وقال: ليمنع كل ربع منكم جانبه فإن قاتل
هذا الربع فلا يعنهم الربع الآخر. وأتاهم شبيب وهو على تعبئته فحمل على ربع، فقاتلهم
طويلاً، فما زالت قدم إنسان عن موضعها فتركهم، وأقبل إلى ربع آخر، فكانوا كذلك، وقاتل
الربع الثالث والرابع وهم كذلك، فما برح يقاتلهم حتى ذهب ثلاثة أرباع الليل، ثم نازلهم

راجلاً، فسقطت بينهم الأيدي وكثرت القتلى، وفقئت الأعين، وقتل من أصحاب شبيب
نحو ثلاثين رجلاً، ومن أهل الشام نحو مائة. واستولى التعب والإعياء على الطائفتين حتى
إن الرجل ليضرب بسيفه فلا يصنع شيئاً، فلما يئس شبيب منهم تركهم وانصرف عنهم، ثم
قطع دجلة وأخذ في أرض جوخى ثم قطع دجلة مرة أخرى عند واسط، وأخذ نحو
الأهواز إلى فارس ثم إلى كرمان ليستريح وهو ومن معه.

مهلك شبيب

كان مهلك شبيب في سنة سبع وسبعين، وسبب ذلك أن الحجاج أنفق في أصحاب
سفيان بن الأبرد مالاً عظيماً، وأمرهم بقصد شبيب، فساروا نحوه مع سفيان بن الأبرد،
وكتب الحجاج إلى الحكم بن أيوب زوج ابنته - وهو عامله على البصرة - أن يرسل أربعة
آلاف فارس من أهل البصرة، ففعل وسيرهم مع زياد بن عمرو العتكي، فلم يصل إلى
سفيان حتى التقى سفيان مع شبيب. وكان شبيب قد أقام بكرمان حتى استراح وأراح،
ثم أقبل راجعاً فالتقى مع سفيان بجسر دجيل الأهواز، فعبر شبيب الجسر إلى سفيان
فوجده قد نزل في الرجال، وجعل مهاصر بن سيف على الخيل، وأقبل شبيب في ثلاثة
كراديس، فاقتتلوا أشد قتال، ورجع شبيب إلى المكان الذي كان فيه، ثم حمل عليه هو
وأصحابه أكثر من ثلاثين حملة، وأهل الشام على حالهم في ثبات القدم، ومازالوا يقاتلون
الخوارج حتى اضطروهم إلى الجسر. فلما انتهى شبيب إلى الجسر نزل ونزل معه نحو مائة
رجل؛ فقاتلوا حتى المساء، وأوقعوا بأهل الشام من الضرب والطعن ما لم يروا مثله، فأمر
سفيان الرماة أن يرموهم فتقدموا، ورموهم ساعة، فحمل شبيب وأصحابه على الرماة،
فقتلوا منهم أكثر من ثلاثين رجلاً، ثم عطف على سفيان ومن معه فقاتلهم حتى اختلط
الظلام، ثم انصرف، فقال سفيان لأصحابه: لا تتبعوهم.

فلما انتهى شبيب إلى الجسر قال لأصحابه: اعبروا فإذا أصبحنا باكرناهم إن شاء الله.
فعبروا أمامه، وتخلف في آخرهم، وجاء ليعبر وهو على حصان وبين يديه حجر، فنزا

فرسهعليها وهو على الجسر فاضطربت تحته، ونزل حافر رجل حصانه على حرف
السفينة، فسقط في الماء، فلما سقط قال: ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. وانغمس في الماء،
ثم ارتفع، وقال: ذلك تقدير العزيز العليم. وغرق.
قال: وكان أهل الشام قد عزموا على الانصراف، فأتاهم صاحب الجسر، فقال لسفيان:
إن رجلاً منهم وقع في الماء، فتنادوا بينهم: غرق أمير المؤمنين. ثم انصرفوا راجعين، وتركوا
عسكرهم ليس فيه أحد، فكبر سفيان وكبر أصحابه، وأقبل حتى انتهى إلى الجسر،
وبعث إلى المعسكر، وإذا ليس فيه أحد، وإذا هو أكثر العساكر خيراً، ثم استخرجوا
شبيباً فشقوا جوفه، وأخرجوا قلبه؛ فكان صلباً كأنه صخرة، فكان يضرب به الصخرة
فينبو عنها قامة إنسان.
قال: وكان شبيب ينعى لأمه فيقال لها: قتل، فلا تقبل ذلك. فلما قيل لها غرق صدقت
ذلك، وقالت: إني رأيت حين ولدته أنه خرج مني شهاب نار، فعلمت أنه لا يطفئه إلا الماء،
وكانت أمه جارية رومية اشتراها أبوه فأولدها شبيباً سنة خمس عشرين يوم النحر،
وقالت: إني رأيت فيما يرى النائم أنه خرج من قبلي شهاب نار، فذهب ساطعاً إلى
السماء، وبلغ الآفاق كلها، فبينا هو كذلك إذ وقع في ماء كثير فخبا، وقد ولدته في يومكم
الذي تهريقون فيه الدماء، وقد أولت ذلك أن ولدي يكون صاحب دماء وأن أمره سيعلو
ويعظم سريعاً.
خروج مطرف
بن المغيرة ابن شعبة ومقتله
كان خروجه وقتله في سنة سبع وسبعين، وذلك أنه لما قدم الحجاج العراق استعمل أولاد
المغيرة على أعماله لشرفهم ومنزلتهم من قومهم، واستعمل عروة بن المغيرة على الكوفة،
ومطرفاً على المدائن، وحمزة على همذان، فكانوا على أعمالهم أحسن الناس سيرة،
وأشدهم على المريب، وكان المطرف على المدائن لما خرج شبيب، وقد ذكرنا أن المطرف
أرسل يستدعي منه أن يسير إليه من أصحابه من يدارسه ويسمع منه، وأنه سير إليه

جماعة، ولم يحصل بينهم اتفاق، وكان مما تكلموا فيه أن المطرف سألهم عما يدعون إليه،
فقالوا: ندعو إلى كتاب الله وسنة رسوله، وأن الذي نقمنا على قومنا الاستئثار بالفىء
وتعطيل الحدود والتسلط بالجبرية، فقال لهم مطرف: ما دعوتم إلا إلى حق، وما نقمتم إلا
جوراً ظاهراً، أنالكم متابع، فبايعوني على ما أدعوكم إليه: أن نقاتل هؤلاء الظلمة على
أحداثهم، وندعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وأن يكون هذا الأمر
شورى بين المسلمين، يؤمرون من يرضون على مثل الحال التي تركهم عيها عمر بن الخطاب،
فإن العرب إذا علمت أنها إنما يراد بالشورى الرضا من قريش رضوا وكثر تبعكم
وأعوانكم.
فقالوا: هذا مالا نجيبك إليه، وفارقوه، وأحضر مطرف نصحاءه وثقاته، فذكر لهم ظلم
الحجاج وعبد الملك، وأنه ما زال يؤثر مخالفتهم ومناهضتهم، وأنه يرى ذلك ديناً لو وجد
عليه أعوانا، وذكر لهم ما جرى بينه وبين أصحاب شبيب، وأنهم لو تابعوه على رأيه لخلع
عبد الملك والحجاج، واستشارهم فيما يفعل.
فقالوا له: أخف هذا الكلام ولا تظهره لأحد. فقال له يزيد ابن أبي زياد مولى أبيه: والله لا
يخفى على الحجاج مما كان بينك وبينهم كلمة واحدة وليزادن على كل كلمة عشر أمثالها،
ولو كنت في السحاب لالتمسك الحجاج حتى يهلكك، فالنجاء النجاء.
فوافقه أصحابه على ذلك، فسار عن المدائن نحو الجبال، ثم دعا أصحابه الذين لم يعلموا
بحاله إلى ما عزم عليه، فبايعه بعضهم، ورجع عنه بعضهم، وسار نحو حلوان وبها سويد
بن عبد الرحمن السعدي من قبل الحجاج، فأراد هو والأكراد منعه ليعذر عند الحجاج،
فأوقع مطرف بالأكراد فقتل منهم، وسار.
فلما دنا من همذان وبها أخوه حمزة بن المغيرة تركها ذات اليسار، وأرسل إلى أخيه حمزة
يستمده بالمال والسلاح، فأرسل إليه ما طلب سراً، وسار مطرف حتى بلغ قم وقاشان،
وبعث عماله على تلك النواحي، وأتاه الناس.
وكان ممن أتاه سويد بن سرحان الثقفي، وبكير بن هارون النخعي، من الري في نحو مائة

رجل، وكتب البراء بن قبيصة - وهو عامل الحجاج على أصفهان - إليه يعرفه حال
المطرف ويستمده، فأمده بالرجال بعد الرجال على دواب البريد.
وكتب الحجاج إلى عدي بن زياد عامل الري يأمره بقصد مطرف، وأن يجتمع هو والبراء
على محاربته، فسار عدي من الري واجتمع هو والبراء وعدي الأمير، واجتمعوا في نحو
ستة آلاف مقاتل. وكان حمزة بن المغيرة قد أرسل إلى الحجاج يعتذر، فأظهر قبول عذره،
وأراد عزله وخاف أن يمتنع عليه، فكتب إلى قيس بن سعد العجلي، وهو على شرطة
حمزة بعهده على همذان، ويأمره أن يقبض على حمزة ابن المغيرة؛ فسار قيس بن سعد إلى
حمزة في جماعة من عشيرته فأقرأه العهد بولايته، وكتاب الحجاج بالقبض عليه، فقال: سمعاً
وطاعة. فقبض قيس عليه وسجنه، وسار عدي والبراء نحو مطرف فالتقوا واقتتلوا قتالاً
شديداً، فانهزم أصحاب مطرف وقتل هو وجماعة كثيرة من أصحابه، قتله عمر بن هبيرة
الفزاري، وكان الحجاج يقول: إن مطرفاً ليس بولد المغيرة بن شعبة، إنما هو ولد مصقلة بن
هبيرة الشيباني، وكان مصقلة والمغيرة بدعيانه، فألحق بالمغيرة، وجلد مصقلة الحد، فلما
أظهر ورأى الخوارج قال الحجاج ذلك، لأن كثيراً من ربيعة كانوا خوارج ولم يكن منهم أحد
من قيس عيلان.
انتهت أخبار الخوارج فلنذكر الغزوات في خلافة عبد الملك
الغزوات والفتوحات
في أيام عبد الملك بن مروان على حكم السنين
في سنة إحدى وسبعين افتتح عبد الملك قيسارية في قول الواقدي.
وفي سنة ثلاث وسبعين غزا محمد بن مروان الروم صائفة، فهزمهم، وفيها كانت وقعة
عثمان بن الوليد بالروم من ناحية أرمينية، وهو في أربعة آلاف، والروم في ستين ألفاً، فهزمهم
وأكثر فيهم القتل.
وفي سنة أربع وسبعين غزا عبد الله بن أمية رتبيل من سجستان، وكان رتبيل هائباً
للمسلمين، فلما وصل عبد الله إلى بس راسله رتبيل في طلب الصلح، وبذل ألف ألف،

وبعث إليه بهدايا ورقيق، فأبى عبد الله قبول ذلك، وقال: إن ملأ لي هذا الرواق ذهباً وإلا
فلا صلح، وكان غرا، فخلى له رتبيل البلاد حتى أوغل فيها، وأخذ عيه الشعاب والمضايق
وطلب أن يخلي عنه وعن المسلمين، ولا يأخذ منه شيئاً، فأبى رتبيل وقال: يأخذ، ثلاثمائة
ألف درهم صلحاً، ويكتب لنا بها كتاباً، ولا يغزو بلادنا ما دمت أسيراً، ولا يحرق ولا
يخرب.
ففعل، وبلغ ذلك عبد الملك فعزله.
وفيها غزا محمد بن مروان الروم صائفة، وبلغ أندولية، وغزا أيضاً في سنة خمس وسبعين
صائفة حتى خرجت الروم من قبل مرعش، وغزا أيضاً في سنة ست وسبعين من ناحية
ملطية.
وفي سنة سبع وسبعين غزا أمية بن عبد الله ما وراء النهر فبلغ بخارى، وخالف عليه
بكير بن وساج، فصالح أهل بخارى على فدية قليلة، ورجع لقتال بكر.
وفيها غزا أمية أيضاً، وعبر نهر بلخ، فحوصر حتى جهد هو وأصحابه، ثم نجوا بعد ما
أشرفوا على الهلاك، ورجعوا إلى مرو.
وغزا الوليد بن عبد الملك الصائفة.
ذكر غزو عبيد الله بن أبي بكرة رتبيل
وفي سنة تسع وسبعين غزا عبيد الله بن أبي بكرة بلاد رتبيل، وكان الحجاج قد استعمله
على سجستان، وكان رتبيل يؤدي الخراج، وربما امتنع منه، فبعث الحجاج إلى عبيد الله
ابن أبي بكرة يأمره بمناجزته، وألا يرجع حتى يستبيح بلاده، ويهدم قلاعه، ويقتل رجاله.
فسار عبيد الله في أهل البصرة والكوفة، وعلى أهل الكوفة شريح ابن هانيء؛ فمضى
عبيد الله حتى دخل بلاد رتبيل، فأصاب من الغنائم ما شاء، وهدم حصونا، وغلب على
أرض من أراضيهم، وأصحاب رتبيل من الترك يخلون للمسلمين أرضاً بعد أرض، حتى
أمعنوا في بلادهم، ودنوا من مدينتهم، وكانوا منها على ثمانية عشر فرسخاً، فأخذ الترك
عليهم الشعاب والعقاب، فصالحهم عبيد الله على سبعمائة ألف يوصلها إلى رتبيل ليمكن
المسلمين من الخروج، فلقيه شريح فقال: إنكم لا تصالحون، على شيء إلا حسبه السلطان

من أعطياتكم، ثم قال: يأهل الإسلام، تعاونوا على عدوكم، فقال له ابن أبي بكرة: إنك
شيخ قد خرفت. فقال شريح: يأهل الإسلام، من أراد منكم الشهادة فإلي، فاتبعه ناسٌ من
المطوعة غير كثير، وفرسان الناس، وأهل الحفاظ، فقاتلوا حتى أصيبوا إلا قليلا، وجعل
شريح يرتجز ويقول:

أصبحت ذابتً أقاسي الكبرا قد عشت بين المشركين أعصرا
ثمّث أدركت النبيّ المنذرا وبعده صدّيقه وعمرا
ويوم مهران ويوم تسترا والجمع في صفّينهم والنّهرا
هيهات ما أطول هذا العمر

وقاتل حتى قتل في ناس من أصحابه، ونجا من نجا منهم، وخرجوا مهن بلاد رتبيل،
فاستقبلهم الناس بالأطعمة، فكان أحدهم إذا أكل وشبع مات، فحذر الناس وجعلوا
يطعمونهم السمن قليلا قليلا حتى استمرءوا.
وفيها أصاب الروم أهل أنطاكية وظفروا بهم، وكان قد أصاب أهل الشام فلم يغز تلك
السنة أحدٌ منهم.

ذكر مسير عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث إلى رتبيل وما ملكه من بلاده

كان مسيره في سنة ثمانين؛ وذلك أنه لما رجع عبيد الله ابن أبي بكرة ومن معه من بلاد
رتبيل على الحال التي ذكرنا كتب الحجاج إلى عبد الملك يخبرهم، ويخبره أنه قد جهز من
أهل الكوفة والبصرة جيشاً كثيفاً ويستأذنه في إرساله إلى بلاد رتبيل، فأذن له في ذلك،
فجهز من أهل الكوفة عشرين ألف فارس ومن أهل البصرة مثلها، وأنفق فيهم ألفي ألفٍ
سوى أعطياتهم، وأعطى كل رجل يوصف بشجاعة وغناء، وبعث عليهم عبد الرحمن بن
محمد بن الأشعث.
ولما أراد أن يبعثه على الجيش أتاه إسماعيل بن الأشعث، فقال: لا تبعثه، والله ما جاز
جسر الفرات فرأى لوالٍ عليه طاعة، وإني أخاف خلافه.
فقال الحجاج: هو أهيب لي من أن يخالف أمري. وسيره على الجيش، فسار حتى قدم
سجستان، فجمع أهلها فخطبهم ثم قال: إن الحجاج ولاني ثغركم، وأمرني بجهاد عدوكم
الذي استباح بلادكم، فإياكم أن يتخلف منكم أحد فتسمه العقوبة. فعسكروا مع الناس،

وساروا بأجمعهم، وبلغ الخبر رتبيل، فأرسل يعتذر ويبذل الخراج، فلم يقبل منه، وسار إليه،
ودخل بلاده، فترك له رتبيل أرضاً أرضاً ورستاقاً رستاقاً وحصنا حصناً، وعبد الرحمن
يحوي ذلك؛ وكلما حوى بلداً بعث إليه عاملاً، وجعل معه أعواناً، وجعل الأرصاد على
العقاب والشعاب، ووضع المسالح بكل مكان مخوف، حتى حاز من أرضه أرضاً عظيمة،
وملأ الناس أيديهم من الغنائم العظيمة، ومنع الناس من التوغل، وقال: نكتفي بما قد أصبناه
العام من بلادهم حتى نجيئها ونعرفها، ويجترئ المسلمون على طرقها، وفي العام المقبل نأخذ
ما رواءها إن شاء الله تعالى حتى نقاتلهم في آخر ذلك على كنوزهم وذراريهم في أقصى
بلادهم حتى يهلكهم الله تعالى.
وكتب إلى الحجاج بما فتح الله عليه وبما يريد. فكتب الحجاج إليه ينكر فعله، ويأمره
بالمناجزة، فأدى ذلك إلى خروج عبد الرحمن على الحجاج على ما نذكره إن شاء الله
تعالى.
ذكر غزو المهلب بن أبي صفرة ما وراء النهر
وفي سنة ثمانين قطع المهلب نهر بلخ ونزل على كش، وكان الحجاج قد استعمله على
خراسان حين ضمها عبد الملك إلى عمله، فسار وعلى مقدمته أبو الأدهم الزماني في ثلاثة
آلاف، وهم في خمسة آلاف، ولما نزل المهلب على كش أتاه ابن عم ملك الختل فدعاه إلى
غزو الختل، فوجه معه ابنه يزيد، وكان اسم ملك الختل السبل، فسار يزيد وابن عم عم
الملك حتى نازلوه، ونزل كل واحد منهما ناحية، فبيت الملك ابن عمه، وأخذه فقتله،
فحصر يزيد القلعة، فصالحوه على فديةٍ حملت إليه، ورجع يزيد عنهم. ووجه المهلب ابنه
حبيباً، فوافى صاحب بخارى في أربعين ألفاً، فنزل جماعة من العدو قريةً، فسار إليهم
حبيب في أربعة آلاف فقتلهم وأحرق القرية فسبت المحترقة. ورجع حبيب إلى أبيه، وأقام
المهلب بكش سنتين، فقيل له: لو تقدمت إلى ما وراء ذلك ! فقال: ليت حظي من هذه
الغزوة سلامة هذا الجند، وعودهم سالمين، ثم صالح أهل كش على فديةٍ يأخذها منهم.

وفي سنة إحدى وثمانين سير عبد الملك ابنه عبيد الله ففتح قاليقلا.

ذكر دخول الديلم قزوين وقتلهم

كانت قزوين ثغراً للمسلمين من ناحية الديلم، فكانت العساكر لا تبرح مرابطةً بها،
يتحارسون ليلاً ونهاراً، فلما كان في سنة إحدى وثمانين كان في جملة من رابط بها محمد ابن
أبي سبرة الجعفي، وكان فارساً شجاعاً، فرأى الناس يتحارسون فلا ينامون الليل، فقال:
أتخافون أن يدخل عليكم العدو مدينتكم ؟ قالوا: نعم. قال: لقد أنصفوكم إن فعلوا،
افتحوا الأبواب، ولا بأس عليكم. ففتحوها، وبلغ ذلك الديلم، فساروا إليهم وبيتوهم،
وهجموا إلى البلد؛ فقال ابن أبي سبرة: أغلقوا أبواب المدينة علينا وعليهم، فقد أنصفونا،
وقاتلوهم.
فغلقوا الأبواب وقاتلوهم، وأبلى ابن أبي سبرة بلاءً عظيماً، وظفر بهم المسلمون، فلم يفلت
من الديلم أحدٌ، واشتهر اسمه بذلك، ولم يقدم الديلم بعدها على مفارقة أرضهم، فصار
محمد فارس ذلك الثغر المشار إليه. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ذكر فتح قلعة نيزك بباذغيس

وفي سنة أربع وثمانين فتح يزيد بن المهلب قلعة نيزك، فلما بلغه خروجه عن القلعة سار
إليها وحاصرها. فملكها وما فيها من الأموال والذخائر، وكانت من أحصن القلاع
وأمنعها، وكان نيزك إذا رآها سجد لها تعظيماً، وفيها يقول كعب بن معدان الأشقري:

وباذغيس التي من حلّ ذروتها عزّ الملوك فإن شا جار أو ظلما
منيعةٌ لم يكدها قبله ملكٌ إلاّ إذا واجهت جيشاً له وجما
تخال نيرانها من بعد منظرها بعض النجوم إذا ماليلها عتما

وهي أبيات عديدة.

وقال أيضاً يذكر يزيد رحمه الله وفتحها:

نفى نيزكاً عن باذغيس ونيزكٌ بمنزلةٍ أعيا الملوك اغتصابها
محلّقة دون السماء كأنها غمامة صيفٍ زلّ عنها سحابها
ولا يبلغ الأروى شماريخها العلا ولا الطّير إلاّ نسرها وعقابها
واخوّفت بالذّئب ولدان أهلها ولا نبحت إلاّ النجوم كلابها

فتح المصيصة

وفي سنة أربع وثمانين أيضاً غزا عبد الله بن عبد الملك الروم، ففتح المصيصة وبنى
حصنها، وجعل فيها ثلاثمائة مقاتل من ذوي البأس، ولم يكن المسلمون سكنوها قبل ذلك،
وبنى مسجدها.
وغزا محمد بن مروان أرمينية.
وفي سنة خمس وثمانين غزا المفضل بن المهلب باذغيس ففتحها وأصاب مغنماً فقسمه،
فأصاب كل رجل ثمانمائة، ثم غزا أخرون وشومان، فغنم وقسم ما أصاب.
وفيها غزا محمد بن مروان أرمينية، فصاف فيها وشتا. انتهى ذكر الغزوات والفتوحات.
الحوادث الكائنة في أيام عبد الملك بن مروان منذ استقل بالأمر خلاف ما ذكرناه،
وذلك على حكم السنين
قد ذكرنا حوادث السنين في أخبار عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما إلى أن قتل في سنة
ثلاث وسبعين، وذكرنا ما هو متعلقٌ بهذه الدولة الأموية في أثناء أخبار عبد الملك، فلنذكر
خلاف ذلك.
حوادث
ولاية أخيه الجزيرة وأرمينية
في هذه السنة استعمل عبد الملك أخاه محمداً على الجزيرة، وكانت بحيرة أرمينية مباحةً لم
يعرض لها أحد، بل يأخذ منها من شاء، فمنع من صيدها وجعل عليه من يأخذه ويبيعه
ويأخذ ثمنه، ثم صارت بعده لابنه مروان، واستمر ذلك بعده.
وفيها عزل عبد الملك خالد بن عبد الله عن البصرة، واستعمل عليها أخاه بشر بن
مروان، فاجتمع له المصران: الكوفة، والبصرة، فسار بشر إلى البصرة، واستعمل على
الكوفة عمرو بن حريث.
وحج بالناس في هذه السنة الحجاج وهو على مكة واليمن واليمامة، وكان على قضاء
الكوفة شريح بن الحارث، وعلى قضاء البصرة هشام ابن هبيرة، وكان على خراسان بكير
بن وساج.
وفيها مات عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما بمكة وكان سبب وفاته أن
الحجاج أمر بعض أصحابه، فضرب ظهر قدمه بزج رمحٍ مسموم، فمات منها، وعاده

الحجاج في مرضه، فقال: من فعل بك هذا ؟ فقال: أنت، لأنك أمرت بحمل السلاح في بلدٍ
لا يحل حمله فيه. وكانت وفاته بعد قتل ابن الزبير بثلاثة أشهر، وكان عمره سبعاً وثمانين
سنة، ومات غيره من الصحابة رضي الله عنهم.

أربع وسبعون

في هذه السنة عزل عبد الملك طارقاً عن المدينة، واستعمل عليها الحجاج، ففعل ما قدمنا
ذكره.

وفيها استقضى عبد الملك أبا إدريس الخولاني.

وفيها استعمل عبد الملك أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد، على خراسان، وعزل
عنها بكير بن وساج، فسار أمية إليها، فلقيه بحير بن ورقاء بنيسابور، وأخبره عن
خراسان وما يحسن به طاعة أهلها، ورفع على بكير أموالاً أخذها وحذره غدره، وسار
معه حتى قدم مرو، وكان أمية كريماً فلم يعرض لبكير ولا لعماله، وعرض عليه شرطته،
فأبى فولاها بحير بن ورقاء، ثم خير بكيراً أن يوليه ما شاء من خراسان، فاختار
طخارستان.